

# مَعَارِجُ الْقُدُسِ فِي مَعَارِجِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

للإمام حجة الإسلام  
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي



دار الكتب العلمية  
بيروت - لبنان



Bibliotheca Alexandrina

0013985



# مَخَارِجُ الْقُدْسِ فِي مَذَارِجِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

لِلإمام حجة الإسلام  
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

دار الكتب العلمية  
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة  
لدار الكتب العلمية  
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى  
١٤٠٩ هـ - ٢٠١٨ م

---

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان  
ص: ١١/٩٤٢٤ تل: ٤١٢٤٥٤٤ Nasher  
هاتف: ٨١٥٥٧٣ - ٣٦٦١٣٥

## بسم الله الرحمن الرحيم تقديم

### أ - ترجمة الإمام الغزالي:

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي<sup>(١)</sup>، حجة الإسلام، الفيلسوف المتصوف، أحد أعظم أعلام الفكر الإسلامي، ومن كبار أئمة أهل البحث والنظر في علوم الدنيا والدين.

ولد في الطابران (قصة طوس بخراسان) سنة ٤٠٥ هـ (١٠٥٨ م) وكان والده رجلاً فقيراً صالحاً، يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، ويجب مجالسة الفقهاء والمتصوفة. وكان حينما يجلس إليهم يتأثر بأقوالهم ويتضرع إلى الله أن يرزقه ولداً صالحاً مثلهم ويجعله فقيهاً واعظاً. وقبل أن يتوفى الغزالي الوالد أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف، وزوده بما لديه من مال لينفقه عليها قائلاً: «إن لي لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين».

وأشرف عليها الوصي المتصوف، وعلمها الخط، وأدبها إلى أن نفد المال، وكان الوصي فقيراً أيضاً، فنصح الأخوين بأن يدخلوا مدرسة يأكلان فيها ويأويان، ثم يتعلمان في أثناء ذلك، ففعلوا. فكان هذا الصوفي الصالح السبب في سعادتها وعلو درجتها. وكثيراً ما كان أبو حامد يحكي هذا ويقول: «طلبنا

---

(١) بتشديد الزاي نسبة إلى الغزال على عادة أهل خوارزم وجرجان، فإنهم ينسبون إلى القصار قصاري وإلى العطار عطاري. أو بتخفيفها نسبة إلى غزالة من قرى طوس. قال ابن الأثير في اللباب: والتخفيف خلاف المشهور.

العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله .

ثابر أبو حامد على دراسة الفقه وهو ما يزال في ريعان الصبا ، فقد أخذ طرفاً منه في طوس (سنة ٤٦٥ هـ - ١٠٧٣ م) على الإمام أحمد بن محمد الراذكاني (نسبة إلى راذكان من قرى طوس) ثم انتقل إلى جرجان وهو دون العشرين ، ودرس على الإمام أبي القاسم إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي . ثم عاد إلى طوس فمكث بها ثلاث سنين ارتحل بعدها إلى نيسابور (سنة ٤٧٣ هـ) ولازم إمام الحرمين عبد الملك الجويني أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ، ودرس عليه الفقه والأصول والجدل والمنطق والكلام والفلسفة حتى « أحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطلتهم وإبطال دعاويهم »<sup>(١)</sup> .

ويرى المؤرخون أن هذه الفترة من حياة الغزالي كانت أخصب فترات حياته ، ففيها ابتدأ بالتأليف والكتابة ، وفيها بدأت الشكوك تتطرق إلى علمه . ومما لا شك فيه أن تتلمذ الغزالي على إمام الحرمين كان له تأثير كبير على تطوره الروحي ، فقد كان الجويني من كبار أئمة أهل العلم في عصره ، نظاراً ، أصولياً ، متكلماً ، جريئاً في نقده « سلك طريق البحث والنظر والتحقيق بحيث أربى على كثير من المتقدمين ، وأنسى تصرفات الأولين » « ومن قاس طريقته بطريقة المتقدمين في الفروع وأنصف ، أقرّ بعلو منصبه ، ووفور تعبته ونصبه في الدين »<sup>(٢)</sup> .

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) خرج الغزالي إلى المعسكر ، بلاط الوزير نظام الملك (وزير السلطان ملكشاه السلجوقي) في ظاهر نيسابور . وكان مجلسه مجلس أهل العلم ومحط رحالهم ، فناظر الغزالي الأئمة العلماء في مجلسه ، وظهر كلامه عليهم ، فأعجب نظام الملك بالغزالي وبمقدرته في

(١) شرح إحياء علوم الدين للزبيدي .

(٢) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٦٩ و ١٧٨ .

المنظرة، وكان ذلك سبباً في إقباله عليه وتعيينه أستاذاً في المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٨٤ هـ - ١٠٩١ م، وكان حينئذ في الرابعة والثلاثين من عمره.

وسرعان ما اشتهر الغزالي في بغداد، فقد « غلبت حشمته الأمراء والملوك والوزراء » على ما في الطبقات الكبرى للسبكي، و« صار بعد إمامة خراسان إمام العراق » على حد تعبير عبد الغفار بن إسماعيل الفارسي.

ولكن الغزالي، رغم هذه الشهرة، لم يتمتع بمقامه في بغداد مدة طويلة؛ لقد كان في تعطش إلى درك حقائق الأمور من أول أمره وريعان عمره، وكان البحث وراء الحقيقة غريزة وفطرة وضعتا في جبلته. وفي هذه الحقبة من حياته في نظامية بغداد، بدأت تظهر ثمار دراسته على شيخه إمام الحرمين، فانصرف إلى المطالعة والبحث والاستقصاء، بعقلية جريئة ناقدة، لإعتاق فكره من رابطة التقليد التي كانت لا تزال مستحكمة فيه، حتى بلغ درجة الشك فيما يرى ويسمع ويقرأ، وفيما يقول ويعتقد.

وقد بلغت شكوك الغزالي درجة جعلته يفكر بالتخلي عن التدريس، وبمغادرة بغداد؛ وكان إذ ذاك منغمساً في المال والجاه والشهرة، وبدأ الصراع في نفسه بين « شهوات الدنيا » من جانب، وبين « دواعي الآخرة » من جانب آخر، ولم يستقر رأيه على رفض شهوات الدنيا إلا بعد تردد ومجاهدات نفسية عنيفة. ويصف الغزالي نفسه في المنقذ من الضلال فيقول: « فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة. في هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفة، وكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها البتة. ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب، فكان لا تنساغ لي شربة، ولا تنهضم لي لقمة. وتعدى ذلك

إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج». ثم يقول: «ثم لما أحسست بعجزتي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب».

ونصح بعض الأطباء الغزالي بالسياحة، فخرج من بغداد في ذي القعدة من سنة ٤٨٨ هـ قاصداً الحج إلى بيت الله الحرام، ووصل دمشق في مطلع سنة ٤٨٩ هـ. وخلال عشرة أعوام أخذ يتنقل من دمشق إلى القدس إلى الخليل إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى الإسكندرية. وكان يمضي أوقاته في الخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغلاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى. وكان يزور المساجد، ويأوي إلى القفار، وينزوي في المغارات، ويتعرض لأنواع المشاق والمحن. ثم سار إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة الرسول ﷺ.

ورجع الغزالي إلى بغداد، ولكنه استمر في اعتزاله التدريس. وفي ذي الحجة من سنة ٤٩٩ هـ أقنعه الوزير فخر الملك بالتدريس في نظامية نيسابور، ولكنه لم يلبث طويلاً، فبعد سنة أو نحو من ذلك، قتل الوزير فخر الملك، فغادر الغزالي نيسابور إلى طوس، ملازماً بيته، مشغلاً بالتفكير والوعظ والتدريس، واستمر إلى أن مات سنة ٥٠٥ هـ - ١١١١ م عن سن بلغت به الخامسة والخمسين. قال أخوه أحمد: «لما كان يوم الاثنين وقت الصبح، توضأ أخي أبو حامد، وصلى، وقال: علي بالكفن، فأخذه وقبله ووضعه على عينيهِ وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك. ثم مد رجله، واستقبل القبلة ومات».

## ب - مؤلفاته:

عدّ الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد ٢٢٨ كتاباً من كتب الغزالي، عدا الكتب المشكوك في صحة نسبتها إليه. كما عدّ الزبيدي منها ما يقرب من



ثمانين كتاباً ورسالة، والسبكي ما يقرب من ستين كتاباً. ونحن نورد هنا أسماء كتبه المطبوعة والمخطوطة، أما المفقودة فلن نوردتها :

## المطبوعة

**في التصوف:** الأدب في الدين. آداب الصوفية. الأربعين في أصول الدين. الإملاء على إشكال الإحياء. إحياء علوم الدين. أيها الولد. بداية الهداية وتهذيب النفوس بالآداب الشرعية. جواهر القرآن ودرره. الحكمة في مخلوقات الله. خلاصة التصانيف. الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة. الرسالة اللدنية. الرسالة الوعظية. فاتحة العلوم. القواعد العشرة. الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين. المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين (لخص فيه إحياء علوم الدين). مشكاة الأنوار. مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب. منهاج العابدين إلى الجنة. ميزان العمل.

**في العقائد:** الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية. الاقتصاد في الاعتقاد. إجماع العوام عن علم الكلام. الرسالة القدسية في قواعد العقائد. عقيدة أهل السنة. فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية. فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة. القسطاس المستقيم. كيمياء السعادة. المستظهري. المضمون به على غير أهله. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

**في الفقه والأصول:** أسرار الحج (في الفقه الشافعي). المستصفى في علم الأصول. الوجيز في الفروع (في الفقه الشافعي)

**في المنطق والفلسفة:** تهافت الفلاسفة. رسالة الطير. محك النظر في المنطق. مشكاة الأنوار. معارج القدس في مدارج معرفة النفس (وهو كتابنا الذي نقدم له). معيار العلم في المنطق. مقاصد الفلاسفة. المنقذ من الضلال.

## المخطوطة

### في التصوف:

- جامع الحقايق بتجربة العلائق: منه نسخة خطية في مكتبة « أوبسال ».
- زهد الفاتح: منه نسخة خطية في المتحف البريطاني.
- مدخل السلوك إلى منازل الملوك: منه نسخة في « الاسكوريال ».
- معارج السالكين: منه نسخة في مكتبة باريس.
- نور الشمعة في بيان ظهر الجمعة: منه نسخة خطية في « ليدن ».

### في الفقه والأصول:

- البسيط في الفروع على « نهاية المطلب » لإمام الحرمين: منه نسخة خطية في مكتبة « الاسكوريال » وأخرى في دار الكتب المصرية.
- غاية مسائل الدرر: منه نسخة خطية في مكتبة المتحف البريطاني.
- المنحول في الأصول: منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية.
- الوسيط المحيط بأقطار البسيط: منه نسخ خطية في مكتبتى « مونشن » و« اكسفورد » وفي دار الكتب المصرية.

### في الفلسفة:

- حقايق العلوم لأهل الفهوم: منه نسخة في مكتبة باريس.
  - المعارف العقلية والحكمة الإلهية: منه نسخ في مكتبتى باريس وأكسفورد.
  - فضائل القرآن: منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية.
- ولعل أهم كتب الغزالي في نظر الباحثين والمدققين أربعة، لما تحوي من شمولية لفكر الغزالي، ومنهجية متكاملة:

**أحدها:** كتاب « المنقذ من الضلال » الذي يقص فيه الإمام حياته الفكرية وما اعتراها من تطورات أدت به إلى اليقين بعد الشك الذي عصف به . وفي هذا الكتاب يحدد الغزالي موقفه من الاتجاهات السائدة في عصره ، من علم الكلام ومذهب التعليمية ، والفلسفة ، والتصوف . ثم يصرح بأن الحقيقة بجانب المتصوفة ، بعد أن يبين قصور المذاهب الأخرى عن بلوغ اليقين .

**وثاني هذه الكتب:** « تهافت الفلاسفة » الذي يدل عنوانه على مقصد الغزالي من وضعه . وليس الهدف من تأليفه لهذا الكتاب هو هدم آراء الفلاسفة في نفسها ، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين ، وإنما هدفه الأساسي هدم المنهج العقلي الذي استندت إليه هذه الآراء في تأييد بعض المسائل الفلسفية . فهو كما يقول في كتابه التهافت ، لم يلتزم إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير في وجوه أدلتهم ، بما يبين تهافتهم .

**وثالث هذه الكتب:** هو « إحياء علوم الدين » الذي قال فيه الإمام النووي : « كاد الإحياء أن يكون قرآناً » . وقد ألفه أبو حامد ليستعيد الإخلاص الذي درج عليه السلف الصالح إلى القلوب ، فبين فيه أسس الإخلاص ونتائجه وأسبابه وغاياته . وقد رتب الكتب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب فقرات ... كل ذلك ليسهل تناوله <sup>(١)</sup> .

**أما رابع هذه الكتب:** فهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » . وتتمثل أهميته بما تضمنه من نظرية متكاملة ، أو شبه متكاملة ، في النفس والعقل ، كانت (بالإضافة إلى بعض المباحث المتفرقة في كتبه الأخرى) تأسيساً حقيقياً لما يمكن أن نسميه علم النفس الإسلامي .

ونحن في الصفحات التالية نوجز ونلخص أهم الآراء التي وردت في هذا

(١) تراث الإنسانية: ٤٣٥ - ٤٣٦ .

الكتاب، مع مقارنتها حين تدعو الحاجة بنظريات سابقه من الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين.

### ج - هذا الكتاب:

يعتبر كتاب « معارج القدس » المرجع الأساسي في دراسة النفس عند الغزالي، حيث صبّ فيه جلّ آرائه في النفس والعقل، بالإضافة إلى مقتطفات متفرقة تتعلق بنفس الموضوع في بعض كتبه الأخرى. وهذا الكتاب من الكتب التي نوه بها، وأعلن رضاه عنها، ولفت إليها، لكسب سناها واغتنام هداها. وقد ذكر في هذا الكتاب من نتائج القريحة النقادة والفكرة الوقادة، ما كشف الغطاء عن أسرار النفس المخزونة وكنوز العلوم المكنونة، وقال إنه دلّ عليها وأبداها تقريباً إلى الإخوان الذين لهم وفور العقل، وصفاء الذهن، وصحة الغريزة، واتقاد القريحة، وحدة الخاطر، وجودة الذكاء والفطنة، وجزالة الرأي وحسن الفهم، تخليداً للعلم وتوريثاً له.

وقد صدر الإمام كتابه بما يكشف عن محتواه، فهو يقول: « ونحن نعرج في هذا الكتاب من مدارج معرفة النفس إلى معرفة الحق جلّ جلاله، ونذكر مخ ما يؤدي إليه البراهين من حال النفس الإنسانية، ولباب ما وقف عليه البحث الشافي من أمرها، وكونها منزهة عن صفات الأجسام، ومعرفة قواها وجنودها، ومعرفة حدودها وبقائها وسعادتها وشقاوتها بعد المفارقة، على وجه يكشف الغطاء، ويرفع الحجاب، ويدل على الأسرار المخزونة والعلوم المكنونة المضمون بها على غير أهلها. ثم إذا ختمنا فصول معرفة النفس فحينئذ ننعطف على معرفة الحق جلّ جلاله... »<sup>(١)</sup>.

ثم يسرد المؤلف محتويات كتابه تحت عنوان « فهرس الكتاب »<sup>(٢)</sup>. ثم يفصل

(١) انظر ص ٣٢ وما بعدها.

(٢) انظر ص ٣٤.

بعد ذلك ، فيبين في المقدمة رأيه في الألفاظ الأربعة : النفس ، والقلب ، والروح ، والعقل ، فيميز بينها سالكاً في ذلك مسلكاً جديداً لم يسبقه إليه المتقدمون ؛ إذ لاحظ في كل منها معنيين ، أحدهما مادي والآخر روحي ؛ فهو يطلق لفظ النفس للدلالة به على معنيين : أحدهما أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة ، والثاني أن يطلق ويراد به حقيقة الآدمي <sup>(١)</sup> .

والقلب أيضاً يطلق بمعنيين : أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في جوف الإنسان من جانب اليسار ، والثاني هو الروح الإنساني المتحمل لأمانة الله ، المتحلي بالمعرفة ، المركوز فيه العلم بالفطرة <sup>(٢)</sup> .

ونلاحظ أن الغزالي يستعمل هذا اللفظ مرادفاً للنفس في أكثر من موضع في كتبه ، ولكنه يميل في كتبه المتأخرة إلى استعمال القلب كما يستعمله الصوفية ، أي متميزاً عن النفس ، وعند ذلك يكون القلب محلاً للحقائق الميتافيزيقية التي يصل إليها الإنسان حين يتحرر من سلطان البدن والحواس .

وكذلك الروح ، يستعمله الغزالي مرادفاً للنفس في أكثر كتبه ، مثل « الإحياء » و « الرسالة الدنية » و « الروضة » و « الميزان » و « الأربعين في أصول الدين » ؛ ولكنه هنا يميز ، فيطلق الروح حيث « يراد به البخار اللطيف الذي يصعد من منبع القلب ويتصاعد إلى الدماغ بواسطة العروق » <sup>(٣)</sup> . ويطلق أيضاً ويراد به القرآن . وعلى الجملة فهو عبارة عما به حياة ما على الجملة <sup>(٤)</sup> .  
والعقل أيضاً يميز له ثلاثة معان ؛ فهو يطلق ويراد به العقل الأول <sup>(٥)</sup> ، والإطلاق الثاني يراد به النفس الإنسانية <sup>(٦)</sup> ، والإطلاق الثالث يراد به صفة النفس <sup>(٧)</sup> .

(١) انظر ص ٣٩ .

(٢) انظر ص ٤١ .

(٣) انظر ص ٤٢ .

(٤) انظر ص ٤١ .

(١) انظر ص ٣٩ .

(٢) انظر ص ٤١ .

(٣) انظر ص ٤١ .

(٤) انظر ص ٤١ .

وراء هذه الإطلاقات المختلفة لهذه المعاني يبدو لنا فكرة أو علاقة مادية وراء كل لفظ من هذه الألفاظ؛ ف وراء القلب بالمعنى الروحي يكمن القلب اللحمي الصنوبري الشكل. وخلف الروح يكمن الروح الحيواني الذي ينبعث عن القلب الجسماني. وخلف النفس يوجد الجسد. وخلف العقل توجد المعارف والمكتسبات. فكلّ من هذه الألفاظ لها علاقة خاصة بالجسد، وهي تشير بالوقت نفسه إلى معرفة وإدراك القدرة الربانية التي تعبر عنها هذه الألفاظ.

بعد بيان الغزالي للألفاظ الأربعة، ينتقل إلى بيانه وبراهينه على إثبات وجود النفس<sup>(١)</sup> وجوهريتها؛ فيعتبر أولاً أن النفس «أظهر من أن تحتاج إلى دليل في ثبوتها، فإن جميع خطابات الشرع تتوجه لا على معدوم بل على موجود حتى يفهم الخطاب»<sup>(٢)</sup>. ولكنه يستظهر في بيانه ويفصل براهينه على وجود النفس؛ ويمكن تلخيصها بالأدلة التالية:

١ - البرهان الطبيعي: وهو يستند إلى فكرة الحياة والحركة بالإرادة؛ فالأجسام كلها تشترك في أن لها أبعاداً ثلاثة متقاطعة، ولكنها تختلف في الحركة والسكون، وهي لا تتحرك بذاتها بل بمعنى وراء الجسمية هو النفس<sup>(٣)</sup>.

هذا البرهان نفسه بتفصيله نجده عند ابن سينا في الشفاء والإشارات<sup>(٤)</sup>.

٢ - البرهان السيכולوجي: بما أن الإدراك أمر امتازت به الكائنات المدركة، فلا بد لها من قوى زائدة لتقوم بأدائه. فالحيوان «فيه ما في النبات، ويحس ويتحرك بالإرادة، ويهتدي إلى مصالح نفسه، وله طلب لما ينفع وهرب

(١) انظر ص ٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر ص ٤٢.

(٣) انظر ص ٤٢.

(٤) انظر الإشارات لابن سينا - النمط الثالث من النهج العاشر. والشفاء - الفن السادس من الطبيعيات.

عما يضرب؛ فنعلم قطعاً أن فيه معنى زائداً على الأجسام النباتية»<sup>(١)</sup>. هذا المعنى الزائد هو النفس.

٣ - **برهان إدراك المعقولات:** بما أن المعقولات ليست أجساماً، فإن محلها لا يكون جسماً، وإنما هو شيء يضاف إلى الجسم «فالإنسان فيه جميع ما في النبات والحيوان من المعاني، ويتميز بإدراك الأشياء الخارجة عن الحس، مثل أن الكل أعظم من الجزء، فيدرك الجزئيات بالحواس الخمس، ويدرك الكليات بالمشاعر العقلية، ويشارك الحيوان في الحواس، ويفارقه في المشاعر العقلية. فإن الإنسان يدرك الكلي من كل جزئي، ويجعل ذلك الكلي مقدمة قياس، ويستنتج منه نتيجة؛ فلا الإدراك الكلي ينكر، ولا المدرك الذي يحدد، ولا العرض ولا الجسم القابل للعرض، ولا النبات ولا الحيوان غير الإنسان يدرك الكلي حتى يقوم به الكلي فينقسم بانقسام الجسم، إذ الكلي له وحده خاصة من حيث هو كلي لا ينقسم البتة، فلا يكون للإنسان المطلق الكلي نصف وثلث وربع؛ فقابل الصورة الكلية جوهر لا جسم ولا عرض في جسم ولا وضع له ولا أين له فيشار إليه، بل وجوده وجود عقلي أخفى من كل شيء عند الحس، وأظهر من كل شيء للعقل. فثبت بهذا وجود النفس، وثبت على الجملة أنه جوهر، وثبت أنه منزّه عن المادة والصورة الجسمانية»<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر هذا البرهان من أهم البراهين على وجود النفس عند الغزالي. وقد قال بهذا البرهان قبل الغزالي ابن سينا في الشفاء وفي رسالته في معرفة النفس الناطقة<sup>(٣)</sup>. كما أشار إليه مسكويه بقوله: «فقوه الفكر ليست بحسب أجسامنا، بل بحسب شيء يسمى بالنفس الناطقة»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر ص ٤٣.

(٢) انظر ص ٤٣.

(٣) انظر الشفاء - الفن السادس من الطبيعيات. ورسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ص ٩ تحقيق د. ثابت الفندي ١٩٣٤ م.

(٤) انظر اللذات والآلام ص ٦٠.

٤ - برهان الرجل الطائر: يشير الغزالي إلى أن هذا البرهان يصلح لأهل الفطنة ومن فيه لطف الفهم والإصابة<sup>(١)</sup>. وملخصه أن الإنسان إذا تجرد في تفكيره عن كل شيء من المحسوسات والمعقولات، فلا يمكنه أن يتجرد عن تفكيره في أنه موجود وأنه يستطيع أن يفكر؛ ويشرح ذلك بقوله: «إذا كنت صحيحاً مطرحاً عنك الآفات، مجنباً عنك صدمات الهوى وغيرها من الطوارق والآفات، فلا تتلامس أعضاؤك ولا تتماس أجزاءك، وكنت في هواء طلق (أي معتدل) ففي هذه الحالة أنت لا تغفل عن إنيتك وحقيقتك؛ بل وفي النوم أيضاً. فكل من له فطنة ولطف وكياسة يعلم أنه جوهر، وأنه مجرد عن المادة وعلائقها، وأنه لا تعزب ذاته عن ذاته؛ لأن معنى التعقل حصول ماهية مجردة للعاقل وذاته مجردة لذاته، فلا يحتاج إلى تجريد وتقشير. وليس ههنا ماهية ثم معقولة، بل ماهيته معقوليته ومعقوليته ماهيته»<sup>(٢)</sup>.

ويدلل الغزالي على صحة برهانه بقوله: «ثم الدليل على صحة هذا البيان الخاص أنه لو لم يكن المدرك والمشعور به هو حقيقتك - أي نفسك - بل يكون هو البدن وعوارضه، لكان لا يخلو إما أن يكون الشعور به جملة بدنك أو بعضه. وبطل أن تكون الجملة؛ لأن الإنسان في الفرض المذكور قد يكون غافلاً عن جملة البدن وهو مدرك نفسه. وإن كان بعضاً منه فلا يخلو إما أن يكون ظاهراً أو باطناً، فإن كان ظاهراً فهو مدرك بالحس، والنفس غير مدركة بالحس، كيف ونحن في الفرض المذكور قد أغفلنا الحواس عن أفعالها، وفرضنا أن الأعضاء لا تتماس! وإن كان النفس والذات عضواً باطناً من قلب أو دماغ، فلا يجوز أيضاً؛ لأن الأعضاء الباطنة إنما يوصل إليها بالتشريح؛ فثبت أن مدركك ليس شيئاً من هذه الأشياء، فإنك قد لا تدركها وتدرك ذاتك ضرورة، فما ألجئت إلى إدراكه ضرورة لا يكون قطعاً ما لا يدرك إلا بالنظر.

(١) انظر ص ٤٦، ٤٧ من المعارج.

(٢) انظر المعارج ص ٤٧.



فإذن ثبت بهذا أن ذاتك ليس من عداد ما تدركه بالحس أو مما يشبه الحس بوجه من الوجوه»<sup>(١)</sup>.

هذا البرهان اقتبسه الغزالي عن ابن سينا. كما نجده عند أوغسطين الذي أخذه عن آباء الكنيسة الشرقية<sup>(٢)</sup>. وهذا البرهان يقترب كثيراً من الكوجيتو الديكارتي «أنا أفكر إذن أنا موجود».

**٥ - البرهان الشرعي:** يعتبر الغزالي أن بيان جوهرية النفس ثابت من جهة الشرع، فجميع خطابات الشرع تدل على أن النفس جوهر، وكذلك العقوبات الواردة في الشرع بعد المات تدل على أن النفس جوهر؛ فإن الألم وإن حل بالبدن فلأجل النفس. ثم للنفس عذاب آخر يخصه، وذلك كالخزي والحسرة وألم الفراق<sup>(٣)</sup>.

وهذا البرهان نجده عند أفلاطون، كما نجده عند ابن سينا<sup>(٤)</sup>.

**٦ - برهان الاستمرار:** وخلاصة هذا البرهان أن الجسد عرضة للتغير والتبدل والزيادة والنقصان، أما النفس فباقية على حالها لأنها بسيطة. ويشرح الغزالي ذلك بأن يقول: «إنك تعلم أن نفسك مذ كنت لم تتبدل، ومعلوم أن البدن وصفات البدن كلها تتبدل، إذ لو لم تتبدل لكان لا يفتدي، لأن التفتدي أن يحل بالبدن بدل ما تحلل؛ فإذاً نفسك ليس من البدن وصفاته في شيء»<sup>(٥)</sup>. وقد ذكر ابن سينا هذا البرهان قبل الغزالي، فهو يقول في رسالة في معرفة النفس الناطقة: «تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان

(١) انظر المعارج ص ٤٧.

(٢) انظر تاريخ الفلسفة العربية: ١٨٠/٢ - خليل الجبر وحنا الفاخوري - دار المعارف - بيروت.

(٣) انظر المعارج ص ٤٦.

(٤) انظر رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ص ٦.

(٥) انظر المعارج ص ٥٥.

(٦) ص ٧ - ٩.

موجوداً جميع عمرك، حتى إنك تتذكر كثيراً من أحوالك، فأنت إذن ثابت مستمر ولا شك في ذلك، وبدنك وأجزائه ليس ثابتاً مستمراً، بل هو أبداً في التحلل والانتقاص... فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة».

لا بد من الإشارة هنا إلى أن بعض هذه الأدلة الستة التي ذكرناها أشار إليها الغزالي بوصفها أدلة على روحانية النفس وجوهريتها، فاعتبرناها في ملخصنا أدلة على وجود النفس الإنسانية أيضاً.

ينتقل الغزالي إلى بيان القوى الحيوانية<sup>(١)</sup>، فيرى أنها تنقسم إلى محرقة ومدركة. فالمحرقة إما أن تكون محرقة على أنها باعثة على الفعل، أو على أنها فاعلة. والباعثة إما أن تكون على جذب النفع أو على دفع الضرر. «والفاعلة قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات، من شأنها أن تشنج العضلات، فتجذب الأوتار والرباطات المتصلة بالأعضاء إلى نحو جهة المبدأ، أو ترخيها فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ. وهذه القوة هي التي يعبر عنها بالقدرة. والباعثة هي الإرادة»<sup>(٢)</sup>.

أما القوى المدركة<sup>(٣)</sup> فهي تنقسم إلى قسمين: مدركة من ظاهر، ومدركة من باطن.

والغزالي يبحث موضوع الإدراك الحسي - كما يفعل أغلب القدماء - بتصنيفه إلى نوعين من الإحساس وهما: الإحساس الظاهر الذي يتم بواسطة الحواس الظاهرة، والإحساس الباطن وهو وظيفة الحواس الباطنة.

وعندما يتكلم الغزالي عن الحواس فإنه يربتها على قاعدة البساطة والتركيب - كما يفعل غيره من فلاسفة الإسلام - مجردة عن الغاية أو الوظيفة. فيرى أن أول

(١) انظر ص ٥٧ وما بعدها.

(٢) انظر ص ٥٧.

(٣) انظر ص ٦٠.

الحواس اتصالاً بالحيوان، وأعمها لجميع الحيوانات وأسراها في بدن الحيوان، هي حاسة اللمس، ويعرفها بأنها « قوة مبنوثة في جميع بشرات الحيوان ولحمه وعرقه وعصبه. يدرك بها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والصلابة والرخاوة واللين والخشونة والخفة والثقل »<sup>(١)</sup>. ثم يسترسل في بيان الحكمة فيها<sup>(٢)</sup>.

ويأتي بعدها حاسة الشم « وهي قوة مبنوثة في زائدتى الدماغ كحلمتى الثدي. ويدرك بها الروائح المختلفة الطيبة منها والكريهة »<sup>(٣)</sup>.

ثم حاسة الذوق « وهي أيضاً طليعة تعرف الطعوم الموافقة والمنافية. وهي قوة مرتبة في العصب المفروش على جرم اللسان، تدرك الطعوم المتحللة من الأجرام المماسية لها المخالطة للرطوبة العذبة التي فيها مخالطة بحيلة »<sup>(٤)</sup>.

ثم يتكلم عن حاسة البصر ووجه منفعتها<sup>(٥)</sup>، وحاسة السمع ووظيفتها ومرتبته<sup>(٦)</sup>.

أما القوى المدركة من باطن، أو الحواس الباطنة، فنلخص الأمور التالية بما يتصل بها:

١ - تعدادها وتفصيلها.

٢ - ترتيبها.

٣ - أماكنها.

٤ - إثباتها.

١ - فمن حيث تعدادها وتفصيلها فقد أثبت الغزالي أن تعدد الحواس الباطنة ضروري لإدراك الصور والمعاني الجزئية؛ فكان لا بد من وجود الحس المشترك ليدرك صور الأشياء، على اعتبار أن الحواس لا تقدم إلا مجرد الانطباع

(٤) انظر ص ٦١.

(٥) انظر ص ٦٢.

(٦) انظر ص ٦٢.

(١) انظر ص ٦٠.

(٢) انظر ص ٦٠.

(٣) انظر ص ٦١.

الحسي. ثم لا بد من الخيال لحفظ صور الإحساس. كما يبدو الوهم ضرورياً . لاستخلاص المعاني الجزئية من المحسوسات. والذاكرة تحفظ المعاني. والمخيلة هي التي تتصرف في معطيات قوى الإحساس الباطن.

هذا التفصيل لقوى الإحساس الباطن لا يختلف كثيراً عن تفصيل أرسطو في كتاب النفس، عند تمييزه بين الحس المشترك والتخيل والذاكرة. وقد تابعه بذلك الفارابي<sup>(١)</sup>، ومن بعده ابن سينا<sup>(٢)</sup>.

٢ - أما من حيث ترتيب الحواس الباطنة، فالغزالي يضعها في مراتب متدرجة تبعاً لقدرتها على التجريد<sup>(٣)</sup>.

ففي المرتبة الأولى الحس المشترك، فإنه مجرد نوعاً من التجريد، إذ لا تحل في الحاس تلك الصورة بل مثال منها، إلا أن ذلك المثال إنما يكون إذا كان الخارج على قدر مخصوص وبعد مخصوص<sup>(٤)</sup>.

وفي المرتبة الثانية إدراك الخيال، وتجريده أتم قليلاً وأبلغ تحصيلاً، فإنه لا يحتاج إلى المشاهدة بل يدرك مع الغيبوبة، إلا أنه يدرك مع تلك اللواحق والغواشي من الكم والكيف وغير ذلك<sup>(٥)</sup>.

ويتبعه في المرتبة الثالثة إدراك الوهم، وتجريده أتم وأكمل مما سبق، فإنه يدرك المعنى المجرد عن اللواحق وغواشي الأجسام كالعداوة والمحبة، إلا أنه لا يدرك عداوة كلية ومحبة كلية، بل يدرك عداوة جزئية بأن يعلم أن هذا الذئب عدو مهروب منه، وأن هذا الولد صديق معطوف عليه<sup>(٦)</sup>.

وفي المرتبة الرابعة يأتي إدراك العقل، وذلك هو التجريد الكامل عن كل غاشية وجميع لواحق الأجسام<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٨٧ - ٩١ - دار المشرق - بيروت.

(٢) النجاة ص ٢٦٥، والشفاء: ٣٣٢/١.

(٣) انظر ص ٧٥.

(٤) انظر ص ٧٦.

هذا من حيث ترتيبها تبعاً لتدرجها في التجريد، ولكن الغزالي يضع ترتيباً آخر يرتكز على أساس أن القوى متفاوتة الرتبة، فبعضها أرادت لنفسها، وبعضها أرادت لغيرها، وبعضها خادمة، وبعضها مخدومة<sup>(١)</sup>.

٣ - أما محال هذه القوى وأماكنها، فإن الغزالي يقول: « فاعلم أن هذه قوى جسمانية فلا بد لها من محال جسمانية خاصة واسم خاص »<sup>(٢)</sup>. ثم يحدد مكان كل قوة من هذه القوى على الترتيب.

٤ - ويتوسع الغزالي في إثبات هذه القوى<sup>(٣)</sup>، وهو يقترب في أدلته من ابن سينا وخاصة في إثباته وجود الحس المشترك<sup>(٤)</sup>.  
بعد بيان القوى الحيوانية، ينتقل الغزالي إلى بيان القوى الخاصة بالنفس الإنسانية، من العقل النظري والعقل العملي، وبيان مراتب العقل، واختلاف الناس في العقل الهولاني، وبيان العقل القدسي، وبيان أمثلة درجات العقل من الكتاب الإلهي، وبيان تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما إلى الآخر، وبيان حقيقة الإدراك ومراتبه في التدرج<sup>(٥)</sup>. وهذه المسائل تستغرق معظم كتاب معارج القدس.

ولا يوجد العقل إلا عند الإنسان، لأن القوى الحيوانية تنتهي عند التخيل والوهم، بينما الإنسان يتميز بالعلم والإرادة. ويشير الغزالي إلى أن النفس الإنسانية الناطقة تنقسم قواها إلى قسمين<sup>(٦)</sup>: قوة عملية وهي العقل العملي، وقوة نظرية وهي العقل النظري. فالقوة النظرية لتكميل جوهر النفس، والقوة العملية لسياسة البدن وتدبيره على وجه يفرض به إلى الكمال النظري<sup>(٧)</sup>.  
وبما أن الغزالي لا يتعد كثيراً عن فلاسفة اليونان والإسلام في فهمه للعقل

(٥) انظر ص ٣٤ - فهرس الكتاب.

(٦) انظر ص ٦٧.

(٧) انظر ص ٦٨.

(١) انظر ص ١٠٨، ١٠٩.

(٢) انظر ص ٦٦.

(٣) انظر ص ٦٤ - ٦٦.

(٤) انظر الشفاء لابن سينا: ١/٢٩١ و ٣٣٣.

ومراتبه. فقد رأينا تنميًا للفائدة أن نستعرض بصورة موجزة وسريعة تطور مفهوم العقل منذ أرسطو حتى الغزالي.

### رأي أرسطو في العقل:

لخص جيلسون نظرية أرسطو في العقل على النحو التالي:

١ - في كل كائن طبيعي أو اصطناعي عنصر يكون مادته وعنصر يكون صورته؛ والعنصر الأول بالقوة ويحدث الثاني بالفعل كل ما يقع تحت جنسه. فمن الضروري إذن أن يكون في النفس عقل قابل لأن يصبح كل شيء، وعقل قادر على أن يحدث كل شيء.

٢ - إن العقل القادر على أن يحدث كل شيء هو ملكة.

٣ - إن عمله بالنسبة للمعقولات بالقوة التي يجعل منها معقولات بالفعل، كعمل النور بالنسبة إلى المرئيات بالقوة التي يجعل منها مرئيات بالفعل.

٤ - هو مفارق.

٥ - غير قابل للانفعال.

٦ - لا يدخل جوهره تركيب.

٧ - هو في جوهره فعل.

٨ - هو أزلي لا يلحقه الفناء.

٩ - أما العقل المنفعل فإنه قابل للفساد، ولا يستطيع أن يعقل بدون مساعدة العقل الفعال.

فالعقل الفعال يؤثر في العقل المنفعل الذي يعتبره أرسطو مادة يطبع فيها العقل الفعال صورة الأشياء. ونسبة العقل الفعال إلى المعقولات كنسبة النور إلى المرئيات<sup>(١)</sup>.

(١) انظر الدراسات النفسية عند المسلمين ص ٢٩٩، ٣٠٠ - عبد الكريم عثمان - الناشر مكتبة وهبة

## رأي الإسكندر الأفروديسي:

يُميز الأفروديسي - وهو من أكبر شراح أرسطو، وعنه نقل فلاسفة المسلمين أكثر آرائه في العقل - يميز بين ثلاثة عقول:

١ - العقول الهولاني أو المادي؛ وهو مجرد الاستعداد أو القوة.

٢ - العقل المكتسب أو بالملكة؛ وهو العقل الذي يفكر، أي ينتقل من القوة إلى الفعل.

٣ - العقل الفعال؛ وهو الذي يجعل الهولاني مكتسباً ويخرجه من القوة إلى الفعل. وهو مفارق للمادة، يتحد بالعقل وقت التفكير، وهو إلهي خالد يدبر الأشياء التي تحت فلك القمر.

وقد كان لهذه النظرية أثرها على فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا والغزالي في كلامهم عن العقل القدسي الفعال.

وقد ألح الأفروديسي على فكرة مفارقة العقل الفعال، بينما كانت هذه العبارة غامضة عند أرسطو. وكذلك فإن العقل بالملكة الذي أشار إليه الأفروديسي لا نجده واضحاً عند أرسطو.

## رأي الفارابي في العقل:

وضع الفارابي رسالة مشهورة باسم «رسالة العقل» استعرض فيها ستة أنواع من العقول:

١ - العقل بمعنى التعقل، وهو الذي يقول به الجمهور بالمعنى الشائع بينهم.

٢ - العقل الذي يردده المتكلمون في كتاباتهم وعلى ألسنتهم. ويعنون به المشهور في بادي الرأي عند الجميع أو الأكثر.

٣ - العقل الذي يذكره أرسطو في البرهان؛ ويعني به قوة النفس التي بها يحصل للإنسان اليقين بالمقدمات الكلية الصادقة الضرورية، لا عن قياس أصلاً

ولا عن فكر، بل بالفطرة والطبع ومن حيث لا يشعر من أين حصلت وكيف حصلت، فإن هذه القوة جزء ما من النفس يحصل لها المعرفة الأولى لا بفكر ولا بتأمل أصلاً. وتلك المقدمات هي مبادئ العلوم النظرية.

٤ - العقل الذي يذكره أرسطو في الأخلاق؛ وهو الجزء من النفس الذي يحصل بالمواظبة على اعتياد شيء مما هو في جنس من الأمور، وعلى طول تجربة شيء شيء مما هو في جنس من الأمور على طول الزمان، واليقين بقضايا ومقدمات في الأمور الإرادية التي من شأنها أن تؤثر أو تجتنب. أو هو استنباط الأمور الإرادية والعملية في مقابل أصحاب العلوم النظرية. وهذا العقل يتزايد مع الإنسان طول عمره، ولذلك يتفاوت به الناس.

٥ - العقل الذي يذكره أرسطو في كتاب ما بعد الطبيعة؛ وهو العقل الفعال كموجود مفارق قبل الاتصال بالنفس.

٦ - العقل الذي يذكره أرسطو في كتاب النفس.

وهذا العقل الأخير هو الذي يهيم الفارابي، وقد ميز فيه أربع مراتب:

١ - العقل الهولاني أو العقل بالقوة: وهو قوة للنفس تستعد لانزعاج ماهيات الأمور كلها<sup>(١)</sup>.

٢ - العقل بالفعل أو بالملكة: وهو نفس العقل السابق حين تحصل فيه المعقولات بالفعل عن طريق اتحاد الصور العقلية الموجودة في الأشياء، فتنتقل من كونها ما يمكن إدراكه إلى كونها مدركة.

٣ - العقل المستفاد: وهو العقل بالفعل الذي عقل المعقولات المجردة وصار قادراً على إدراك الصور المفارقة.

٤ - العقل الفعال<sup>(٢)</sup>: وهو صورة مفارقة لم تكن في مادة ولا تكون أصلاً.

(١) رسالة العقل. نشرها بويج سنة ١٩٣٨ (٢) انظر رسائل الكندي للدكتور أبو ريدة.



ويسميه أحياناً الروح الأمين، كما يسمى العقول بالملائكة، والأفلاك التي فيها العقول بالملا الأعلى. وهذا العقل هو بنوع ما عقل بالفعل، شبيه بالعقل المستفاد ولكنه خارج عن النفس، في فلك القمر، يشبه الشمس التي تخرج الألوان من القوة إلى الفعل.

### رأي ابن سينا:

أما ابن سينا فقد أخذ عن الفارابي قوله بالعقول الأربعة والعقل الفعال. ولا يختلف في ذلك عن آراء الكندي والفارابي إلا في بعض الاختلافات البسيطة، وذلك حين ينظر إلى العقل كقوة تستكمل بالمعقولات شيئاً فشيئاً<sup>(١)</sup>.

### العقل عند الغزالي:

يذكر الغزالي في المعارج<sup>(٢)</sup> نفس العقول التي ذكرها الفارابي وابن سينا، فهناك أولاً العقل الهولاني الذي هو عبارة عن قوة استعداد لقبول الماهيات المجردة موجودة لكل شخص من النوع ولكن على السواء، وفيها ترتب وتفاضل فيه خلاف بين الحكماء<sup>(٣)</sup>. هذا العقل هو كقوة الطفل على الكتابة.

ويسمى هذا العقل عقلاً ممكناً أو بالملكة، وذلك عندما يحصل فيه من المعقولات الأولى التي يتوصل منها إلى المعقولات الثانية. ويعني بالمعقولات الأولى المقدمات التي بها يقع التصديق لا بالاكتساب ولا أن يشعر بها المصدق أنه كان يجوز له أن يخلو عن التصديق بها وقتاً البتة، مثل اعتقادنا أن الكل أعظم من الجزء، أو أن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية. فما دام إنما حصل فيه من العقل هذا القدر فقط يسمى عقلاً ممكناً أو عقلاً بالملكة<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية، فقرة ابن سينا، هامش د. الفندي.

(٢) انظر ص ٦٩، ٧٠.

(٣) انظر ص ٦٩.

(٤) انظر ص ٧٠.

ويأتي في مرحلة تالية العقل بالفعل . ويشرحه الغزالي بقوله : « وهو أن يكون قد حصل فيها أيضاً - أي النفس - الصور المعقولة المكتسبة بعد المعقولة الأولية ، إلا أنه ليس يطالعها ويرجع إليها بالفعل ، بل كأنها عنده مخزونة ، فمتى شاء طالع تلك الصورة بالفعل وعقلها وعقل أنه عقلها . وتسمى عقلاً بالفعل لأنه يعقل متى شاء بلا اكتساب تكلف وتجشم ، وإن كان يجوز أن تسمى عقلاً بالقوة بالقياس إلى ما بعده »<sup>(١)</sup> .

وفي المستوى الرابع يكون العقل مستفاداً أو قدسياً ؛ ويعبر عنه الغزالي بقوله : « وهو أن تكون الصور المعقولة حاضرة فيه ، وهو أن يطالعها بالفعل ويعقلها بالفعل ويعقل أنه يعقلها بالفعل ، فيكون حينئذ عقلاً مستفاداً ؛ وهذا هو العقل القدسي . وإنما سمي مستفاداً لأنه سيتضح أن العقل بالقوة إنما يخرج إلى الفعل بسبب عقل هو دائم الفعل ، وأنه إذا اتصل به العقل بالقوة نوعاً من الاتصال انطبع فيه بالفعل نوع من الصورة تكون مستفاده من خارج »<sup>(٢)</sup> .

وكما أن ابن سينا يرى أن تمام العقل إنما يكون في هذه المرحلة ، فكذا يرى الغزالي الذي يقول : « وعند العقل المستفاد يتم الجنس الحيواني والنوع الإنساني ، وهناك تكون القوة الإنسانية تشبهت بالمباديء الأولية للوجود كله »<sup>(٣)</sup> .

أما العقل الأخير في سلسلة العقول التي يتكلم عنها الغزالي في المعارج فهو العقل الفعال ؛ وهو العقل الذي أشار إليه بقوله عند كلامه عن العقل المستفاد « إنما يخرج - أي العقل المستفاد - إلى الفعل بسبب عقل هو دائم الفعل »<sup>(٤)</sup> . هذا العقل هو مفارق عند الغزالي وعند أكثر فلاسفة الإسلام ، ما عدا ابن رشد الذي أنكر رأي الأفروديسي في العقل الهولاني ، وقرر أن هذا العقل ليس

(١) انظر ص ٧٠ .

(٢) انظر ص ٧٠ .

(٣) انظر ص ٧٠ .

(٤) انظر ص ٧٠ .

جوهرًا ولا موجوداً بالفعل، ولا هو شيء قبل التعقل، بل هو مجرد استعداد لقبول الصور المعقولة من العقل الفعال. وعلى هذا يصبح العقل الفعال والهيولاني عنده واحداً من حيث صلة النفس بالبدن، يقوم أحدهما باختراع المعاني وتجريدها، بينما يستعد الآخر لقبولها. فالعقل الفعال على هذا الأساس وظيفة من وظائف النفس كالتغذية والحركة، أو بمعنى آخر إنه حاسة للنفس حين تدرك أنها ذات مدركة<sup>(١)</sup>.

فالعزالي يعارض ابن رشد في رأيه هذا، ويفرد عدة صفحات من كتابه<sup>(٢)</sup> هذا لإثبات العقل المفارق الفعال من عدة وجوه:

١ - من حيث الشرع؛ وهو برأيه أظهر من أن يثبت لوروده جلياً في النصوص، كقوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله: ﴿ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا﴾<sup>(٥)</sup>.

٢ - من حيث ترتيب الموجودات وتفاضلها، وأنها في أجسام البسائط تنتهي إلى العرش، وفي الروحانيات إلى العقل والنفس، وفي المركبات إلى جوهر محمد ﷺ.

٣ - من حيث الإدراك؛ لأن المرتسم بالصورة العقلية غير جسم ولا في جسم، والمعقولات المجردة كلها تكون في الجوهر المفيض للمعقولات وهو العقل الفعال أو روح القدس.

(١) انظر الدراسات النفسية عند المسلمين ص ٣١٤.

(٢) انظر ص ١٣٥ وما بعدها.

(٣) النجم: ٦٠، ٥.

(٤) التكوين: ٢٠، ١٩.

(٥) الشورى: ٥١.

٤ - اتصال نفوسنا به وتلقيها الصور المعقولة ، وخروجها بذلك من القوة إلى الفعل .

هذا مختصر لآراء الغزالي في موضوع العقل كما بسطها في هذا الكتاب . ونشير إلى أنه في كتابه « معيار العلم » ميز بين عدة أنواع من العقول ، هي : ١ - العقل الذي يريده المتكلمون . ٢ - العقل النظري . ٣ - العقل العملي . ٤ - العقل الهولاني . ٥ - العقل بالملكة . ٦ - العقل بالفعل . ٧ - العقل المستفاد . ٨ - العقل الفعال .

ولكنه في موضع آخر من الكتاب نفسه يشير إلى أنواع العقول بتركيز أكبر فيقول : العقول تطلق ويراد بها عدة أمور :

١ - ما يريده الجمهور .

٢ - ما يريده المتكلمون .

٣ - ما يريده الفلاسفة .

ثم يفصل القول في رأي كل فريق من هذه الفرق في أنواع العقول .

بعد تفصيله الكلام في العقول ، يخصص الغزالي فصلاً من كتابه هذا « معارج القدس » للكلام عن النبوة والرسالة<sup>(١)</sup> . فيبين أن الرسالة لا تقتنص بالحد والحقيقة بذكر جنسها وفصلها<sup>(٢)</sup> . ثم يبين أن الرسالة أثره علوية ، وحظوة ربانية ، وعطية إلهية لا تكتسب بجهد ولا تنال بكسب ؛ لكنه يستدرك فيقول : « لكن الجهد والكسب في إعداد النفس لقبول آثار الوحي بالعبادات المشفوعة بالفكر والمعاملات الخالصة عن الرياء والسمعة من لوازمها »<sup>(٣)</sup> .

ثم يثبت الرسالة بطريقتين : جلي وتفصيلي<sup>(٤)</sup> . ثم يبين خواص الرسالة وهي

(١) انظر ص ١٢٩ ، ١٤٧ .

(٣) انظر ص ١٣١ .

(٢) انظر ص ١٣٠ .

(٤) انظر ص ١٣٢ - ١٣٦ .

المعجزات، فيجعل لها ثلاث خواص: إحداها تابعة لقوة التخيل والعقل العملي، والثانية تابعة لقوة العقل النظري، والثالثة تابعة لقوة النفس<sup>(١)</sup>.

ثم يختم الغزالي هذا الباب<sup>(٢)</sup> ببيان مراتب النوع البشري حسب درجة امتلاكهم للقوى النظرية والعملية والنفسانية، ثم درجة تهيم هذه القوى للاستكمال، فيجعل أفضل النوع البشري من أوتي الكمال في حدس القوة النظرية حتى استغنى عن المعلم البشري أصلاً. وأما الذي ليس لهم استكمال شيء من القوى إلا أنهم يصلحون الأخلاق ويقتنون الملكات الفاضلة فهم الأذكاء من النوع الإنساني، ليسوا من ذوي المراتب العالية، إلا أنهم متميزون عن سائر أصناف الإنسان<sup>(٣)</sup>.

بعد هذا يبين الغزالي ما ينتظر الإنسان بعد المفارقة من سعادة وشقاوة<sup>(٤)</sup>؛ فالمعاد روحاني وجسداني، وإنما يتعرف حال ما بعد الموت من الأنبياء عليهم السلام، لأنهم الذين اطلعوا على أحواله وحياً وإخباراً. ثم يبين كيفية السعادة أو الشقاوة التي هي بحسب الروح والقلب، ويشرح أن لكل قوة نفسانية لذة وخيراً يخصها، وأذىً وشرّاً يخصها<sup>(٥)</sup>، ويعطي أمثلة على ذلك. ويبين الكمالات الملائمة لكل قوة من القوى الحيوانية والإنسانية<sup>(٦)</sup>. ثم يبرهن أن النفس الناطقة « كمالها الخاص بها أن يصير عالماً عقلياً مرتسماً فيه صورة الكل، والنظام المعقول في الكل، والخير الفائض في الكل، مبتدأ من مبدأ الكل، وسالكاً إلى الجواهر الشريفة الروحانية المطلقة »<sup>(٧)</sup>. « فإذا قيس هذا بالكمالات المعشوقة التي للقوى الأخرى، توجد في المرتبة التي بحيث يقبح معها أن يقال إنه أفضل، وأتم منها، بل لا نسبة لها البتة بوجه من الوجوه فضيلة وتاماً وكثرة ودواماً »<sup>(٨)</sup>.

(١) انظر ص ١٣٦ وما بعدها.

(٥) انظر ص ١٤٨.

(٢) انظر ص ١٤٦.

(٦) انظر ص ١٤٩.

(٣) انظر ص ١٤٧.

(٧) انظر ص ١٤٩.

(٤) انظر ص ١٤٧.

(٨) انظر ص ١٤٩.

ثم يبين في خلاصة هذا الفصل<sup>(١)</sup> أحوال النفس ومراتبها بعد المفارقة، ما بين نفوس لا منعمة ولا معذبة كحال الصبيان والمجانين، وهي النفوس التي فارقت قبل أن اكتسبت حقاً أو باطلاً، ونفوس اعتقدت اعتقادات وهمية فاسدة مضادة للحق، وأضافت إليها أعمالاً على خلاف الشرع، فهي في عذاب مقيم، ونفوس تعذب مدة ثم تنال الجنة. أما من يحصل له العلوم اليقينية إما على سبيل الحدس وإما على سبيل الفكر، ونزه أخلاقه وحسنها، وعمل بموجب الشرع، فله الدرجة العليا في السعادة، وله الوصول بلا انفصال، وهو النظر إلى الجبال الحق والجلال المحض والكمال الصرف كما قال الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾<sup>(٢)</sup>. فهذه هي المرتبة العليا والسعادة القصوى التي يجب أن يسعى إليها الإنسان.

وبعد بيان مراتب النفوس في الآخرة بعد المفارقة، وبيان المرتبة العليا التي تبلغها أرقى هذه النفوس من السعادة باللقاء والرؤية، وبيان حقيقة هذه الرؤية<sup>(٣)</sup>، ينتقل الغزالي إلى التدرج في معرفة الحق جلّ جلاله، ومعرفة صفاته وأفعاله<sup>(٤)</sup>، فيبين الأمور اللازمة معرفتها في واجب الوجود<sup>(٥)</sup>؛ فالأمر الأول أنه لا يكون عرضاً. والثاني: أنه لا يكون جسماً. والثالث: أنه لا يكون مثل الصورة. والرابع: أنه لا يكون وجوده غير ماهيته. والخامس: أنه لا يتعلق بغيره على وجه يتعلق ذلك الغير به، على معنى أن يكون كل واحد منها علة للآخر فيتقابلان، فإن ذلك محال. والسادس: أنه لا يتعلق بغيره على وجه يتعلق ذلك

(١) انظر ص ١٥٤.

(٢) القيامة: ٢٢، ٢٣.

(٣) انظر ص ١٥٦.

(٤) انظر ص ١٦١.

(٥) انظر ص ١٦١ - ١٦٣.

الغير به على سبيل التضاييف، لأنه يكون ممكن الوجود. والسابع: أنه لا يجوز أن يكون شيئان كل واحد منهما واجب الوجود. والثامن: أن كل ما سوى واجب الوجود ينبغي أن يكون صادراً من واجب الوجود.

ثم يبين الدليل «على أن في الوجود موجدًا واجب الوجود، يتعلق الكل به ولا يتعلق وجوده بغيره، فيكون منتهى الموجودات، وعنده نيل الطلبات»<sup>(١)</sup>.

وبعد الكلام على واجب الوجود وذاته وصفاته، يستطرد الغزالي في اعتذار قائلًا: «اعلم أنا وإن تدرجنا إلى معرفة ذاته وصفاته من معرفة النفس فذلك على سبيل الاستدلال، وإلا فالله تعالى منزّه عن جميع صفات المخلوقات، فلا يوصف جل أن يوصف، وجل أن يقال جل، وعز أن يقال عز، وأكبر أن يقال أكبر. وإذا بلغ الكلام إلى الله فأمسكوا»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يطرح الغزالي رداء الفيلسوف المناظر، ويلبس رداء الفقيه المنزه، فيقول: «وما ورد من هذه الألفاظ في القرآن والأخبار، فتفسر بشمراتها ونهاياتها، لا بعوارضها ومبادئها»<sup>(٣)</sup>.

هذا ملخص لبعض المسائل التي وردت في كتاب «معارج القدس في مدارج معرفة النفس» ولم نتعرض فيه لجميع المسائل التي ذكرها المصنف في الكتاب خوفاً من التطويل. ومهما أسهنا في الكلام على هذا الكتاب فلن يغني ذلك عن قراءته بدقة وتمعن. فهذا الكتاب، بالرغم من قلة عدد صفحاته نسبياً، يعتبر مرجعاً أساسياً في دراسة نشأة علم النفس الإسلامي الذي يعتبر الغزالي بدون شك مؤسسه ومنهجه دون منازع.

(١) انظر ص ١٦٣.

(٢) انظر ص ١٦٧.

(٣) انظر ص ١٦٧.

نشير بعد هذا العرض إلى أننا ألحقنا بهذا الكتاب قصيدتين رائعتين للإمام  
الغزالي، تتصلان بتزكية النفس والسمو بها في معارج القدس، إحداها هائية  
والأخرى تائية.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد شمس الدين

بيروت في ٢٦ ذو القعدة ١٤٠٨ هـ

الموافق ١١ تموز ١٩٨٨ م.



بسم الله الرحمن الرحيم

### [ خطبة الكتاب ]

الحمد لله مبدع الأرواح وخالق الجسد، وفاتح الأغلاق والعقد، ومانح الأغلاق<sup>(١)</sup> والعدد، ومن أنفَسها الهدى والرشد، جداً بعدد ما يتكرر من لحظات العيون ويتعدد، ويتجدد من أنفاس الصدور ويتردد.

والصلاة والسلام على أكرم والدٍ وولد، محمد وآله صلاة تبقى وتتأبد.

اعلم أن الله تعالى فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر، واستخلص همهم لمشاهدة عجائب صنعه في البدو والحضر، فكلما لاحظوا شيئاً لاحظوا فيه عبرة لأن جميع الموجودات مرآة للوجود الحق المحضر، فالظاهر بذاته هو الله سبحانه، وما سواه فأيات ظهوره ودلائل نوره:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فكلما سنح لهم شيء في مسارح النظر ومجاري الفكر، عاجوا<sup>(٢)</sup> منه إلى جناب القدس حتى يتصلوا بمن هو شديد القوى ذو مرة فاستوى، لم تغيره الأحوال بل علومه وكمالاته حاصلة بالفعل وهو بالأفق الأعلى. وإذا سنح لهم هذا العروج فلا يزالون في دنوٍ وقرب حتى يبلغوا الغاية القصوى، فيفيض عليهم حقائق العلوم وأسرار المعارف وغرائب الآيات في ملكوت الأرض والسموات. وإذا بلغوا هذا المنتهى فهو السدرة المنتهى، فلا يلتفتون إلى شيء من عالم الزور؛

---

(١) العلق بكسر العين المهلمة وسكون اللام النفيس من كل شيء يتعلق به القلب، والجمع أغلاق وعلوق.

(٢) يقال عاج على المكان أي عطف.

وعبر التنزيل عن هذه الحالة بقوله: ﴿علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى﴾ ثم دنا فتدل فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى ﴿[النجم: ٥ - ١١] إلى قوله: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: ١٨] فينبغي لكل عاقل أن يكون الله سبحانه وتعالى أول كل فكر له وآخره، وباطن كل اعتبار وظاهره، فتكون عين نفسه مكحولة بالنظر إليه، وقدمه موقوفة على المثول بين يديه، مسافراً بعقله في الملكوت الأعلى وما فيه من آيات ربه الكبرى؛ فإذا انحط إلى قراره فليره في آثاره، فإنه باطن ظاهر تجلى لكل شيء بكل شيء، وأظهر الآثار التي يرى فيها جلال ذات الحق وكمال صفاته إنما هو معرفة النفس كما قال تعالى: ﴿سزيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت: ٥٣] ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] وقال عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وقال عليه السلام: «أعرفكم بنفسي أعرفكم بربه».

ونحن نخرج في هذا الكتاب من مدارج معرفة النفس إلى معرفة الحق جل جلاله، ونذكر مخ ما يؤدي إليه البراهين من حال النفس الإنسانية ولبابها ما وقف عليه البحث الشافي من أمرها وكونها منزهة عن صفات الأجسام، ومعرفة قواها وجنودها، ومعرفة حدوثها وبقائها وسعادتها وشقاوتها بعد المفارقة، على وجه يكشف الغطاء ويرفع الحجاب ويدل على الأسرار المخزونة والعلوم المكنونة المضمون بها على غير أهلها. ثم إذا ختمنا فصول معرفة النفس فحينئذ ننعطف على معرفة الحق جل جلاله، إذ جميع العلوم مقدمات ووسائل لمعرفة الأول الحق جل جلاله، وكل ما يراد لشيء فدون حصول مقصوده يكون ضائعاً. فمن عرف نفسه فقد عرف ربه، وعرف صفاته وأفعاله، وعرف مراتب العالم مبدعاته ومكوناته، وعرف الملائكة ومراتبهم، وعرف لمة الملك ولة الشيطان، والتوفيق والخذلان، وعرف الرسالة والنبوة وكيفية الوحي وكيفية المعجزات

والإخبار عن المغيبات، وعرف الدار الآخرة وسعادتھا وشقاوتھا وأقسامھا ولذة  
 البهجة فيها، وعرف غاية السعادة التي هي لقاء الله تعالى. فمن يُسر له هذا  
 السفر لم يزل في سيره متنزهاً في جنة عرضها السموات والأرض، وهو ساكن  
 بالبدن مستقر في الوطن، وهو السفر الذي يسفر فيه عن وجه المعرفة، وتنحل  
 أزرار الأنوار في هذه الأسفار، وهو السفر الذي لا تضيق فيه المناهل والموارد،  
 ولا يضر فيه التزاحم والتوارد، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه، وتتضاعف  
 ثمراته وفوائده؛ فغنائمه دائمة غير ممنوعة، وثمراته متزايدة غير مقطوعة. ومن لم  
 يؤهل للجولان في هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان فليس بيده  
 إلا القشر، يأكل كما تأكل الأنعام، ويرتع كما ترتع البهائم، وشرح هذا السفر  
 وبيان هذا العلم العظيم القدر لا يمكن في أوراق وأطباق، ويقصر عن شرح  
 عجائبه العبارات والأقلام. ونحن بعون الله تعالى وتوفيقه نشير إلى كل واحدة  
 من هذه الجمل على وجه يستقل به المتفطن؛ وأما الجامد البليد الذي يأخذ العلم  
 بالتقليد، فهو عن معرفة مثل هذه العلوم بعيد، إذ كلٌ ميسر لما خُلِقَ له<sup>(١)</sup>.  
 فمن رُشح للسعادة وشارف نيل الإرادة، أُعطي أولاً كمال الدرك من وفور  
 العقل وصفاء الذهن وصحة الغريزة واتقاد القريحة وحدة الخاطر وجودة الذكاء  
 والفتنة وجزالة الرأي وحسن الفهم؛ وهذه تحفة من الله وهدية لا تنال بيد  
 الاكتساب، وتنبئ دونها وسائل الأسباب. ومن وهبت له هذه الفتنة فحينئذ  
 عليه استكداد<sup>(٢)</sup> الفهم، والاقتراح على القريحة، واستعمال الفكر واستثمار العقل،  
 بتحديق بصيرته إلى صوب الغوامض، وحل المشكلات بطول التأمل وإمعان  
 النظر، والاستعانة بالخلوة، وفراغ البال، والاعتزال عن مزدحم الأشغال، والقيام

(١) أخرج الشيخان وغيرهما من حديث علي وجابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «اعملوا

فكل ميسر لما خلق له».

(٢) حمله على الكد.

بوظائف العبادات ، حتى يصل إلى كمال العلوم . وسمينا الكتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » وفقنا الله لإتمامه .

## فهرس الكتاب

( ١ ) مقدمة الكتاب ( ٢ ) بيان إثبات النفس ( ٣ ) بيان أن النفس جوهر ( ٤ ) بيان أنه جوهر ليس له مقدار ولا كمية ( ٥ ) بيان القوى الحيوانية وتقسيمها إلى محركة ومدركة ( ٦ ) بيان القوى الخاصة بالنفس الإنسانية من العقل النظري والعملي ( ٧ ) بيان مراتب العقل ، واختلاف الناس في العقل الهولاني ، وبيان العقل القدسي ( ٨ ) بيان أمثلة درجات العقل من الكتاب الإلهي ( ٩ ) بيان تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما إلى الآخر ( ١٠ ) بيان حقيقة الإدراك ومراتبه في التجريد .

وسؤالات وانفصالات لائقة بالفصول المتقدمة تحتها نفائس من العلوم :

ففي السؤال الأول ينكشف أنه ليس كل مجرد كيفما كان عقلاً بالفعل بل ما حصل له المعقولات دفعة .

وفي السؤال الثاني ينكشف أن النفس ما دامت ملابسة للبدن لا يحصل لها المعقولات كلها ، بل ما دام في البدن لها استعداد بالنسبة إلى ما لم يحصل وهو عقل بالفعل بالنسبة إلى ما حصل ، وكذلك بعد مفارقة البدن إنما يكون عقلاً بالفعل إذا لم يبق فيه من عوارض هذا العالم شيء فحينئذ يصير عالماً عقلياً منتقشاً بجميع المعقولات كالنفوس الفلكية .

وفي السؤال الثالث ينكشف تفاوت النفوس في قبول المعقولات ، واتصال الفيض الإلهي بها تارة بالحدس وتارة بالفكر والنظر ، وينكشف أن القوى البدنية تكون معينة في الابتداء وعائقة في الانتهاء .

وفي السؤال الرابع ينكشف أن النفس إذا أشرق عليها نور العقل الفعال تصير

المقدمات الخيالية عقلية، وتنكشف العلوم كلها بواسطة المبادي؛ وليس بيدنا تحصيل المعقولات بل التعرض لنفحات فضل الله ورحته.

وفي السؤال الخامس ينكشف أن النفس الإنسانية تعقل المعقولات مرتبة. وكل ما فيه تدرج وترتيب فليس بواحد من كل وجه، وينكشف به أن الواحد الحق الذي يستحق الوجدانية هو الله تعالى فحسب؛ ولهذا ليس له صفة منتظرة ولا كذلك غيره.

وفي السؤال السادس يظهر أن الصورة المعقولة إذا اتصلت بالنفس فهي مدركة وهي إدراك ولا تحتاج إلى إدراك آخر.

وفي السؤال السابع ينكشف أن النفس إذا قويت استغنت عن التفكير وتحصيل المقدمات، بل تتواتر عليها السكينات الإلهية وتحصل لها المعقولات اليقينية دفعة عقيب تضرع واشتياق، أو من غير تضرع وافتقار.

وفي السؤال الثامن يظهر أن النفس تدرك المعاني المجردة عن المواد، سواء كانت كلية أو جزئية، فتدرك نفسها وغيرها من النفوس المجردة وإن كانت جزئية لأنها مجردة عن المادة، وينكشف به سر عظيم وهو أن الحقيقة التي لنا لا يشركنا فيها غيرنا من الحيوانات. ويظهر أن كونها معقولة ليس زائداً على كونها موجودة الوجود الذي لها بل بزيادة شرط على الوجود المطلق، وهو أن وجود ماهيتها هي أنها معقولة حاصلة لها في نفسها ليس لغيرها؛ وهذا فصل جليل يبتنى عليه مع فة صفات الحق جل جلاله.

وفي السؤال التاسع يظهر أننا إذا أدركنا العقول المفارقة فصور حقائقها تكون أمثلة حقائقها، وكذلك يكون كل إدراك.

وفي السؤال العاشر ينكشف أننا ندرك ذاتنا بذاتنا لا بقوة أخرى جسمانية.

وفي السؤال الحادي عشر يظهر أن المانع عن التعقل هو المادة.

وفي السؤال الثاني عشر ينكشف أن كل شيء حقيقته الصرفة لا توجد متعينة بلوازم تتعين بها . ومن حيث إنه ملزوم لوازم شتى فباللوازم تتعين .  
وفي السؤال الثالث عشر ينكشف أنها بتعقل المعقولات لا تصير مركبة كالمرآة .

وفي السؤال الرابع عشر ينكشف وجه تأثير الطاعات والمعاصي والنضائل والردائل في النفس، مع أن النفس مفارقة للبدن . وهو فصل عظيم يُبَتْنى عليه قواعد الشرع واتباع سنة سيد المرسلين ﷺ .

ثم نذكر زيادة تبصرة يظهر فيها أن الفضائل والردائل تنشأ من ثلاث قوى في الإنسان: قوة التخيل، وقوة الشهوة، وقوة الغضب . ونذكر في قوة التخيل أسراراً عجيبة يظهر منها الوحي، وفي مقابلته العرافة والكهانة، ونذكر منفعة قوة الشهوة ومضرتها، ومنفعة قوة الغضب ومضرتها .

ثم نذكر بيان أمهات الفضائل ونتائجها وثمراتها وما يندرج تحت كل واحدة منها من الفضائل والردائل .

ثم نذكر مثال القلب بالإضافة إلى العلوم، ثم بيان أمثلة القلوب مع الجنود أي قواها .

ثم نذكر أن هذه القوى متفاوتة، وكيف يرأس بعضها بعضاً وكيف يخدم بعضها بعضاً .

ثم نذكر أن الأرواح البشرية حادثة حدثت عند استعداد النطفة . ونورد على هذه إشكالات ونتقصي عنها، ونذكر في هذا الفصل حال البدء والإعادة، ونذكر فيه أسراراً من العلوم .

ثم نذكر بقاء النفس بعد المفارقة . ثم نذكر بيان إثبات العقل الفعال والعقل المنفعل في النفوس الإنسانية .

ثم نذكر قاعدة في النبوة والرسالة ؛ وتلك القاعدة تشتمل على بيانات : بيان أن الرسالة هل تقتنص بالحد ، وبيان أن الرسالة حظوة مكتسبة أم أثره ربانية ، وبيان إثبات الرسالة بالبرهان ، وبيان خواص الرسالة والمعجزات ، وبيان كيفية الدعوة وما يؤخذ من السمع وما لا يؤخذ . ويظهر فيها أصناف المعجزات وكرامات الأولياء . ونذكر خاتمة في بيان أن أفضل نوع البشر من هو . ثم نذكر السعادة والشقاوة وهو علم المعاد .

ثم نذكر معنى اللقاء والرؤية . ثم ننعطف ونعرج عروجاً ونرقى رقياً إلى معرفة الباري جل جلاله ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، ومعرفة ملائكته ومراتبهم ، ومعرفة الكرام الكاتبين ، وغير ذلك من المعارف كما أشرنا إليه في أول الكتاب . ونأتي على فصل فصل إلى أن نختم الكتاب ، مستعينين بالله ومتوكلين عليه ، ومستوفقين منه ، والله ولي التوفيق بفضلله ورحته .





## مقدمة

في معاني الألفاظ المترادفة على النفس وهي أربعة: النفس والقلب، والروح، والعقل.

أما النفس فتطلق بمعنىين: أحدهما أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة، وهي القوى الحيوانية المضادة للقوى العقلية؛ وهو المفهوم عند إطلاق الصوفية فيقال من أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك؛ وإليه الإشارة بقول نبينا عليه السلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

والثاني أن يطلق ويراد حقيقة الآدمي وذاته، فإن نفس كل شيء حقيقته، وهو الجوهر الذي هو محل المعقولات وهو من عالم الملكوت ومن عالم الأمر على ما نبين. نعم تختلف أسماؤها باختلاف أحوالها العارضة عليها؛ فإن اتجهت إلى صوب الصواب ونزلت عليها السكينات الإلهية، وتواترت عليها نفحات فيض الجود الإلهي، فتطمئن إلى ذكر الله عز وجل، وتسكن إلى المعارف الإلهية، وتطير إلى أعلى أفق الملكية فيقال نفس مطمئنة؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] وإن كانت مع قواها وجنودها في حراب وقتال وشجار ونزاع، وكان الحرب<sup>(١)</sup> بينها سجالات فتارة لها اليد عليها وتارة للقوى عليها اليد، فلا تكون حالها مستقيمة؛ فتارة تنزع إلى جانب العقول فتتلقى المعقولات وتثبت على الطاعات، وتارة تستولي عليها القوى فتتهبط إلى حضيض منازل البهائم؛ فهذه النفس نفس لوامة، وهذه النفس هي حالة أكثر الخلق، فإن من ارتفع إلى أفق الملائكة حتى تحلى بالعلوم والفضائل النفسية والأعمال الحسنة فهو ملك جسماني لارتفاعه من الإنسانية وعدم

(١) الحرب مؤنثة، وقد تذكر على معنى القتال.

مشاركته للبشر إلا بالصورة التخطيطية؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ما هذا بشراً  
إن هذا إلا ملك كريم﴾ [يوسف: ٣١].

ومن اتضع حتى صار في حضيض البهائم، فلو تصوّر كلب أو حمار منتصب  
القامة متكلم لكان هو إياه؛ لانسلاخه عن الفضائل الإنسانية وعدم مشاركته  
للإنسان إلا بالصورة التخطيطية؛ وهذه هي النفس الأمارة بالسوء.

فَجَلَّهُم إذا فكرت فيهم، حير أو كلاب أو ذئاب، وهو من الإنس  
المذكورين في قوله تعالى: ﴿شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض  
زخرف القول غروراً﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه  
«يا أشباه الرجال ولا رجال» فمثل هذه النفس تراه أبداً عبداً لحجر أو مَدَر،  
أو بهيمة أو طعينة<sup>(١)</sup> وهذا هو الذي أخبر الله سبحانه عنه فقال: ﴿إن النفس  
لأمارة بالسوء﴾ [يوسف: ٥٣].

أما القلب فيطلق أيضاً بمعنىين: أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في  
جوف الإنسان من جانب اليسار، وقد عُرِفَ ذلك بالتشريح؛ وهو مركب  
الدم الأسود ومنبع البخار الذي هو مركب الروح الطيب الحيواني؛ وهذا يكون  
لجميع الحيوانات وليس بخاص للإنسان وهو الذي يفنى بالموت جميع الخواص  
بسيه.

والثاني: وهو الذي نحن بصدد بيانه هو الروح الإنساني المتحمل لأمانة الله،  
المتحلي بالمعرفة المركوز فيه العلم بالفطرة، الناطق بالتوحيد بقوله بلى<sup>(٢)</sup>، فهو  
أصل الآدمي ونهاية الكائنات في عالم المعاد. قال الله تعالى: ﴿قل الروح من أمر  
ربي﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) الطعينة الراحلة يرتحل عليها؛ والمودج؛ والزوجة، وهي المرادة هنا.

(٢) يشير إلى قوله تعالى في سورة الأعراف الآية ١٧٢: ﴿واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم  
ذربتهم وأنشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾.

وقال نبينا عليه السلام: « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن » إلى آخره. وحيثما ورد في الشرع القلب فيراد به ما نحن بصدد بيانه؛ إن أطلق في موضع اللحم الصنوبري فلأنه متعلقه الخاص وأول متعلقه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: « إن في جوف ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسدت بها سائر الجسد، ألا وهي القلب ».

أما الروح فيطلق ويراد به البخار اللطيف الذي يصعد من منبع القلب ويتصاعد إلى الدماغ بواسطة العروق، ومن الدماغ يسري بواسطة العروق أيضاً إلى جميع البدن، فيعمل في كل موضع بحسب مزاجه واستعداده عملاً، وهو مركَّب الحياة؛ فهذا البخار كالسراج، والحياة التي قامت به كالضوء، وكيفية تأثيره في البدن ككيفية تنوير السراج أجزاء البيت. ويطلق ويراد به المبدع الصادر من أمر الله تعالى الذي هو محل العلوم والوحي والإلهام. وهو من جنس الملائكة، مفارق للعالم الجسماني، قائم بذاته على ما نبين.

ويطلق أيضاً ويراد به الروح الذي في مقابلة جميع الملائكة، وهو المبدع الأول وهو روح القدس.

ويطلق أيضاً ويراد به القرآن. وعلى الجملة فهو عبارة عما به حياة ما على الجملة.

أما العقل فيطلق ويراد به العقل الأول، وهو الذي يعبر عنه بالعقل في قول النبي ﷺ: « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر » أي أقبل حتى تستكمل بي، وأدبر حتى يستكمل بك جميع العالم دونك؛ وهو الذي قال الله تعالى له: « وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزَّ عليّ ولا أفضل منك؛ بك آخذ وبك أعطي » الحديث. وهو الذي يعبر عنه بالقلم كما قال عليه السلام: « إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال وما أكتب قال ما هو

كائن إلى يوم القيامة من عمل وأثر ورزق وأجل . فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة » .

والإطلاق الثاني أن يطلق ويراد به النفس الإنسانية .

والإطلاق الثالث أن يطلق ويراد به صفة النفس ؛ وهو بالنسبة إلى النفس كالبصر بالنسبة إلى العين ، وهي بواسطته مستعدة لإدراك المعقولات ، كما أن العين بواسطة البصر مستعدة لإدراك المحسوسات وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه عن ربه عز وجل : « وعزتي وجلالي لأُكَمِّنَنَّكَ فيمن أحببت » ونحن حيث أطلقنا في هذا الكتاب لفظ النفس والروح والقلب والعقل فنريد به النفس الإنسانية التي هي محل المعقولات . هذه هي المقدمة .

### بيان إثبات النفس على الجملة

والنفس أظهر من أن تحتاج إلى دليل في ثبوتها ، فإن جميع خطابات الشرع تتوجه لا على معدوم بل على موجود حتى يفهم الخطاب ؛ ولكن نحن نستظهر في بيانه فنقول : من المعلوم الذي لا يُرتاب فيه أن الأشياء مها اشتركت في شيء وافترقت في شيء آخر فإن المشترك فيه غير المفترق فيه ؛ ونصادف كافة الأجسام مشتركة في أنها أجسام يمكن أن يفرض فيها أبعاد ثلاثة متقاطعة ، ثم نصادفها بعد ذلك مفترقة بالتحرك والإدراك ؛ فإن كان تحركها لأجل جسميتها فينبغي أن يكون كل جسم متحركاً ؛ لأن الحقائق لا تختلف ، وما يجب لنوع يجب لجميع ما يشاركه في ذلك النوع وتلك الحقيقة ؛ وإن كان لمعنى وراء الجسمية فقد ثبت على الجملة مبدأ للفعل ، فذلك المبدأ هو النفس إلى أن يتبين أنه جوهر أو عرض ؛ مثال ذلك أنا نرى الأجسام النباتية تغتذي وتنمو وتولد المثل وتتحرك حركات مختلفة من التشعيب والتعريق . فهذه المعاني إن كانت للجسمية فينبغي أن تكون جميع الأجسام كذلك ، وإن كانت لغير الجسمية بل

لمعنى زائد فذلك المعنى يسمى نفساً نباتية. ثم الحيوان فيه ما في النبات، ويحس ويتحرك بالإرادة، ويهتدي إلى مصالح نفسه، وله طلب لما ينفع وهرب عما يضر؛ فنعمل قطعاً أن فيه معنى زائداً على الأجسام النباتية. ثم نجد الإنسان فيه جميع ما في النبات والحيوان من المعاني، ويتميز بإدراك الأشياء الخارجة عن الحسّ مثل أن الكل أعظم من الجزء، فيدرك الجزئيات بالحواس الخمس ويدرك الكلّيات<sup>(١)</sup> بالمشاعر العقلية، ويشارك الحيوان في الحواس ويفارقه في المشاعر العقلية؛ فإن الإنسان يدرك الكلّي من كل جزئي ويجعل ذلك الكلّي مقدّمة قياس ويستنتج منه نتيجة؛ فلا الإدراك الكلّي يُنكر، لا المدرك لذلك يجحد، ولا العرض ولا الجسم القابل للعرض، ولا النبات ولا الحيوان غير الإنسان يدرك الكلّي حتى يقوم به الكلّي فينقسم بأقسام الجسم، إذ الكلّي له وحدة خاصة من حيث هو كلي لا ينقسم ألبتة، فلا يكون للإنسان المطلق<sup>(٢)</sup> الكلي نصف وثلث ورابع. فقابل الصورة الكلية جوهر لا جسم ولا عرض في جسم، ولا وضع له ولا أين له فيشار إليه؛ بل وجوده وجود عقلي أخفى من كل شيء عند الحسّ وأظهر من كل شيء للعقل؛ فثبت بهذا وجود النفس، وثبت على الجملة أنه جوهر، وثبت أنه منزّه عن المادة والصورة الجسمانية.

### تقسيم يظهر فيه مبادئ الأفعال

فنقول: كلّ مبدأ يصدر منه فعل؛ فإما أن يكون له شعور بفعله أو لم يكن، فإن لم يكن له شعور فإما أن يكون فعله متحدّاً على نسق واحد، وإما أن يكون مختلفاً. وإن كان له شعور فإما أن يكون له تعقل أو لم يكن. فإن كان له تعقل فإما أن يكون فعله متحدّاً على نسق واحد، وإما أن يكون مختلفاً. فهذه خمسة

(١) الكلّيات الخمس التي لا تدرك بالحس وتدرك بالعقل هي: الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام.

(٢) الإنسان من حيث كونه نوعاً لجنس الحيوان، فهو مفهوم عقلي لا يمكن أن يوجد له بذاته وجود حسي أو عيني.

أقسام؛ فما كان فعله متحداً وليس له شعور فذلك المبدأ يسمى مبدأً طبيعياً كما في الأجسام الثقيلة من الهبوط وفي الخفيفة من الصعود. وإن كان فعله مختلفاً وليس له شعور فهو النفس النباتي، فإن النبات يتحرك حركات مختلفة. وإن كان له شعور وليس له تعقل فهو النفس الحيواني. وإن كان له تعقل ومع التعقل اختياراً في الفعل والترك فهو النفس الإنساني. وإن كان له تعقل وفعله على نهج واحد غير مختلف فهو النفس الفلكي.

### رسوم النفوس الثلاثة

فنقسم النفوس الثلاثة بمراسمها<sup>(١)</sup>، فإن شرائط الحد<sup>(٢)</sup> الحقيقي متعذر الوجود ههنا بل وفي كل الموجودات.

فنقول: أما النفس النباتية فهي الكمال الأول<sup>(٣)</sup> لجسم طبيعي آلي من جهة ما يغتذي وينمو ويولد المثل.

وأما النفس الحيوانية فهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة.

---

(١) ينقسم التعريف إلى قسمين: تعريف بالحد وتعريف بالرسم. والتعريف بالحد ينقسم بدوره إلى تعريف بالحد التام، وهو ما يتركب من الجنس والفصل القريبين كتعريف الإنسان بالحيوان الناطق، وتعريف بالحد الناقص وهو ما يكون بالفصل القريب وحده أو به وبالجنس البعيد كتعريف الإنسان بالناطق أو بالجسم الناطق. والتعريف بالرسم ينقسم إلى تعريف بالرسم التام وهو ما يتركب من الجنس القريب والخاصة كتعريف الإنسان بالحيوان الضاحك. وإلى تعريف بالرسم الناقص وهو ما يكون بالخاصة وحدها أو بها وبالجنس البعيد كتعريف الإنسان بالضاحك أو بالجسم الضاحك.

(٢) عرف أرسطو طاليس النفس بأنها كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة.

وأما النفس الإنسانية فهو الكمال الأول لجسم طبيعي آليّ من جهة ما يفعل الأفاعيل بالاختيار العقلي والاستنباط بالرأي ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية. وقولنا : « الكمال الأول » أي من غير واسطة كمال آخر لأن الكمال قد يكون أولاً وقد يكون ثانياً.

وقولنا « لجسم طبيعي » أي غير صناعي لا في الأذهان بل في الأعيان.

وقولنا : « آليّ » أي ذي آلات يستعين بها ذلك الكمال الأول في تحصيل الكمالات الثانية والثالثة. ولفظ الكمال أولى من لفظ القوة؛ لأن القوة تكون بالنسبة إلى ما يصدر عنها من الأفعال، أو بالقياس إلى ما تقبله من الصور المحسوسة والمعقولة. وإطلاق لفظ القوة عليها يكون باشتراك الاسم فيكون الحد مشتملاً على لفظ مشترك، وإن عُنِيَ بالحدّ أحدهما كان الحد ناقصاً.

ولفظ الكمال يشمل القوتين بالتواطؤ فهو أولى؛ فإن قيل إنه صورة كان ذلك بالإضافة إلى المادة التي تحلّها فيجتمع منها جوهر نباتي أو حيواني.

ولفظ الكمال بالقياس إلى جملة الجواهر ولاستكمال الجنس به نوع محصّل في الأنواع وهو نسبة الخاص إلى الشيء العام الغير البعيد من جوهره، فهو أولى من لفظ الصورة. ويجب أن يعلم أنه إذا قيل نفس - أي أطلق - على صورة الفلك وعلى صورة النبات والحيوان والإنسان فإنما يقال باشتراك الاسم؛ فإن النفوس الفلكية ليست تفعل بالآلات، ولا الحياة فيها حياة التغذية والنمو، ولا إحساسها إحساس الحيوان، ولا نطقها نطق الإنسان.

## بيان أن النفس جوهر

وذلك ثابت من جهة الشرع والعقل؛ أما الشرع فجميع خطابات الشرع تدل على أن النفس جوهر، وكذلك العقوبات الواردة بعد الممات تدل على أن النفس جوهر؛ فإن الألم وإن حل بالبدن فلاجل النفس. ثم للنفس عذاب آخر يخصه،

وذلك كالخزي والحسرة وألم الفراق وكذلك ما يدل على بقاءه على ما سنبين فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأما من حيث العقل<sup>(١)</sup> فمن وجهين: وجه عام يمكن إثباته مع كل أحد، ووجه خاص يتفطن له أهل الخصوص والإنصاف. أما الأول فهو أن يعلم أن حقيقة الإنسان ليس عبارة عن الجسم فحسب، فإنه يكون إنساناً إذا كان جوهرًا وأن يكون له امتداد في أبعاد تفرض طولاً وعرضاً وعمقاً - وأن يكون مع ذلك ذا نفس - وأن تكون نفسه نفساً يغتذي بها ويحسّ ويتحرك بالإرادة ومع ذلك يكون بحيث يصلح لأن يتفهم المعقولات ويتعلم الصناعات ويعملها إن لم يكن عائق من خارج لا من جهة الإنسانية، فإذا التأم جميع هذا<sup>(٢)</sup> حصل من جلته ذات واحدة هي ذات الإنسان. فإذا ثبت بهذا أن حقيقة الإنسان لا تكون عَرَضاً؛ لأن الأعراض يجوز أن تتبدل، والحقيقة بعينها باقية، فإن الحقائق لا تتبدل؛ فإذا ما هو ثابت فيك مذ كنت فهو نفسك وما يطراً عليك ويزول فهو الأعراض.

وأما الوجه الثاني وهو البيان الخاص فهو الذي يصلح لأهل الفطنة ومن فيه لطف الفهم والإصابة؛ فهو أنك إذا كنت صحيحاً مطّرحاً عنك الآفات، مُجَنَّباً عنك صدمات الهوى وغيرها من الطوارق والآفات، فلا تتلامس أعضاؤك ولا تناس أجزاءك، وكنت في هواء طلق (أي معتدل) ففي هذه الحالة أنت لا تغفل عن إنيتك وحقيقتك<sup>(٣)</sup>؛ بل وفي النوم أيضاً، فكل من له فطنة ولطف وكياسة يعلم أنه جوهر وأنه مجرد عن المادة وعلائقها وأنه لا تعذب

(١) أي ثبوت كون النفس جوهرًا من جهة العقل.

(٢) أي حصل له مميزات النفوس الثلاث: النباتية التي تغتذي وتنمو وتولد المثل، والحيوانية التي تدرك الجزئيات وتتحرك بالإرادة، والإنسانية التي تدرك الأمور الكلية.

(٣) هذا البرهان على وجود النفس أصله عند ابن سينا وقد ساء برهان الرجل المعلق في الهواء.



ذاته عن ذاته؛ لأن معنى التعقل حصول ماهية مجردة للعاقل وذاته مجردة لذاته، فلا يحتاج إلى تجريد وتقشير؛ وليس ههنا ماهية ثم معقولة بل ماهيته معقوليته، ومعقوليته ماهيته. وهذه نكتة نفسية عظيمة وستقف عليها إن شاء الله أشرح من هذا.

ثم الدليل على صحة هذا البيان الخاص أنه لو لم يكن المدرك والمشعور به هو حقيقتك - أي نفسك - بل يكون هو البدن وعوارضه، لكان لا يخلو إما أن يكون الشعور به جملةً بدنك أو بعضه، وبطل أن تكون الجملة، لأن الإنسان في الفرض المذكور قد يكون غافلاً عن جملة البدن وهو مدرك نفسه؛ وإن كان بعضاً منه فلا يخلو إما أن يكون ظاهراً أو باطناً، فإن كان ظاهراً فهو مدرك بالحسّ والنفس غير مدرّكة بالحس، كيف ونحن في الفرض المذكور قد أغفلنا الحواس عن أفعالها وفرضنا أن الأعضاء لا تتألم! وإن كان النفس والذات عضواً باطناً من قلب أو دماغ فلا يجوز أيضاً؛ لأن الأعضاء الباطنة إنما يوصل إليها بالتشريح فثبت أن مدركك ليس شيئاً من هذه الأشياء فإنك قد لا تدركها وتدرك ذاتك ضرورة فما أَلْجِئْتَ إلى إدراكه ضرورة لا يكون قطعاً ما لا يدرك إلا بالنظر؛ فإذا ثبت بهذا أن ذاتك ليس من عداد ما تدركه بالحس أو مما يشبه الحسّ بوجه من الوجوه.

## زيادة إيضاح من جهة الإدراك

فنقول: إنك تدرك في جميع الأحوال ذاتك فبماذا تدرك؟ فإنه لا بد من مدرك، فلا يخلو إما أن يكون أحدَ مشاعرك ظاهراً، أو عقلك، أو قوة غير مشاعرك، فإن كان عقلك فلا يخلو إما أن يكون ذلك الإدراك بوسط، أو بقياس، أو بقوة متوسطة بين الإدراك والنفس، أو بغير وسط. وما أظنك تفتقر في ذلك إلى وسط فإنه لو كان ثمّ وسط لما أدركت ذاتك، فإنه لا وسط بين ذاتك وشعورك بذاتك؛ فبقي أن تدرك بغير وسط، وإذا كذلك فلا يخلو إما

أن يكون ذلك الإدراك بمشاعرك أو بذاتك، ولا يتصور أن يكون بمشاعرك فإن الخواص لا تدرك إلا الأجسام وما يتعلق بالأجسام من الألوان والنغمات وغير ذلك، فبقي أنك تدرك ذاتك بذاتك فمن هذا ثبت أنك جوهر مفارق.

وهذا البيان الخاص إما ضائع وإما قاطع، ضائع للمغفلين الذين لم يلحظوا إلا بعين السخط، فإن من يلحظ مقدمة بعين السخط كان الشك أسرع إليه من الماء إلى الحدور<sup>(١)</sup> أما للمستبصرين فهو قاطع.

فإن قال قائل: إنما أثبت ذاتي بوسط، وذلك الوسط هو فعل من أفعالي فأستدل بأفعالي على وجود النفس.

فالجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن هذا لا يتمشى في الفرض المذكور، فإن جعلناك بمعزل عن الأفعال ومع هذا تثبت ذاتك وإثبتك.

والثاني: أن هذا الفعل إما أن تثبته فعلاً مطلقاً فيجب أن تثبت به فاعلاً مطلقاً لنفسك، وإن أثبتته فعلك وخصصته بالإضافة فقد أثبت أولاً نفسك وأدركت أولاً ذاتك، فإنك أخذت ذاتك جزءاً من فعلك والشعور بالجزء قبل الشعور بالكل، أو لا أقل من أن يكون معه؛ فذاتك إذاً مثبتة معه أو قبله لا به. وهذا فصل لطيف يبتنى عليه باب من المعرفة شريف؛ كما سنذكر إن شاء الله تعالى بيان أن النفس ليس لها مقدار ومساحة ولا تدرك حساً ولا يدركها جسم وأن إدراكها لا يكون بآلات جثمانية في حال.

وهذا أدق وأعصى على الأذهان الزائغة عن الجادة الآلفة بالخيالات والموجودات الحسية. ولنا أن نتوسل إلى هذا المقصود ببراهين قاطعة ودلائل واضحة:

---

(١) أي الخدار الماء.

## البرهان الأول:

أن نقول: معلوم أنا نتلقى المعقولات وندرك الأشياء التي لا تدخل في الحس والخيال والمعقول متحد، فلو حلّ في منقسم لانقسم المتحد وهذا محال؛ وتحقيقه هو أنه لو كان النفس ذا مقدار وحلّ فيه معقول فإما أن يحلّ في شيء منقسم أو في شيء غير منقسم، ومعلوم أن غير المنقسم إنما هو طرف الخط وهو نهاية ما لا تميز لها في الوضع عن الخط والمقدار الذي هي متصلة به حتى يستقر فيها شيء من غير أن يكون في شيء من ذلك الخط، بل كما أن النقطة لا تنفرد بذاتها وإنما هي طرف ذاتي لما هو بالذات مقدار، كذلك إنما يجوز أن يقال بوجه ما أنه يحلّ فيها طرف شيء حالّ في المقدار الذي هي طرفه متقدر بالعرض، فكما أنه يتقدر به بالعرض كذلك يتناهي بالعرض مع النقطة، ولو كانت النقطة منفردة تقبل شيئاً من الأشياء لكان يتميز لها ذات، وكانت النقطة حينئذ ذات جهتين: جهة منها تلي الخط، وجهة منها مخالفة له مقابلة، فتكون حينئذ منفصلة عن الخط وللخط نهاية غيرها يلاقيها فتكون تلك النقطة نهاية الخط لا هذه، والكلام فيها وفي هذه النقطة واحد، ويؤدي إلى أن تكون النقطة متشافعة في الخط: إما متناهية، وإما غير متناهية، وهذا أمر قد بان في موضعه استحالته، ونشير إلى رمز منه فنقول: إن النقطتين حينئذ اللتين تطبقان بنقطة واحدة من جنبتيها، إما أن تكون هذه النقطة المتوسطة تحجز بينهما فلا تماساً فيلزم حينئذ في البدئية العقلية الأولية أن يكون كل واحدة منها يختص بشيء من الوسطى يماسه فتنقسم حينئذ الوسطى وهذا محال، وإما أن تكون الوسطى لا تحجز المكتنفتين عن التماس فحينئذ تكون الصورة المعقولة حالة في جميع النقط وجميع النقط كنقطة واحدة، وقد وضعنا هذه النقطة الواحدة المنفصلة عن الخط، فللخط من جهة ما ينفصل عنها طرف ونهاية بها ينفصل عنها فتلك النقطة تكون مبيّنة لهذه في الوضع. وقد وُضِعَتِ النقط كلّها مشتركة في الوضع؛ هذا خلف، فقد بطل إذاً أن يكون محل المعقولات من الجسم شيئاً غير منقسم، فبقي أن يكون من الجسم

شيئاً منقسماً؛ فلنفرض صورة معقولة في شيء منقسم، فإذا فرضنا في الشيء المنقسم انقساماً عرض للصورة أن تنقسم فحينئذ لا يخلو إما أن يكون الجزءان متشابهين أو غير متشابهين، فإن كانا متشابهين فكيف يجتمع منهما ما ليس بهما؟ إلا أن يكون ذلك الشيء شيئاً يحصل فيها من جهة المقدار والزيادة في العدد لا من جهة الصورة، فتكون حينئذ الصورة المعقولة شكلاً أو عدداً ما وليس كل صورة معقولة شكلاً، وتصير حينئذ الصورة خيالية لا عقلية.

وأظهر من ذلك أنه ليس يمكن أن يقال إن كل واحد من الجزأين هو بعينه الكل في المعنى؛ لأن الثاني إذا كان غير داخل في معنى الكل فيجب أن نضع في الابتداء لمعنى الكل هذا الواحد لا كليهما، وإن كان داخلياً في معناه فمن البين والواضح أن الواحد منها وحده ليس يدل على نفس معنى التمام، وإن كانا غير متشابهين فلينظر كيف يمكن أن تكون الصورة المعقولة أجزاء غير متشابهة، فإنه ليس يمكن أن تكون الأجزاء الغير المتشابهة إلا أجزاء الحد التي هي الأجناس والفصول، ويلزم من هذا محالات منها أن كل جزء من الجسم يقبل القسمة أيضاً فيجب أن تكون الأجناس والفصول بالقوة غير متناهية؛ وقد صح أن الأجناس والفصول الذاتية للشيء الواحد ليست في القوة غير متناهية؛ ولأنه ليس يمكن أن يكون توهم القسمة يفرز الجنس والفصل؛ بل مما لا نشك فيه أنه إذا كان هناك جنس وفصل يستحقان تميزاً في المحل أن ذلك التميز لا يتوقف على توهم القسمة فيجب أن تكون الأجناس والفصول بالفعل أيضاً غير متناهية، وقد صح أن الأجناس والفصول أو أجزاء الحد للشيء الواحد متناهية من كل وجه، ولو كانت غير متناهية بالفعل ههنا لكانت توجب أن يكون الجسم الواحد انفصل بأجزاء غير متناهية بالفعل؛ وأيضاً لتكن القسمة وقعت من جهة فأفرزت من جانب جنساً ومن جانب فصلاً، فلو غيرنا القسمة كان يقع منها في جانب نصف جنس ونصف فصل، أو كان ينقلب، وكان فرضنا الوهمي يدور مقام الجنس

والفصل فيه. على أن ذلك أيضاً لا يغني فإنه يمكننا أن نوقع قسماً في قسم، وأيضاً كل معقول يمكن أن يقسم إلى معقولات أبسط، فإن ههنا معقولات هي أبسط المعقولات ومبادئ التركيب في سائر المعقولات، فليس لها لا أجناس ولا فصول ولا هي منقسمة في الكم ولا هي منقسمة في المعنى كالوحدة والعلّة وغير ذلك؛ فإذاً ليس يمكن أن تكون الأجزاء المفروضة فيه أجزاء متشابهة كل واحد منها هو في معنى الكل، وإنما يحصل الكل بالاجتماع فقط، ولا يمكن أيضاً أن تكون غير متشابهة فليس يمكن أن تنقسم الصورة المعقولة، فإذا كان ليس يمكن أن تنقسم الصورة المعقولة ولا أن تحل طرفاً من المقادير غير منقسم تبين أن محل المعقولات جوهر ليس بجسم ولا أيضاً قوة في جسم فيلحقه ما يلحق الجسم من الانقسام ثم يتبعه سائر المحالات.

### البرهان الثاني:

أن نقول: القوة العقلية هي ذات تجرّد المعقولات عن الكم المحدود والأين والوضع وسائر عوارض الجسم، فيجب أن ننظر في ذات هذه الصورة المجردة عن الوضع كيف هي مجردة عنه، أبالقياس إلى الشيء المأخوذ منه أو بالقياس إلى الشيء الآخذ؟ أعني هذه الذات المعقولة تتجرد عن الوضع في الوجود الخارجي أو في الوجود المتصور في الجوهر العاقل؟ ومحال أن يكون كذلك في الخارجي<sup>(١)</sup> فبقي أن يكون إنما هو مفارق للوضع والأين عند وجوده في العقل؛ فإذاً وجدت في العقل لم تكن ذات وضع وبحيث يقع إليها إشارة تجزؤ وانقسام أو شيء مما أشبه هذا المعنى فلا يمكن أن يكون في جسم.

---

(١) لأن الوجود الخارجي لا بد أن يكون وجوداً جسمانياً متعيناً، وإذا كان كذلك لا يمكن أن يتجرد عن الكم والوضع والأين وسائر العوارض الجسمانية، لأن هذه العوارض هي من لوازم الوجود الجسماني.

### البرهان الثالث:

إذا انطبعت الصورة الأحادية الغير المنقسمة التي لأشياء غير منقسمة في المعنى في مادة منقسمة ذات جهات فلا يخلو إما أن لا تكون لها ولا لشيء من أجزائها التي تفرض فيها بحسب جهاتها نسبة إلى الشيء المعقول الواحد الذات الغير المنقسم المتجرد عن المادة، أو تكون تلك النسبة لكل واحد من أجزائها التي تفرض، أو تكون لبعضها دون بعض، فإن لم يكن لشيء منها نسبة فليست لبعضها ولا لكلها لا محالة نسبة، فينبغي أن لا تدرك وأن لا يكون بين هذا المعقول ومعقول آخر فرق<sup>(١)</sup>، وليس كذلك فإننا نجد تفرقة ضرورية. وإن كان لبعضها دون بعض نسبة فالبعض الذي لا نسبة له ليس هو من معناه في شيء، ويلزم أن يكون الشيء الواحد مجهولاً ومعقولاً بالقياس إلى البعضين، وهذا محال. وإن كان لكل جزء يفرض نسبة، فإما أن تكون لكل جزء يفرض نسبة إلى الذات المعقول بأسرها أو إلى جزء من الذات المعقول، فإن كان لكل جزء يفرض إلى الذات بأسرها نسبة فليست الأجزاء إذاً أجزاء معنى المعقول بل كل واحد منها معقول في نفسه مفرد، وإن كان كل جزء له نسبة غير نسبة الآخر إلى الذات فمعلوم أن الذات منقسمة في المعقول وقد وضعناها غير منقسمة؛ هذا خلف. ومن هذا تبين أن الصورة المنطبعة في المادة لا تكون إلا أشباحاً لأموذج جزئية منقسمة لكل جزء منها نسبة بالفعل أو بالقوة إلى جزء منها.

فإن قيل منشأ التلبس في هذا البرهان قولكم إن المعنى المعقول إن كان له نسبة إلى بعض الذات فيكون البعض الآخر ليس من معنى المعقول في شيء، ونحن هكذا نقول فإن المدرك منا هو جزء وذلك الجزء لا ينقسم وهو المسمى

(١) وهذا يؤدي إلى القول بوجود معقول واحد وكل ما سواه عرض غير حقيقي أو وهم. وهذا المذهب نشأت بذوره في اليونان مع الفيلسوف بارمنيدس، وهو معارض للمذهب التعدد الذي كان سائداً قبله في المدن اليونانية. ومن مذهب الوحدة هذا نشأ مذهب وحدة الوجود بشكله الإسلامي عند ابن رشد، ثم تطور فيما بعد في أوروبا مع سبينوزا وغيره.

بالجوهر الفرد، قلنا أنتم بين أمرين : إما أن تقولوا نسبة المعقول إلى بعض منقسم، أو إلى بعض غير منقسم، فإن كان نسبته إلى بعض منقسم قلتم ينتسب إلى جزء لا ينقسم فكل جزء من الجسم منقسم وقد برهنا على ذلك، وله براهين هندسية ليس ههنا موضع ذكرها.

#### البرهان الرابع:

أن نقول : إن القوة العقلية لو كانت تعقل بالآلة الجسدانية حتى يكون فعلها إنما يستم باستعمال تلك الآلة الجسدانية، لكان يجب أن لا تعقل ذاتها وأن لا تعقل الآلة وأن لا تعقل أنها عقلت، فإنه ليس بينها وبين ذاتها آلة، وليس بينها وبين آلتها آلة، ولا بينها وبين أنها عقلت آلة؛ لكنها تعقل ذاتها وآلتها والتي تدعى آلتها وأنها عقلت فإذا تعقل بذاتها لا بالآلة. وأيضاً لا يخلو إما أن يكون تعقلها آلتها إما لوجود ذات صورة آلتها وإما أخرى مخالفة لها وهي صورة أيضاً فيها وفي آلتها، أو لوجود صورة أخرى غير صورة آلتها تلك فيها، فإن كانت لوجود صورة آلتها فصورة آلتها في آلتها بالشركة دائماً فيجب أن تعقل آلتها دائماً التي كانت تعقل لوجود صورة آلتها، وإن كان لوجود صورة غير تلك الصورة فإن المغايرة بين أشياء تدخل في حد واحد إما لاختلاف المواد والأعراض وإما لاختلاف ما بين الكلي والجزئي والمجرد عن المادة والوجود في المادة، وليس ههنا اختلاف مواد وأعراض فإن المادة واحدة والأعراض واحدة، وليس ههنا اختلاف بالتجريد والوجود في المادة فإن كليهما في المادة، وليس ههنا اختلاف الخصوص والعموم لأن أحدهما إنما يستفيد الجزئية بسبب المادة الجزئية واللواحق التي تلحقها من جهة المادة التي فيها وهذا المعنى لا يختص بأحدهما دون الآخر. وأما ذات النفس فإنها تدرك دائماً وجودها لا شيئاً من الأجسام التي معها وفيها<sup>(١)</sup>، ولا يجوز أن يكون لوجود صورة أخرى معقولة غير صورة آلتها فإن هذا أشد استحالة لأن الصورة المعقولة

(١) راجع برهانه على وجود النفس ص ٤٨.

إذا حلت الجوهر العاقل جعته عاقلاً لما تلك الصورة صورته أو لما تلك الصورة مضافة إليه فتكون صورة المضاف داخلة في هذه الصورة. وهذه الصورة المعقولة ليست صورة هذه الآلة ولا أيضاً صورة شيء مضاف إليها بالذات لأن ذات هذه الآلة جوهر ونحن إنما نأخذ ونعتبر صورة ذاته والجوهر في ذاته غير مضاف البتة. فهذا برهان عظيم على أنه لا يجوز أن يدرك المدرك للآلة التي هي آله في الإدراك، ولهذا فإن الحس إنما يحس شيئاً خارجياً ولا يحس ذاته ولا فعله ولا آله ولا إحساسه، وكذلك الخيال لا يتخيل ذاته ولا فعله ولا آله؛ بل إن تخيل آله تخيلها لا على نحو يخصه بأنه لا محالة له دون غيره إلا أن يكون الحس يورد عليه صورة آله لو أمكن فيكون حينئذ إنما يحكي خيلاً مأخوذاً عن الحس غير مضاف عنده إلى شيء، حتى لو لم تكن آله كذلك لم يتخيله.

#### البرهان الخامس:

مركب من مجموع دلائل واضحة وشواهد لائحة من أحاط بها علماً يقينياً  
تيقن قطعاً أن النفس ليس بجسم ولا تحل الأجسام.

وطريقه أن نقول إن النفس لو كانت جسماً فلا يخلو إما أن تكون حالة في البدن أو خارجة البدن، فإن كانت خارجة البدن فكيف تؤثر وتتصرف في هذا الجسم؟ وكيف يكون قوام البدن بها؟ وكيف تتصرف في المعارف العقلية في الملك والملوك فتعرف الأول الحق وتسافر في العرفان العقلي وتستوفي المعقولات في ذاتها؟ وإن كانت حالة في البدن فلا يخلو إما أن تكون حالة بجميع البدن أو ببعضه، فإن كانت حالة بجميع البدن فكان ينبغي إذا قطع منه طرف أن تنتقص أو تنزوي وتنتقل من عضو إلى عضو فتارة تمتد بامتداد الأعضاء وتارة تنقلص بذبول الأعضاء، وهذا كله محال عند من له غريزة صحيحة وفطنة مستقيمة طاهرة عن شوائب الخيال؛ وإن كانت حالة في بعض البدن فذلك البعض منقسم إما بالفعل أو بالفرض فينبغي أن تنقسم النفس إلى



أن تنتهي بالأقسام إلى أقل شيء وأحقره؛ وهذا معلوم إحالته على البديهة؛ فكيف يكون كذلك حال النفس التي هي محل المعارف وبه شرف الإنسان على جميع الحيوانات، وهو المستعد للقاء الله تعالى، وهو المخاطب وهو المثاب وهو المعاقب، وهو الذي إذا زكاه الإنسان أفلح وإذا دساها خاب وخسر، وهو خلاصة الموجودات وزُبدَةُ الكائنات في عالم العود، وهو الذي يبقى بعد موت البدن، وهو الذي إن كان متحلياً بالمعارف وصل إلى السعادة الأبدية فرحاً مستبشراً بلقاء الله تعالى؛ قال الله تعالى ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ فَرْحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠] فمن كان له أدنى مُسْكَة من العقل يعلم أن الجوهر الذي هذا محلّه ومنزلته لا يكون حالاً في البدن ولا يكون جزءاً من البدن لا دم ولا بخار ولا مزاج ولا غيره؛ وأيضاً فإنك تعلم أن نفسك مذ كنت لم تتبدل، ومعلوم أن البدن وصفان البدن كلّهما تتبدّل إذ لو لم تتبدّل لكان لا يغتذي لأن التغذي أن يحلّ بالبدن بدل ما تحلّل، فإذاً نفسك ليس من البدن وصفاته في شيء.

وأيضاً لو كانت النفس الإنسانية منطبعة في البدن لكان يضعف فعلها مع ضعف البدن لكنها لا تضعف مع ضعف البدن فثبت أنها غير منطبعة فيه؛ ودليل عدم الضعف المشاهدة فإن بعد الأربعين تكون القوة البدنية في انحطاط والقوة العقلية في الزيادة والارتفاع.

وأما الذي يتوهم من أن النفس تنسى ولا تفعل فعلها مع مرض البدن وعند الشيخوخة، وأن ذلك بسبب أن فعلها لا يتم إلا بالبدن، فظنّ غير ضروري ولاحق، وذلك أنه بعدما صح لنا أن النفس تفعل بذاتها يجب أن يطلب السبب في هذا، فإن كان قد يمكن أن يجتمع أن للنفس فعلاً بذاتها وأنها أيضاً تترك فعلها مع مرض البدن ولا تفعل من غير تناقض فليس لهذا الاعتراض اعتبار.

فنعقول: إن النفس له فعلاَن: فعل له بالقياس إلى البدن وهو السياسة، وفعل بالقياس إلى ذاته وإلى مبادئه وهو التعقل؛ وهما متعاندان متمانعان، فإنه إذا اشتغل بأحدهما انصرف عن الآخر ويصعب عليه الجمع بين الأمرين؛ وشواغله من جهة البدن الإحساس والتخيّل والشهوات والغضب والخوف والغم والوجع؛ وأنت تعلم هذا بأنك إذا أخذت تفكر في معقول تعطلّ عليك كل شيء من هذه إلا أن تغلب وتقسّر النفس بالرجوع إلى جهاتها.

وأنت تعلم أن الحسّ يمانع النفس عن التعقل إذا أكبّت على المحسوس من غير أن يكون أصاب آلة التعقل أو ذاتها آفة بوجه، وتعلم أن السبب في ذلك هو اشتغال النفس بفعل دون فعل؛ فلهذا السبب ما يتعطل أفعال العقل عند المرض، ولو كانت الصورة المعقولة قد بطلت وفسدت لأجل الآلة لكان رجوع الآلة إلى حالها يُخَوِّجُ إلى اكتساب من الرأس، وليس الأمر كذلك فإنه قد يعود النفس إل ملكتها وهياتها عاقلة بجميع ما عقلته بحاله، فقد كانت إذاً كلّها معها إلا أنها كانت مشغولة عنه؛ وليس اختلاف جهتي<sup>(١)</sup> فعل النفس فقط يوجب في أفعاله التمانع بل تكثر أفعال جهة واحدة قد يوجب هذا بعينه، فإن الخوف يُغفل عن الوجع، والشهوة تصدّ عن الغضب، والغضب يصرف عن الخوف، والسبب في جميع ذلك واحد وهو انصراف النفس بالكلية إلى أمر واحد، وكلّها قوى النفس الواحدة وهي ملكها والقوى رعيّتها وجنودها؛ فإذاً ليس يجب إذا لم يفعل شيء فعله عند اشتغاله بحالة شيء أن لا يكون فاعلاً فعله إلا عند وجود ذلك الشيء.

ولنا أن تتوسّع في بيان هذا الباب لأن هذا الباب من أصعب أبواب النفس إلا أنه بعد بلوغ الكفاية ننسب الزيادة إلى تكلف ما لا يحتاج إليه؛ فقد ظهر من أصولنا التي قررنا أن النفس ليست منطبعة في البدن ولا قائمة به فيجب أن يكون علاقتها مع البدن علاقة التدبير والتصرف والله تعالى وليّ الهداية والتوفيق.

(١) فعل النفس بسياستها البدن، وفعلها بتعقلها ذاتها ومبادئها.

## بيان القوى الحيوانية

والقوى الحيوانية تنقسم إلى محرركة ومدركة : والمحرركة إما أن تكون محرركة على أنها باعثة على الفعل أو على أنها فاعلة ، والباعثة إما أن تكون على جذب النفع أو على دفع الضرر ، والباعثة على جذب النفع هو الذي يعبر عنه بالشهوة وهو الذي إذا ارتسم في الخيال معنى يعلم أنه خير عنده أو يُظن <sup>(١)</sup> يبعث القوة الفاعلة على جذب ذلك النفع .

وأما الباعثة على دفع الضرر فهي التي يعبر عنها بالغضب وهي القوة التي إذا ارتسم في الخيال ما يعلم أو يظن أنه يضر تبعث على تحريك يدفع به ذلك الضرر أو المؤذي طلباً للانتقام والغلبة .

وأما القوة المحركة على أنها فاعلة فهي قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات ، من شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات المتصلة بالأعضاء إلى نحو جهة المبدأ أو ترخيها فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ ؛ وهذه القوة هي التي يعبر عنها بالقدرة ؛ والباعثة هي الإرادة <sup>(٢)</sup> .

وتجري هذا هو أن كل فعل اختياري يدخل في الوجود فلا يدخل ما لم يأت إليه رسول القدرة وهو ذلك المعنى المودع في العضلات ، والقدرة لا تنبعث من وطنها ومكانها بل كأنها في دعة ورفاهية ما لم يأت إليها رسول الإرادة ، إما إرادة جذب النفع أو إزالة الأذى والدفع . والإرادة لا تنتهض من مكانها ولا تخرج من مكانها ما لم يأت إليها رسول العلم ، فإذا أتى وجزم الحكم انبعثت الإرادة ولا تجد بداً من الانقياد والإذعان ، وإذا جزمت الإرادة الحكم انبعثت القدرة

---

(١) الشهوات التي يعلم أنها خير له هي المشروعة ، والتي يظن أنها خير وليست كذلك هي الشهوات المحرمة والمنوعة .

(٢) بتعبير آخر : القوة الفاعلة هي القوة العملية ، والقوة الباعثة هي القوة النظرية .

لتحريك الأعضاء فلا تجد محيصاً خلاصاً من الامتنال والارتسام بموجب رسمها؛ وإذا جزمت القدرة الحكم تحركت الأعضاء بحيث لا تجد محيصاً من الحركة: فها دام رسول العلم متردداً تكون الإرادة مترددة، وما دامت الإرادة مترددة تكون القدرة مترددة، وما دامت القدرة مترددة فالأفعال لا تدخل في الوجود ولا تظهر على الأعضاء؛ فإذا اتصا الحكم بالجزم وجدت الأفعال<sup>(١)</sup>.

## زيادة تحقيق

اعلم أن الحركة الاختيارية التي هي خاصية الحيوان لها مبدأ ووسط وكمال: أما المبدأ فحاجة الناقص إلى الكمال واشتياق الطالب، وأما الكمال فنيل المطلوب، وبينهما وسط وهو السلوك الطلي؛ فالحركات الاختيارية التي للحيوان هي حركات مكانية فعلية إلى جهات مختلفة عن علم وشعور وطلب، بخلاف حركات النبات فإنها لما كانت غير اختيارية توجهت إلى جهات مختلفة من غير علم وشعور وطلب للخير، وحركاتها تكون حركة النمو والذبول. والحركات الاختيارية للإنسان حركات فكرية وحركات قولية وحركات فعلية، وإنما جهات اختلافها بخلاف حركات الحيوان فإنها عدمت قسمين منها وهي الفكرية والقولية. والحركة النباتية احتاجت إلى حسن تعهد وتشذيب حتى تصل إلى كمالها المطلوب وهما الثمرة وتوليد المثل: أما الثمرة فللانتفاع بشخصه، وأما توليد المثل فللانتفاع بنوعه، فلا يخلو وجوده في الكون عن نفع جزئي بشخصه وعن نفع كلي بنوعه.

والحركة الحيوانية احتاجت أيضاً إلى حسن رعاية وتسخير حتى تصل إلى

---

(١) يمكن تصوير مراحل ظهور الفعل الاختياري إلى الوجود بالشكل التالي:

العلم ← الحكم الجازم ← الإرادة (وهي تنقسم إلى إرادة جذب النفع أو إزالة الأذى والدفع) ← القدرة على الفعل (وآلتها العضلات) ← الفعل الاختياري الذي يدخل في الوجود.

كها المطلوب وهو الانتفاع بشخصه حملاً وركوباً وأكلًا وحزاة، والانتفاع بنوعه سوماً وتوليداً وإنتاجاً، فلا يخلو وجوده في الكون عن نفع جزئي بشخصه وعن نفع كلي بنوعه.

وأما الحركة الإنسانية فاحتاجت إلى حسن عناية وتكليف بتأييد وتسديد وتعريف، فإن الحركة الفكرية يدخلها حق وباطل فيجب أن يختار الحق دون الباطل، والحركات القولية يدخلها صدق وكذب فيجب أن يختار الصدق دون الكذب، والحركات الفعلية يدخلها خير وشر ويجب أن يختار الخير دون الشر، ولن يتحقق هذا الاختيار إلا من تأييد وتسديد وتعريف.

فأما التأييد فيظهر أثره في الأفعال حتى يختار من الحركات الفعلية الخير ويترك الشر، وأما التسديد فيظهر أثره في الأقوال حتى يختار من الحركات القولية الصدق ويترك الكذب، وأما التعريف فيظهر أثره في الأفكار حتى يختار من الحركات الفكرية الحق ويترك الباطل.

وإنما هذه المراتب الثلاثة مقدرة على المراتب الثلاثة العلوية التي يعبر عنها تارة بالملائكة المؤيدين، وتارة بالجدود الروحانيين، وتارة بالحروف والكلمات في عليين، وكما أن الحركات النباتية احتاجت إلى تشذيب والحركات الحيوانية إلى تهذيب كذلك احتاجت الحركات الإنسانية إلى تأديب.

ومن صفت اختياراته في حركاته الثلاث عن شائبة الباطل والكذب والشر من كل وجه فهو الذي يحق له أن يقول «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وهو الذي يستحق أن يؤدب غيره ويهذب ويزكي ويظهر ويعلم ويذكر لقوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّكُمْ وَيَهْدِيكُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٥١].

## بيان القوى المدركة

وهي منقسمة بالقسمة الأولى قسمين: مدركة من ظاهر ومدركة من باطن؛ والمدركة من الظاهر تنقسم خمسة أقسام وهي الحواس الخمس فنذكرها ونذكر كيفية تأديتها إلى الحس المشترك.

اعلم أن أول الحواس اتصالاً بالحيوان وأعمها لجميع الحيوانات وأسراها في بدن الحيوان هي حاسة اللمس، وهي قوة مبثوثة في جميع بشرات الحيوان ولحمه وعرقه وعصبه يُدرك بها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والصلابة والرخاوة واللين والخشونة والخفة والثقيل، والحامل لها جسم لطيف في شبك العصب يسمى روحاً ويستمد من القلب والدماغ، وشرط إدراكه أن يستحيل كيفية البشرة إلى ضد المدرك من الحرارة والبرودة وغيرهما حتى يصير مُدركاً، ولذلك لا يدرك إلا ما هو أبرد منه أو أسخن أو أخشن أو ألين، والمثل قلماً يدرك. والمدركات مختلفة وهي مع اختلافها تستند إلى مدرك واحد. وعند قوم قوة اللمس جنس لأربعة أنواع من القوى: (إحداها) حاكمة في التضاد بين الحار والبارد (والثانية) حاكمة في التضاد بين الرطب واليابس (والثالثة) حاكمة في التضاد بين الصلّب واللين (والرابعة) حاكمة في التضاد بين الخشن والأملس؛ وربما يزيدون على ذلك؛ وهي الطليعة الأولى للنفس<sup>(١)</sup>؛ ولا يخلو جزء من البشرة عن قوة اللمس ولا يوجد حيوان إلا وفيه قوة اللمس.

والحكمة في القوة اللمسية هي أن الحكمة الإلهية لما اقتضت أن يكون حيوان يتحرك بالإرادة مركباً من عناصر وكان لا يؤمن عليه أضرار الأمكنة المتعاقبة عليه عند الحركة أيدّ بالقوة اللمسية حتى يهرب بها من المكان الغير الملائم ويقصد بها المكان الملائم.

---

(١) لعله يقصد أن قوة اللمس هي القوة الرئيسية للنفس المدركة من ظاهر، وذلك بسبب عمومها لجميع الحيوانات، بعكس الحواس الأخرى التي قد تختص ببعض الحيوان دون بعض.

ثم يليها من الحواس حاسة الشم: ولما كان مثله من الحيوانات لا تستغني جبلته عن التغذي، وكان اكتسابه للغذاء بتصرف إرادي، وكان من الأطعمة ما لا يوافقه ومنها ما يوافقه أيّد بالقوة الشمّية، إذاً كانت الروائح تدل الحيوان على الأغذية الملائمة دلالة قوية.

وحاسة الشم قوة مبنوثة في زائدي الدماغ كحلمتي الثدي، ويدرك بها الروائح المختلفة الطيبة منها والكريهة؛ والحامل لها أيضاً جسم لطيف في الحلمتين، والممدّ لها الهواء اللطيف لا على أنه ينقل الرائحة من المتروّح إلى الحاسة فقط، بل على أنه يستحيل إليه بالمجاورة كما يستحيل بمجاورة النار والبرد. والهواء بلطافته أسرع قبولاً للروائح منه للحرارة والبرودة، وهذه القوة في الحيوانات أشدّ وأكثر. وأول ما يتصل بالجنين بعد قوة اللمس هو الشم؛ ولهذا تُحفظ الأم عن الروائح الكريهة وأن لا تشم شيئاً من المطعومات إلا أكلته حتى لا يظهر خلل في الجنين. وقد يظن أن النملة تحس بحس الشم حباً من الحبوب فتخرج من البيت فتطلبه وتصل إليه وإن كان من وراء جدار؛ وليس ذلك شأماً مجرداً بل هو حسّ وقوة في حسّ، وكيف لا والمطلوب ربما لا تكون له رائحة. وقد يعبر كثيراً عن الحس بالشم، وفي الخبر «الأرواح جنود مجنّدة» فتشامّ كما تشامّ الخيل «فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وإنما المراد بالتشامّ الإحساس.

أما حاسة الذوق فهي أيضاً طليعة تعرف الطعوم الموافقة والمنافية، وهي قوة مرتبة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك الطعوم المتحللة من الأجرام المماسّة لها المخالطة للرطوبة العذبة التي فيها مخالطة محيلة، فإنها تأخذ طعم ذي الطعم وتستحيل إليه وربما تحيله إليها، وكلما اتصل الطعم بذلك العصب أدركه العصب؛ وهي التي تتلو الشم. وتتصل هذه القوة بالجنين بعد قوة الشم فتظهر فيه عند الولادة فيتحرك الجنين ويحرك لسانه ويلق نفسه بنفسه.

أما حاسة البصر ووجه منفعتها فإن الحيوان المتحرك بالإرادة لما كان تحركه إلى بعض المواضع كمواقد النيران، وعن بعض المواضع كقلل الجبال وشطوط البحار، ربما يؤدي إلى الإضرار به؛ أوجبت العناية الإلهية إعطاء القوة في أكثر الحيوانات؛ وهي قوة مرتبة في العصب المجوفة تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل إلى سطوح الأجسام الصقيلة.

ولا تظن أنه ينفصل من المتلون شيء ويصل إلى العين، ولا أن ينفصل من العين شعاع فيمتد إلى المتلون، لكن يحدث صورة في الصقيل المستعد لقبول الصورة بشرط المقابلة المخصوصة وتوسط الشفاف، فإذا حصلت الصورة في الجليدية أفضت إلى العصب المجوفة التي فيها روح هو جسم لطيف مثل ما تقع الصورة على الماء الراكد، فيفضي إلى ملتقى الأنبوبتين المتصلتين بالعينين في مقدمة الدماغ، فيدرك الحس المشترك من الصورتين المتحدتين صورة واحدة وإلا كان يجب أن يرى شيئين إذ الصورة في الجليدية صورتان؛ ولما كانت الرطوبة الجليدية كرية والذي يقابل من سطح الكرة إنما يقابلها بالمركز على خطوط موهومة خارجة من السطح إلى المركز، فحيثما قربت المسافة بين الرائي والمرئي كانت الخطوط أكثر والشكل المخروط منها إلى المركز أقصر والزوايا أكبر؛ وحيثما بعدت المسافة كانت الخطوط أقل والشكل المخروط منها إلى المركز أطول والزوايا أصغر، وذلك بسبب رؤية البعيد صغيراً والقريب على هيئته.

وأما حاسة السمع فهي قوة مرتبة في العصب المتفرق في سطح الصماخ، تدرك صورة ما يتأدى إليه بتموج المنضغط من قرع أو قلع انضغاطاً بعنف يحدث منه صوت يتأدى إلى الهواء المحصور الراد. في تجويف الصماخ ويحركه بشكل حركته فتماس الأمواج المختلفة تلك العصب فتأدى بها إلى الحس المشترك.



وقيل إن تلك العصبه مفروشة في أقصى الصماخ ممدودة مدّ الجلد على الطبل إلا أنها على دقة نسج العنكبوت وصلابة الجلد المدبوغ.

وقيل إنها أعصاب كأوتار العود ممدودة في جوانب الصماخ، وتحرك تلك الأوتار بتحريك الهواء الراكد فيه فيحصل منه طنين، وإنما يتحرك على ترتيب تعاقب الحروف والأصوات واختلافها في الرفع والخفض والخفة والثقل والدقة والغلط. وكما أن الضياء شرط في الإبصار كذلك الهواء في السمع.

والسمع إنما يسمع من محيط الدائرة، والبصر إنما يبصر على خط مستقيم؛ على أن تلك الخطوط المستقيمة تخرج من المحيط وتصل إلى المركز من الكرة المدورة، حتى ظن طائون أن تلك الخطوط أشعة منبعثة من البصر إلى القاعدة أو صور مقبوضة من القاعدة إلى البصر؛ وكلا الوجهين خطأ كما ذكرناه.

والقوة السامعة تلي المبصرة في النفع؛ ووجه منفعتها أن الأشياء الضارة والنافعة قد تستدل عليها بخاصّ أصواتها، فأوجبت العناية الإلهية وضع القوة السامعة في أكثر الحيوان. على أن منفعة هذه القوة في النوع الناطق من الحيوان<sup>(١)</sup> تكاد تفوق الثلاث.

وأما القوى المدركة من باطن فتنقسم بالقسمة الأولى ثلاثة أقسام: منها ما يدرك ولا يحفظ، ومنها ما يحفظ ولا يعقل، ومنها ما يدرك ويتصرف. ثم المدرك إما أن يدرك الصورة أو المعنى، والحافظ إما أن يحفظ الصورة أو المعنى؛ والمتصرف تارة يتصرف في الصورة وتارة في المعنى، والمدرك تارة يكون له إدراك أوّلي من غير واسطة وقد يكون له إدراك ولكن بواسطة مدرك آخر.

والفرق بين الصورة والمعنى أن الصورة نعني بها في هذا المقام ما يدركه الحس الظاهر ثم يدركه الحس الباطن، والمعنى هو الذي يدركه الحس الباطن من غير أن يكون للحس الظاهر فيه مدخل. فهذه تقاسيم المدركات على الجملة.

(١) أي الإنسان.

أما تفصيلها وبيان إثباتها ومحالها فالمدرك للصورة هو الحس المشترك ويسمى بِنَظَاسِيَا وخازنه الخيال، والمدرك للمعنى القوة الوهمية وخازنها الحافظة والذاكرة، والذي يدرك ويعقل هو القوة المتخيَّلة وما لا يعقل ما ذكرناه من التوهم والحس.

أما بيان إثباتها فهو بحسب الوجدان: أما إثبات الحس المشترك فهو أنك تبصر القطر النازل خطأً مستقيماً والنقطة الدائرة بسرعة خطأً مستديراً، كله على سبيل المشاهدة لا على سبيل التخيل، ولو كان المدرك هو البصر الظاهر لكان يرى القطر كما هو عليه والنقطة كما هي عليها فإنه لا يدرك إلا المقابل النازل وذلك ليس بخط؛ فعلمنا أن ثم قوة أخرى ارتسم فيها هيئة ما رأى أولاً، وقبل أن تحي تلك الهيئة لحقتها أخرى وأخرى فرآها خطأً مستقيماً أو خطأً مستديراً، والدليل عليه أنه لو أديرَت النقطة لا بسرعة لترى نقطاً متفرقة فعندك إذاً قوة قبل البصر إليها يؤدي البصر ما يشاهده، وعندها تجتمع المحسوسات فتدركها. وكذلك الإنسان يحس من نفسه أنه إذا أبصر شخصاً أو سمع كلاماً، أدرك المبصر شخصاً واحداً وأدرك المسموع كلاماً واحداً وما في العين عنده شخصان أعني شبحين في العينين وكلامين في الأذنين، فعلم يقيناً أن محل الإدراك أمر وراء العينين والأذنين، فالقوة المدركة لها قوة واحدة اجتمعت عندها صورتان - أعني الشبحين في العينين على اتفاقهما - والمدركان - أعني المبصر والمسموع على اختلافهما، فتلك القوة مجمع المتماثلات والمختلفات فسميناها الحس المشترك، إذ لا تكون النفس مدركةً إلا بهذه القوة وسميناها اللوح، إذ لا تجتمع المحسوسات إلا في هذه القوة وليس لها إلا الإدراك فقط وإنما يكون الارتسام والحفظ لقوة أخرى. ومن خواص هذه القوة استحضار المحسوسات في الخواص أولاً ثم إدراكها ثانياً، ومن خواصها أنها تدرك الجزئيات الشخصية دون الكليات العقلية، ومن خواصها أنها تحس باللذة والألم من المتخيلات كما تحس بالألم واللذة من المحسوسات الظاهرة.

وأما بيان القوة الخيالية فإننا نعلم أنا إذا رأينا شيئاً وغبنا عنه أو غاب عنا بفيت صورته فينا كأننا نشاهدها ونراها، فهي تحفظ مُثْلٌ<sup>(١)</sup> المحسوسات بعد الغيبوبة؛ وبهاتين القوتين يمكنك أن تحكم أن هذا الطعم لغير صاحب هذا الكون، وأن لصاحب هذا الكون هذا الطعم، فإن القاضي بهذين الحكمين لا يمكنه القضاء ما لم يحضره المقتضي عليهما.

وأما بيان القوة الوهمية فإن الحيوانات ناطقها وغير ناطقها تدرك من الأشخاص الجزئية المحسوسة معانٍ جزئية غير محسوسة، كما تدرك الشاة أن هذا الذئب عدوها، والعداوة والمحبة غير محسوستين، وتحكم عليهما كما تحكم على المحسوس؛ فعلمنا أن هذه لقوة أخرى. وللقوة الوهمية في الإنسان أحكام خاصة منها حملها النفس أن تمنع وجود أشياء لا تتخيل ولا ترسم في الخيال مثل الجواهر العقلية التي لا تكون في حيز ومكان، ومنها إثبات الخلاء محيطاً بالعالم، ومنها موافقة المبرهن على تسليم المقدمات ثم مخالفته في النتيجة.

وقد قيل إن القوة الوهمية هي الرئيسة الحاكمة في الحيوان حكماً ليس فصلاً كالحكم العقلي، ولكن حكماً تخيلاً مقروناً بالأشياء الجزئية والصور الحسية وعنها يصدر أكثر الأفعال الحيوانية.

وأما بيان القوة الحافظة فإننا نعلم أنا إذا أدركنا المعاني الجزئية لا تغيب عنا بالكلية فإننا نتذكرها ونستحضرها بأدنى تأمل، فعلمنا أن لهذه المعاني خازناً يحفظها، فتلك هي الحافظة ما دامت باقية فيها، فإذا غابت واستعادت فهي الذاكرة. ونسبة الحافظة إلى المعاني كنسبة المصورة إلى المحسوسات المتصورة في الحس المشترك.

وأما بيان قوة التخيل فإننا نعلم أنا يمكننا أن ندرك صورة ثم نفصل ونرتب ونزيد وننقص وندرك معنى فلنحققه بالصورة، فهذا التصرف لغير ما ذكر من

(١) المثل جمع مثال. ومثل المحسوسات يعني صورها.

القوة. ومن شأن هذه القوة أن تعمل بالطبع عملاً منتظماً أو غير منتظم، وإنما ذلك لتستعملها النفس على أيّ نظام تريده، ولو لم يكن كذلك لكان أمراً طبيعياً غير مفتنٍ. ولما كان للإنسان أن يتعلم الصناعات المختلفة والنقوش العجيبة والخطوط المنظومة ليكون مطبوعاً على فعل واحد كسائر الحيوانات، فهذه القوة تستعملها النفس في التركيب والتفصيل، تارة بحسب العقل العملي، وتارة بحسب العقل النظري، وهي في ذاتها تركّب وتفصل ولا تدرك؛ وإذا استعملتها النفس في أمر عقلي سمّيت مفكرة، وإذا أكبّت على فعلها الطبيعي سمّيت متخيلة. والنفس تدرك ما تركّبه وتفصله من الصور بواسطة الحس المشترك، وما تركّبه من المعاني بواسطة القوة الوهمية.

وأما محال هذه القوى فاعلم أن هذه قوى جسمانية فلا بد لها من محال جسمانية خاصة واسم خاص، فالحس المشترك آلتها ومحلها الروح المصبوب في مبادئ عصب الحس لاسيما في مقدم الدماغ.

وأما القوة المصورة وتسمى الخيال فآلتها الروح المصبوب في البطن الأول من الدماغ ولكن في جانبه الأخير.

. وأما القوة الوهمية فمحلها وآلتها الدماغ كله ولكن الأخص بها التجويف الأوسط لاسيما في جانبه الأخير.

وأما القوة المتخيلة فسلطانها في الجزء الأول من التجويف الأوسط وكأنها قوة ما للوهم وبتوسط الوهم للعقل.

وأما البواقي من القوى وهي الذاكرة والحافظة فسلطانها في حيّز الروح الذي في التجويف الأخير وهو آلتها، وإنما هدي الناس إلى القضاء بأن هذه هي الآلات وأنها مختلفة المحال بحسب اختلاف القوى وأن الفساد إذا اختص بتجويف أورث الآفة فيه.

ثم اعتبار الواجب في حكمة الصانع الحكيم تعالى أن يقدم الأخص

للجرماني<sup>(١)</sup> ويؤخر الأفضى للروحاني ، ويقعد المتصرف فيها حكماً واسترجاعاً للمثل المنمحية عن الجانيين في الوسط ؛ جلّت قدرته .

## بيان القوة الإنسانية خاصة

أما النفس الإنسانية الناطقة فتتقسم قواها أيضاً إلى قوة عاملة وإلى قوة عالمة ، وكل واحدة من القوتين تسمى عقلاً باشتراك الاسم ، فالعاملة قوة هي مبدأ تحريك لبدن الإنسان إلى الأفاعيل الجزئية الخاصة بالرؤية على مقتضى آراء تخصها اصطلاحية . ولها اعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية النزوعية ، واعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة ، واعتبار بالقياس إلى نفسها . وقياسها إلى القوة الحيوانية النزوعية أن يحدث منها فيها هيئات تخص الإنسان يُهتأ بها لسرعة فعل وانفعال مثل الخجل والحياء والضحك والبكاء وما أشبه ذلك .

وقياسها إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة هو أن تستعملها في استنباط التدابير في الأمور الكائنة والفاصلة ، واستنباط الصنائع الإنسانية .

وقياسها إلى نفسها أن فيما بينها وبين العقل النظري يتولد الآراء الذائعة المشهورة ، مثل : إن الكذب قبيح ، والظلم قبيح ، والصدق حسن ، والعدل جميل . وعلى الجملة جميع تفاصيل الشريعة فهو تفصيل هذه المشهورات المتولدة بين العقل النظري والعمل . وهذه القوة هي التي يجب أن تتسلط على سائر قوى البدن على حسب ما توجه أحكام القوة التي نذكرها ، حتى لا تنفعل عنها البتة بل تنفعل هي عنها وتكون مقموعة دونها ، لئلا يحدث فيها عن البدن هيئات انقيادية مستفادة من الأمور الطبيعية ، وهي التي تسمى رذائل الأخلاق ؛ بل يجب

(١) الجرمانى بكسر الجيم أي الجسدي ؛ من الجرهم أي الجسد

أن تكون غير منفصلة البتة وغير منقادة بل متسلطة مستولية فتكون لها فضائل الأخلاق.

وقد يجوز أن تنسب الأخلاق إلى القوى البدنية أيضاً، ولكن إن كانت هي الغالبة يكون لها هيئة فعلية ولهذه هيئة انفعالية، فيكون شيء واحد يحدث منه خلق في هذا وخلق في ذلك؛ وإن كانت هي المغلوبة تكون لها هيئة انفعالية ولهذا هيئة فعلية غير غريبة، ويكون الخلق واحداً وله نسبتان. وإنما كانت الأخلاق عند التحقيق لهذه القوة لأن النفس الإنسانية كما ظهر جوهر واحد، وله نسبة وقياس إلى جنبتين: جنبة هي تحته وجنبة هي فوقه، وله بحسب كل جنبة قوة تنتظم بها العلاقة بينه وبين تلك الجنبة.

فهذه القوة العملية هي القوة التي لها بالقياس إلى الجنبة التي دونها هي البدن وسياسته.

وأما القوة النظرية فهي القوة التي بالقياس إلى الجنبة التي فوقها لتنفعل وتستفيد منها وتقبل عنها، فكأن للنفس منا وجهين: وجه إلى البدن، ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل البتة أثراً من جنس مقتضى طبيعة البدن، ووجه إلى المبادئ العالية والعقول بالفعل. ويجب أن يكون هذا دائم القبول عما هنالك والتأثر منه، وبه كمال النفس. فإذا القوة النظرية لتكميل جوهر النفس، والقوة العملية لسياسة البدن وتدبيره على وجه يفضي به إلى الكمال النظري ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [فاطر: ١٠].

وأما القوة النظرية فهي قوة من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة؛ فإن كانت <sup>(١)</sup> مجردة بذاتها فذاك، وإن لم تكن فإنها <sup>(٢)</sup> تصيرها مجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء؛ وسنوضح هذا بعد.

(١) الصمير يعود إلى الصور الكلية المجردة.

(٢) الصمير يعود إلى القوة النظرية.

وهذه القوة النظرية لها إلى هذه الصور نسب، وذلك أن الشيء الذي من شأنه أن يقبل شيئاً قد يكون بالقوة قابلاً له وقد يكون بالفعل؛ والقوة تقال على ثلاثة معانٍ بالتقديم والتأخير:

فيقال قوة للاستعداد المطلق الذي لا يكون خرج منه شيء بالفعل، ولا أيضاً حصل ما به يخرج، وهذا كقوة الطفل على الكتابة.

ولا يقال قوة لهذا الاستعداد إذا كان لم يحصل إلا ما يمكن به أن يتوصل إلى اكتساب الفعل بلا واسطة، كقوة الصبي الذي ترعرع وعرف الدواة والقلم وبسائط الحروف على الكتابة.

ويقال قوة لهذا الاستعداد إذا تم بالآلة وحدث معه أيضاً كمال الاستعداد بأن يكون له أن يفعل متى شاء بلا حاجة إلى الاكتساب بل يكفي أن يقصد فقط: كقوة الكاتب المستكمل للصناعة إذا كان لا يكتب.

والقوة الأولى تسمى قوة مطلقة هيولانية، والقوة الثانية تسمى قوة ممكنة وملكية، والقوة الثالثة كمال القوة. فالقوة النظرية إذاً تارة تكون نسبتها إلى الصور المجردة التي ذكرناها نسبة ما بالقوة المطلقة، وذلك متى تكون هذه القوة للنفس لم تقبل بعد شيئاً من الكمال الذي بحسبها، وحينئذ تسمى عقلاً هيولانياً؛ وهذه القوة التي تسمى عقلاً هيولانياً موجودة لكل شخص من النوع ولكن على السواء، وفيها ترتب وتفاضل فيه خلاف بين الحكماء.

وإنما سميت هيولانية تشبيهاً بالهيولى الأولى التي ليست بذاتها ذات صورة من الصور وهي موضوعة لكل صورة، وتارة نسبة ما بالقوة الممكنة وهي أن تكون الهيولانية قد حصل فيها من المعقولات الأولى التي يتوصل منها إلى المعقولات الثانية، أعني بالمعقولات الأولى المقدمات<sup>(١)</sup> التي بها يقع التصديق بالاكتساب، ولا أن يشعر بها المصدق أنه كان يجوز له أن يخلو عن التصديق بها وقتاً البتة، مثل

(١) يعني المسلمات العقلية الفطرية.

اعتقادنا أن الكل أعظم من الجزء أو أن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية، وهذه هي التي تسمى العلوم الضرورية. فما دام إنما حصل فيه من العقل هذا القدر فقط يسمى عقلاً ممكناً أو عقلاً بالملكة؛ ويجوز أن تسمى عقلاً بالفعل بالنسبة إلى الأولى<sup>(١)</sup>؛ وقد تكون أقوى من ذلك بأن يكون قد حصل له من المعقولات النظرية بحيث يمكنه أن يتوصل بها إلى المعقولات الثانية، ويجوز أن تكون نسبة بالقوة الكمالية وهو أن يكون قد حصل فيها أيضاً الصورة المعقولة المكتسبة بعد المعقولة الأولية، إلا أنه ليس يطالعها ويرجع إليها بالفعل، بل كأنها عنده مخزونة فمتى شاء طالع تلك الصورة بالفعل وعقلها وعقل أنه عقلها. وتسمى عقلاً بالفعل لأنه يعقل متى شاء بلا اكتساب تكلف وتجشم وإن كان يجوز أن تسمى عقلاً بالقوة بالقياس إلى ما بعده.

وتارة تكون نسبته نسبة ما بالفعل المطلق، وهو أن تكون الصورة المعقولة حاضرة فيه وهو يطالها بالفعل ويعقلها بالفعل ويعقل أنه يعقلها بالفعل، فيكون حينئذ عقلاً مستفاداً، وهذا هو العقل القدسي؛ وإنما سمي مستفاداً لأنه سيتضح أن العقل بالقوة إنما يخرج إلى الفعل بسبب عقل هو دائم الفعل<sup>(٢)</sup> وأنه إذا اتصل به العقل بالقوة نوعاً من الاتصال انطبع فيه بالفعل نوع من الصورة تكون مستفادة من خارج. فهذه أيضاً مراتب القوى التي تسمى عقلاً نظرية. وعند العقل المستفاد يتم الجنس الحيواني والنوع الإنساني، وهناك تكون القوة الإنسانية تشبهت بالمبادئ الأولية للوجود كله. وسيأتي زيادة شرح للعقل المستفاد القدسي في النبوة.

(١) هي عقل بالفعل بالنسبة إلى ما أسفل منها، وعقل بالقوة بالنسبة إلى ما أعلى منها.

(٢) وهو العقل الفعال؛ وهو عقل مفارق.



## بيان اختلاف الناس في العقل الهولاني الذي هو الاستعداد المطلق

اعلم أن الحكماء اختلفوا في هذا الاستعداد هل هو متشابه في جميع أشخاص النوع أم مختلف، فقالت جماعة إنها متشابهة في هذا الاستعداد وإنما الاختلاف راجع إلى استعمال ذلك الأمر المستعد في نوع من العلم دون نوع فيخرج إلى الفعل فيظهر الاختلاف.

وقالت جماعة إنها مختلفة الاستعداد على حسب اختلاف الأمزجة، وما يخرج منها إلى الفعل فإنما يخرج ذلك إلى حسب ذلك الاستعداد؛ وليس حكمها حكم الهول في أنها قابلة لكل صورة، فإن الهول الأولى قابلة للصورة الأولى وهي الجسمية وهي متشابهة في جميع الأجسام، ثم تقبل بواسطتها صورة صورة على حسب تركيبها من الصورة الثانية والهول الثانية؛ ولهذا لم يكن للهول الأولى وجود في ذاتها دون الصورة الأولى، ولا للجسم المطلق وجود دون أن يكون إما نارا أو هواء أو غير ذلك؛ والأمر ههنا بخلاف ذلك فإن النفس لها وجود محقق واستعداد لذلك الوجود فيجب أن يكون مختلفاً بحسب اختلاف الموضوع.

وإن قيل إن النفس الإنسانية متشابهة في النوع وسلم ذلك فلا شك أنها مختلفة في الشخص والعين بحسب اختلاف العوارض المشخصة، فيختلف الاستعداد في العقل الهولاني على حسب ذلك، فإن النفس إنما تفيض من المبادئ على قدر الاستعداد، فكلما كان المزاج أعدل كانت النفس أشرف؛ وينضاف إليه طوابع الكواكب وأجرام السموات؛ فإذاً كما أن النفس وإن كانت متحدة في النوع فبينها تفاضل وترتب، فكذلك الاستعداد مترتب على شرف النفس، فرب نفس نبي يستغني عن الفكرة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، ورب نفس غبي لا يعود عليه الفكر براذة. وهذا الرأي أقوى وأقرب إلى مناهج الشرع<sup>(١)</sup>.

(١) وذلك لأن القول بتفاوت الاستعداد في النوع الإنساني (بالنسبة إلى العقل الهولاني) يؤدي إلى

## بيان أمثلة مراتب العقل من الكتاب الإلهي

اعلم أن الله تعالى ذكر هذه المراتب في آية واحدة فقال: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ [النور: ٣٥].

فالمشكاة مثل للعقل الميولاني؛ فكما أن المشكاة مستعدة لأن يوضع فيها النور فكذلك النفس بالفطرة مستعدة لأن يفيض عليها نور العقل؛ ثم إذا قويت أدنى قوة وحصلت لها مبادئ المعقولات فهي الزجاج؛ فإن بلغت درجة تتمكن من تحصيل المعقولات بالفكرة الصائبة فهي الشجرة، لأن الشجرة ذات أفنان فكذلك الفكرة ذات فنون؛ فإن كانت أقوى وبلغت درجة الملكة فإن حصل لها المعقولات بالحدس فهي الزيت، فإن كانت أقوى من ذلك فيكاد زيتها يضيء، فإن حصل له المعقولات كأنه يشاهدها ويطالعها فهو المصباح، ثم إذا حصلت له المعقولات فهو نور على نور، نور العقل المستفاد على نور العقل الفطري. ثم هذه الأنوار مستفادة من سبب هذه الأنوار بالنسبة إليه كالسراج بالنسبة إلى نار عظيمة طبقت الأرض، فتلك النار هي العقل الفعال المفيض لأنوار المعقولات على الأنفس البشرية. وإن جعلت الآية مثلاً للعقل النبوي فيجوز، لأنه مصباح يوقد من شجرة أمرية مباركة نبوية زيتونة أمية لا شرقية طبيعية ولا غربية بشرية يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة وإن لم تمسسه نارُ الفكرة نور من الأبر الربوبي على نور من العقل النبوي يهدي الله لنوره من يشاء.

= القول بوجود أنفس معدة سلفاً لاستقبال الرسالة الإلهية (أي النبوة). بينا القول بتساوي هذا الاستعداد الأولي لدى النوع تكون نتيجته الحتمية القول بأن تحصيل النبوة إنما يكون بالجهد والاكتساب، لا بالإرادة الإلهية والاختيار.

## بيان تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما إلى الآخر

اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل كالأسّ والشرع كالبناء، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ. أيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر؛ فلهذا قال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾ [المائدة: ١٦].

وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمدّه، فما لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت؛ وعلى هذا نبّه الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ إلى قوله: ﴿نور على نور﴾ [النور: ٣٥] فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل، وهما متعاضان بل متحدان. ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله تعالى: ﴿صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ [البقرة: ١٧١] ولكون العقل شرعاً من داخل قال تعالى في صفة العقل: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ [الروم: ٣٠] فسمى العقل ديناً. ولكونها متحدتين قال: ﴿نور على نور﴾ أي نور العقل ونور الشرع.

ثم قال: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ فجعلها نوراً واحداً؛ فالشرع إذا فقد العقل لم يظهر به شيء وصار ضائعاً ضياع الشعاع عند فقد نور البصر، والعقل إذا فقد الشرع عجز عن أكثر الأمور عجز العين عن فقد النور.

واعلم أن العقل بنفسه قليل الغناء لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الشيء دون جزئياته، نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطي

الجميل وحسن استعمال المعدلة وملازمة العقّة ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك في شيء شيء. والشرع يعرف كليات الشيء وجزئياته ويبين ما الذي يجب أن يعتقد في شيء شيء وما الذي هو معدلة في شيء شيء<sup>(١)</sup>.

وعلى الجملة فالعقل لا يهتدي إلى تفاصيل الشرعيات، والشرع تارة يأتي بتقرير ما استقرّ عليه العقل وتارة بتنبيه الغافل وإظهار الدليل حتى يتنبه لحقائق المعرفة، وتارة بتذكير العاقل حتى يتذكر ما فقدّه، وتارة بالتعليم وذلك في الشرعيات وتفصيل أحوال المعاد. فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة والدّال على مصالح الدنيا والآخرة، ومن عدل عنه فقد ضلّ سواء السبيل. وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] وعُني بالقليل المصطفين الأخيار.

### بيان حقيقة الإدراك ومراتبه في التجريد

اعلم أن الإدراك أخذ صورة المدرك، وبعبارة أخرى الإدراك أخذ مثال حقيقة الشيء لا الحقيقة الخارجية؛ فإن الصورة الخارجية لا تحل المدرك بل مثال منها، فإن المحسوس بالحقيقة ليس هو الخارج بل ما تمثّل في الحاسّ، فالخارج هو الذي المحسوس انتزع منه، والمحسوس هو الذي وقع في الحاسّ فشعر به، ولا معنى لشعوره إلا وقوعه فيه وانطباعه به. كذلك المعقول هو مثال الحقيقة المرتسم في النفس، لأن العقل يجردّه عن جميع العوارض واللواحق الغريبة إن كان يحتاج إلى التجريد.

---

(١) لذلك فإن النبوة ضرورية لتدل العقل على جزئيات الشرع التي لا يعرفها إلا بالتوجيه؛ أي أن هذه الجزئيات لا يمكن أن تحدد وتوضح وتعرف تفاصيلها إلا بالوحي الإلهي. بعكس النظريات القائلة بأن النبوة لا ضرورة لها لإمكان العقل الاستدلال على الكليات والجزئيات أيضاً.

وأما مراتب الإدراكات في التجريد فاعلم أولاً أن المدرك الذي يفتقر إلى تجريد لا يخلو في الوجود الخارجي عن لواحق غريبة وأعراض غاشية من قدر وكيف وأين ووضع، فإن الإنسان مثلاً له حقيقة وهو الحي الناطق، وتلك الحقيقة عامة لأشخاص النوع، ولا تكون في الوجود تلك الحقيقة لا خاصة ولا عامة إلا مع لواحق غريبة<sup>(١)</sup>، فإن الإنسان لو كان عاماً لما كان زيد الخاص إنساناً، ولو كان خاصاً بأن يكون زيد هو الإنسان لكونه زيداً لما كان عمرو إنساناً لأن الشيء إذا كان لذاته ما وجد لغيره.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن مراتب المدركات مختلفة في التجريد عن هذه الغواشي واللواحق، وهو على أربع مراتب:

الأولى: إنما هي الحس فإنه يجرد نوعاً من التجريد، إذ لا تحل في الحاس تلك الصورة بل مثال منها، إلا أن ذلك المثال إنما يكون إذا كان الخارج على قدر مخصوص وبُعدٍ مخصوص ويناله مع تلك الهيئة والوضع، فلو غاب عنه أو وقع له حجاب لا يدركه<sup>(٢)</sup>.

المرتبة الثانية: إدراك الخيال؛ وتجريده أتم قليلاً وأبلغ تحصيلاً، فإنه لا يحتاج إلى المشاهدة بل يدرك مع الغيبوبة، إلا أنه يدرك مع تلك اللواحق والغواشي من الكم والكيف وغير ذلك<sup>(٣)</sup>.

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن بعض المذاهب الفلسفية ترى أن للمفاهيم الكلية وجوداً حقيقياً قائماً بذاته، مثل المذهب الأفلاطوني الذي يرى أن للإنسان مثلاً كمفهوم له وجود حقيقي مفارق، وكذلك مفاهيم الحب والخير والجمال... الخ فكلها عند أفلاطون لها وجود حقيقي وما عداها صور مزيفة عن هذه الوجودات الحقيقية. وهو ما يسمى بنظرية المثل الأفلاطونية. وقد ظهر في أوروبا في العصور الوسطى المذهب الاسمي القائل بوجود حقيقي لهذه المفاهيم مقابل المذهب العقلي القائل بأن هذه المفاهيم لا وجود لها إلا في العقل.

(٢) المرتبة الأولى: إدراك الشيء ما دام قائماً أمام الحاسة.

(٣) المرتبة الثانية: إدراك الشيء بعد غيابه عن الحس، ولكن يدركه كما أدركه عند إحساسه به

المرتبة الثالثة: إدراك الوهم؛ وتجريده أتم وأكمل مما سبق، فإنه يدرك المعنى المجرد عن اللواحق وغواشي الأجسام كالعداوة والمحبة والمخالفة والموافقة، إلا أنه لا يدرك عداوة كلية ومحبة كلية بل يدرك عداوة جزئية بأن يعلم أن هذا الذئب عدو مهروب عنه، وأن هذا الولد صديق معطوف عليه<sup>(١)</sup>.

المرتبة الرابعة: إدراك العقل؛ وذلك هو التجريد الكامل عن كل غاشية وجميع لواحق الأجسام، بل جناب إدراكه منزّه عن أن يحوم به لواحق الأجسام من القدر والكيف وجميع الأعراض الجسمية، ويدرك معنى كلياً لا يختلف بالأشخاص، فسواء عنده وجود الأشخاص وعدمها، وسواسية لديه القرب والبعد، بل ينفذ في أجزاء الملك والملكوت وينزع الحقائق منها ويجردها عمّا ليس منها؛ هذا إن كان يحتاج المدرك إلى تجريد، فإن كان منزهاً عن لواحق الأجسام مبرأً عن صفاتها فقد كفي المؤونة فلا يحتاج إلى أن يفعل به فعلاً بل يدركه كما هو<sup>(٢)</sup>.

## سؤالات وانفصالات تحتها نفائس من العلوم

**الأول:** فإن قيل قد قلتم فيما سبق إن النفس قد يكون له استعداد محض بالنسبة إلى المعقول، وقد قلتم إن كل مجرد عن لواحق المواد فهو عقل بالفعل فما أرى هذا إلا تناقضاً، فإن كان النفس مجرداً فهو عقل بالفعل وإن لم يكن مجرداً فليس بعقل.

= وهو قائم أمامه، أي دون أن يجرده عن ملحقاته وأعراضه كالكم والكيف والوضع... الخ.

(١) المرتبة الثالثة: إدراك المعنى المرتبط ببعض الموجودات، وهو نوع من الإدراك الغريزي الذي ليس من الضروري أن يرتبط بتجربة سابقة أو اكتساب. فالنعجة مثلاً تدرك أن الذئب عدو لها دون أن تكون قد اختبرت سابقاً أذيته أو عداوته.

(٢) هذه المرتبة الرابعة هي خاصة بالإنسان وحده؛ وهي إدراك المعاني الكلية دون ارتباطها بعوارضها، كالحق والواجب والخير والجمال... الخ.

فإن قلتم إنه عقل بالفعل وإنما لا يدرك المعقول لاشتغاله بالبدن فكيف كان يكون البدن تابعاً له خادماً في كثير من الأشياء ؟ وكيف يكون معيناً له على التردد في ترتيب المقدمات واستنتاج النتائج من الفكر الخالية ؟ وكيف يكون تابعاً عائقاً ؟

قلنا : ليس كل مجرد كيفما كان هو عقل بالفعل ، أي تكون المعقولات حاصلة له دفعة ، بل المجرد التام هو الذي لا تكون المادة سبباً لحدوثه بوجه من الوجوه ولا سبباً لهيئة من هيئاته ولا لتشخصه ؛ وقولك كيف يكون تابعاً وعائقاً ؟ هذا غير مستبعد ، فقد يكون الشيء ممكناً من شيء وعائقاً عنه ، فالبدن قد يعين النفس في كثير من الأشياء على ما سيتلى عليك ، وقد يكون عائقاً عن كثير من الأشياء وذلك إذا أكبّت على الشهوات ومقتضى صفات البدن واشتغلت بالحواس الظاهرة والباطنة .

**الثاني :** فإن قيل قد قيل إن النفس إذا حصلت فيها الصورة المعقولة لا يبطل استعدادها ؛ ومعلوم أن الاستعداد مع حصول الصورة بالفعل لا يجتمعان <sup>(١)</sup> .

قلنا : هذانوع مغالطة وعماية ، فإن الاستعداد إنما يكون بالنسبة إلى ما لم يحصل لا بالنسبة إلى ما حصل ، وما يحصل لنا من المعقولات غير متناه ولا يحصل دفعة ما دامت النفس مشغولة بالبدن أو بما صحبها من عوارض البدن ، بل إنما يحصل بقدر ما يكتسب وبقدر ما يفيض عليها من هداية الله وأنوار رحمته .

نعم قد تكون النفس في الاستفاضة والاستعداد مختلفة ، فنفس كأنه زيت يضيء ولو لم تمسه نار فتطّلع على جلاليات من المعقولات غير محصورة دفعة واحدة فيكون الفيض به متواصلاً متوالياً غير مفقود ، وأخرى لو تفكر كثيراً لا

---

(١) أي أن الوجود بالقوة يسبق الوجود بالفعل ، ولا يمكن أن يكون الشيء نفسه موجوداً بالقوة وبالفعل في نفس الوقت .

يرجع الفكر عليه برادة، وأخرى متوسطة بينهما وفي تلك الأوساط تفاوت وأعداد ومراتب لا تحصى، وفيها يتفاوت الناس رفعة ودرجة وعزاً وذكرأً وقرباً من الله تعالى .

**الثالث:** فإن قيل معلوم أن النفس إنما تطلع على المعقولات بواسطة ملك يسمى عقلاً<sup>(١)</sup> يفيض منه المعقولات على النفس البشرية، وهي إنما تتصل به بواسطة مطالعة الصور في الخيال، أعني الفكر والنظر وترتيب المقدمات بعضها على بعض، وهذا إنما يكون إذا كان الجسم والخيال باقياً، فإذا تعطل الخيال بالموت فكيف تتصل به حتى يفيض عليه حقائق المعقولات؟ وقد قلتم إن البدن عائق فإذا فارق البدن يطلع على المعقولات ويتصل به دوام الفيض فكيف يكون هذا؟

قلنا: اعلم أن النفوس مختلفة: فنفس مشرق صاف عن الكدورات، يتلأأً فيه أنوار العلوم، مؤيد من عند الله، ثاقب الحدس، ذكي الذهن، لا يحتاج إلى الفكر والنظر، بل يفيض عليه من أنوار العلوم بواسطة الملاء الأعلى ما يشاء من المعقولات مع براهينها، بل ولو لم يشأ حتى كأنه من كثرة ما يستولي عليه من المعقولات يشرق على خياله وحسه؛ فهذا النقش من المعقول يأتي المحسوس والمخيل فيحاكيه بما يناسبه من الأمثلة فيخبر عنه، فهذا في جلايب البدن كأنه قد نضاها واتصل بعالم القدس، فسواء عنده مفارقة البدن وملابسته فإنه يستعمل البدن لا البدن يستعمله، وينتفع به البدن لا هو ينتفع بالبدن، ويخرج العقول إلى الفعل لا أنه يخرج إلى الفعل، فهذا هو العقل القدسي النبوي .

ونفس أخرى إنما تصل إلى العلوم وحقائق المعقولات بواسطة البدن وقواه واكتسابه العلوم بواسطة المقدمات الخيالية، ولكن هذا إنما يكون ما دام ملابساً للبدن، فإذا فارق البدن وكان مستقلاً مستوثقاً، وكان قد حصل له استعداد

(١) وهو العقل الفعال المفارق الذي أشار إليه قبل صفحات.



بالغ وزينته قد صُفِّي ونفسه قد هذب، فإذا فارق اتصل ولا يحتاج إلى الخيال والفكر، بل يكون عائقاً، وكثيراً ما يصير المعين عائقاً إذا استغني عنه. وتفاوت هذا الصنف الوسط من النفوس كثير وفيه تنفاوت السعادة والرفعة والقربة من الله تعالى.

ونفس تكون متشبثة بالإقناعات الواهية والخيالات المتداعية، فإذا فارقت البدن تكون الخيالات متشبثة بها، فإما أن يبقى فيها أو يتخلص بعد حين.

**الرابع:** فإن قيل قد قيل إن النفس قد تطالع الصور الخيالية وهي في أجسام، والنفس مفارقة لا تحاذي الأجسام ولا توازيها فكيف يكون هذا؟

قلنا: هذا إنما يشكل أن لو كان يأخذها خيالية جسمانية أما إذا كان يأخذها مجردة فليس فيه إشكال؛ وقولك بأنها مفارقة والصور جسمانية هذا صحيح، ولكن معلوم أن بين النفس والبدن علاقة معقولة يتأثر أحدهما عن الآخر، ولهذا إذا تذكر النفس جانب القدس اقشعر البدن ويقف شعره، وكذلك النفس تتأثر عن مقتضيات البدن من الغضب والشهوة والحس وغير ذلك؛ فالنفس مهما طالعت الصور الخيالية على الوجه الذي يليق بها فإنه يتأثر عنها، وإذا تأثر عنها استعد لأن يفيض عليه المطلوب رحمة من الله ولطفاً به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات. ألا فتعرضوا لها» فينبغي أن تكون النفس متعرضة لنفحات فضل الله حتى يفيض عليها، إذ ليس في وجود الحق بخل وليس بيدنا تحصيل المعقولات بل التعرض لتلك النفحات؛ ثم استعداد التعرض أيضاً موهبة إلهية لا تنال بيد الاكتساب.

**الخامس:** فإن قيل معلوم أن النفس تعقل المعقولات مترتبة مفصلة، وقد قيل إن ما يعقل المعقولات المترتبة المفصلة فليس ببسيط واحد من كل وجه، وقد ثبت أن ما يدرك المعقولات كيفها كان يكون مجرداً لا تقدير للانقسام فيه فالنفس إما أن تكون صورة مادية فتكون جسمانية فينبغي أن لا تدرك

المعقولات، أو تكون مجرداً مفارقاً فيكون إدراكها لا على الترتيب والتفصيل، وليس بين الحالتين مرتبة أخرى.

قلنا: صدقت فيما قلت النفس تدرك المعقولات مفصلة ومرتبة، وما يدرك المعقولات مفصلة مرتبة فليس له وحدة صرفة وتجريد محض، إذ هو بالنسبة إلى بعض المعقولات بالقوة، ففيه ما بالقوة وفيه ما بالفعل<sup>(١)</sup>، فالواحد الحق هو الله سبحانه، فلا جرم ليس له شيء منتظر لا ذاته ولا صفاته، ويكون التركيب منفياً عنه من كل وجه قولاً وعقلاً وقدرًا، وما سواه فلا يخلو عن تركيب ما وإن كان من حيث العقل لا تركيباً جسمانياً أو متوهمًا، حتى أن العقل الذي هو المبدع الأول لا يكون واحداً صرفاً بل فيه اعتباران ولهذا صدر منه أكثر من الواحد.

**السادس:** فإن قيل إذا حصلت الصورة المعقولة للنفس استحضرت النفس تلك الصورة، فهل تحتاج إلى إدراك آخر أنها أدركت أو حصلت الصورة المعقولة المجردة؟ قلنا: لا بل نفس الإدراك إنما هو حصول الصورة مجردة للنفس، فإن حصلت فقد أدركتها وإلا فيعد غير مدرك، ولا واسطة بينهما، ولا يحتاج إلى إدراك آخر فإنه يتسلسل.

**السابع:** فإن قيل النفس في تحصيل المعقولات تفزع إلى القوة المفكرة فتستعملها في ترتيب المقدمات واستنتاج المطالب وهذا إنما يكون في اليقظة إذا أقبلت عليها، وفي النوم تتعطل المخيلة وكذا بعد الموت فكيف يحصل بعد ذلك المعقول؟

قلنا: أولاً غير مسلم أن القوة المفكرة تبطل في النوم وأن النفس تتعطل عن

---

(١) أي أن النفس فيها ما هو استعداد لتقبل بعض المعقولات فهي حينئذ موجودة بالقوة. وفيها من المعقولات ما حصل بالفعل. والثيء قد يكون في الأساس بالقوة وفي مرحلة تالية يحصل بالفعل، أو يكون شيء ما موجود بالقوة وإلى جانبه شيء آخر موجود بالفعل.

ذلك، بل كثيراً ما تستولي النفس على المتخيلة إذا كانت خالية عن شواغل الحواس فتغصبها وتستعملها في مطالبتها، ولهذا ينكشف كثير من المعقولات في النوم.

نعم الغالب أن المتخيلة تستولي في النوم ولا تطيع النفس، وتجدد الحس المشترك خالياً فتتنقش فيه الصورة، ولهذا يحتاج أكثر الرؤيا إلى التعبير. ثم النفس قد لا تحتاج في المعقول إلى المفكرة، بل يكون قويّ الحدس زاكي النفس فيحصل له المعقولات ابتداءً، فإن لم تحصل ابتداءً فعقب شوق إلى تحصيل معقول، فيفيض عليه المعقولات، فإن عجز عن ذلك ولا يكون له القوة الحدسية القدسية فحينئذ تفرع إلى الفكر واستعمال التخيل في استنباط المعقول.

**الثامن:** فإن قيل قد سلف أن النفس تدرك المعاني الكلية المجردة وتدرک نفسها وهي جزئية فكيف يكون هذا؟

قلنا: تدرك المجردات عن لواحق الأجسام وعوارض المواد سواء كان كلياً أو جزئياً. ونفسك وإن كان جزئياً ولكن هو مجرد عن صفات الأجسام فتشعر بنفسك. إنما لا تدرك نفسك الأجسام إلا بآلة جسمانية؛ أما نفسك فليست بجسمانية، وإدراك نفسك لنفسك ليس إلا حصول حقيقتها لها، فإن حقيقتها المجردة حاصلة لها، وليس ذلك مرتين، فإن حقيقتها واحدة ليست مرتين؛ وقد بينا أنه لا معنى للمعقول إلا حصول مجرد للعاقل، وليس كل معقول يحصل لشيء كيف كان يكون معقولاً، بل مع شرط زائد وهو أن يكون مجرداً، ولا نعني بقولنا حقيقتنا حاصلة لنا بالوجود فإن الوجود يكون لكل شيء.

ومن هذا تتنبه لسر عظيم وهو أن الحقيقة التي لنا لا يشاركنا فيها غيرنا من الحيوانات، فإن حقيقتنا المجردة غير حاصلة لها، ولا نعني أيضاً أن أصل حقيقتنا بالقياس إلى نفسه أنه موجود الوجود الذي له، ثم بالقياس إلى نفسه أنه

معقول بزيادة أمر، فإن حقيقة النفس لا يعرض لها مرة شيء ومرة ليس ذلك الشيء وهي واحدة في وقت واحد، فليس لكونها معقولة زيادة شرط على كونها موجودة الوجود الذي لها، بل زيادة شرط على الوجود مطلقاً وهو أن وجودها وماهيتها أنها معقولة حاصلة لها في نفسها ليس لغيرها.

وهذا أجل ما أعرفه في هذه الفصول والبيانات ولا يحتاج إلى تصور ورسوخ في النفس، فإن الأمور التصديقية لا يمكن أن يخبر عنها ما لم تتصور في النفس ولم ترسخ، فإذا تمكنت النفس من التصور سارعت إلى التصديق.

وينبغي على هذا الفصل معرفة جميع الصفات الإلهية؛ لأن صفاته كلها اعتبارات وإضافات وسلوب<sup>(١)</sup> وليست زائدة على الذات ولا توجب كثرة في الذات.

التاسع: فإن قيل إن كان التعقل هو أن يحصل للعقل حقيقة المعقول، فإذا يحصل لنا إذا عقلنا الإله والعقول بصور حقائقها. فلكل إذا منها حقيقتان فلم لا يجوز أن يحصل لذواتنا أيضاً حقيقتان وهناك يجوز؟

قلنا إذا أمكننا أن نعقل المفارقات بصور حقائقها في نفوسنا فيكون لها حقيقتان: حقائق في أنفسها لأنفسها وهي بها مفارقة، وحقائق متصورة فينا فهي لنا وهي أعراض وأمثلة لتلك الحقائق، فإن العلوم بالجواهر لا تكون جواهر بل تكون في الأذهان عوارض وفي أنفسها جواهر؛ ثم إنا نشعر بذواتنا وليس شعورنا بها إلا حصول حقيقتنا لنا من غير واسطة وإلا فيحصل دور: وذلك أنا إذا قلنا تعقلنا ذاتنا وأردنا بها إدراكاً ومثالاً غير حصول الحقيقة، فإنما يكون تعقلاً أن لو حصل حقيقته لنا، وإنما تحصل الحقيقة أن لو

(١) أي تعريفات سلبية. ويكون ذلك بأن نعرف الصفات الإلهية كأن نقول مثلاً: الله قادر لا كالقدرة البشرية التي نعرفها، وعالم لا كعلم البشر الذي نعرفه. فنحن نصفه تعالى بالقدرة والعلم وما أشبه ذلك لا تشبيهاً بالعلم والقدرة البشريين بل لسلب ونفي مشابهة علمه وقدرته تعالى بما نتعارف عليه من معنى العلم والقدرة لدى البشر.

تعقلنا، وليس يتعلق الكلام بالتعقل أو الشعور بل بكل إدراك كان، فإنه ملاحظة لحقيقة الشيء لا من حيث هي خارجة، ولو كانت المدركات هي الخارجة لم تكن الأمور المدومة معقولة بل هي فينا، وليست الملاحظة وجوداً لها ثانياً بل نفس انتقاشها فينا وإلا تسلسل إلى غير النهاية. إلا أنا على سبيل التوسع نقول: نلاحظ حقائقها تشبهاً بالمحسوسات على مجرى العادة، وعند التحقيق المحسوسات أيضاً ملاحظتها حصول حقائقها التي هي بها محسوسة لنا حتى تصبح الخارجة بها ملاحظة.

**العاشر :** فإن قال قائل: أحسب أنا نعقل ذواتنا ولكن لم يتبين بعد أنه هل يجوز أن نعقل بآلة جسمانية أم لا ؟ وهل القوة العقلية في جسم أم لا ؟ فلم لا يجوز أن تحصل القوة العقلية في الجسم فتشعر بها القوة الوهمية، كما أن القوة العاقلة تشعر بالقوة الوهمية فلا تكون ذات القوة العقلية حاصلة لذاتها بل لغيرها، كما أن القوة الوهمية ليست حاصلة لذاتها بل مثلاً للقوة العقلية ؟

قلنا: فينا أولاً قوة ندرك بها المعاني الكلية وأخرى بها ندرك الجزئيات، والقوة التي ندرك بها الكلي تدرك بما يدرك به الكلي، وذلك سمّه ما شئت لكنا نسميه القوة العقلية، ولا يخلو إما أن يعتبر الشعور أو الإدراك العقلي: أما الإدراك العقلي فقد عرف ما يوجبه، وأما الشعور فأنت إنما تشعر بهوتك بذاتك لا ببعض قواك، إذ لو شعرت ذاتك ببعض قواك كحس أو تخيل أو توهم لم يكن المشعور هو الشاعر، وأنت مع شعورك بذاتك تشعر أنك إنما تشعر بنفسك، فأنت الشاعر وأنت المشعور.

ثم إن كان الشاعر بنفسك قوة غير ذاتك فلا يخلو إما أن تكون قائمة في نفسك أو في الجسم، فإن كانت قائمة في نفسك فيكون وجود نفسك لقوة نفسك فيرجع على نفسها مع القوة ولا يكون لغيرها؛ وإن كانت تلك القوة قائمة في جسم ونفسك غير قائمة في ذلك الجسم فيكون الشاعر ذلك الجسم بتلك

القوة لشيء مفارق، ولا يكون هناك شعور بذاتك بوجه ولا إدراك لذاتك بخصوصيتها، بل يكون جسم ما يحس بشيء غيره كما تحس بيدك. على أن إدراك القوة الجسمانية الجوهر المفارق محال، وإن كانت نفسك بتلك القوة قائمة في ذلك الجسم، فقد بينا استحالة ذلك فإنه يلزم أن تكون النفس وقوتها وجودها لغيرها، فلا تكون النفس بتلك القوة تدرك ذاتها ولا ذلك الجسم؛ لأن ماهية القوة والنفس معاً لغيرها وهو ذلك الجسم؛ وإن كان جوهر النفس هو القوة التي بها يدرك فليسا يفترقان.

**الحادي عشر:** فإن قيل وما يدرينا أن شعورنا بذاتنا هو تعقلنا له؟ فعسى هو أن يكون لها إدراك آخر، لا يقتضي ذلك الإدراك أن تكون حقيقة ذاتنا حاصلة لنا، بل هو أثر على وجه ما حصل لنا من ذاتنا، فلا يكون ذلك الأثر هو بعينه حقيقة الذات، فلا يمتنع أن يكون لنا حقيقة وجود يحصل منها لنا أثر فيشعر بذلك، فلا يكون الأثر هو الحقيقة، فلا يكون قد حصل لنا ذاتنا لذاتنا.

قلنا: من لا يتصور حقيقة ماهيته فليس يعقل ماهيته، وليس الإدراك إلا تحقق حقيقة الشيء من حيث يدرك وهو معنى الشيء بالقياس إلى لفظه.

وقوله «يحصل لنا أثر فنشعر بذلك الأثر» فلا يخلو إما أن يجعل الشعور نفس حصول الأثر أو شيئاً يتبع حصول الأثر، فإن كان نفس حصول الأثر فقول «فنشعر بذلك الأثر» لا معنى له بل هو اسم آخر وقول آخر مرادف له؛ فإن كان الشعور شيئاً يتبعه فإما أن يكون حصول معنى ماهية الشيء أو غيره، فإن كان غيره فيكون الشعور هو تحصيل ما ليس ماهية الشيء ومعناه، وإن كان هو فتكون ماهية الذات تحتاج في أن يحصل لها ماهية الذات إلى أثر آخر به تحصل ماهية الذات يحصلها أثر فليست متأثرة بل متكونة، وإن كانت ماهية الذات تحصل ثانياً بحال آخر من التجريد أو نزع بعض ما يقارنها من العوارض أو زيادة

تضاف إليها، فيكون المعقول هو الذي بحال أخرى؛ وكلامنا في نفس الماهية وجوهرها الثابت في الحالين.

**الثاني عشر:** فإن قال قائل: قد ذكرتم أن المانع عن التعقل هو المادة والاشتغال بالبدن، فما الدليل على أن المانع هو المادة وأنه محصور فيها؟

قلنا: من علم الذات العاقلة حقيقة علم أن المانع هو المادة، وذلك لأن الذات التي تتجلى فيها حقائق الأشياء هو الجوهر المجرد عن غواشي الأجسام وليس فيه ما يكون بالقوة، وكل جوهر هذا حقيقته فإنه يتأثر ولا ينفع عن الغواشي<sup>(١)</sup> الغريبة، فإن تأثر عن غاش غريب فيكون بسبب المادة لأن المادة هي التي تُغشى لها غرائب وعوارض، فإذا كل ما يكون عقلاً فإنه متحقق الذات مجرد من المواد ولا ينفع ولا يتأثر ولا يكون ما فيه بالقوة وكل ما يكون له يكون دفعة واحدة.

**الثالث عشر:** فإن قيل ما ذكرتموه هدم لقاعدة عظيمة، فإن مساق هذا الكلام يقتضي أن يكون نفسنا جوهرًا ماديًا. فإنه معلوم أنه يقبل المعقولات شيئاً فشيئاً ويتأثر وينفع عن الغواشي الغريبة، فلو لم يكن جوهرًا ماديًا فينبغي أن لا يتأثر ويحصل له المعقولات دفعة، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك.

قلنا: غَفَلْت عن دققة؛ فإننا قلنا كل ما يكون عقلاً يكون متحقق الذات ولا ينفع، وهذا موجبة كلية<sup>(٢)</sup> فعكسها يكون موجبة جزئية، وهو أن بعض ما يكون متحقق الذات ولا ينفع يكون عقلاً؛ ولا يلزم أن نفسنا تكون جوهرًا متحقق الذات بريئًا<sup>(٣)</sup> عن لواحق المادة وعن صفات الأجسام.

(١) الغواشي: الطواريء.

(٢) أي قضية موجبة كلية. وتنقسم القضايا المنطقية إلى أربعة أقسام:

١ - قضية موجبة كلية، ٢ - قضية موجبة جزئية، ٣ - قضية سالبة كلية، ٤ - قضية سالبة جزئية.

(٣) بريئاً.

نعم إنما يقبل المعقولات شيئاً فشيئاً بسبب أنه يحتاج في كثير من المعقولات في أكثر النخوس إلى الاستعانة بالبدن، ولا يطاوعه البدن ولا يشايعه في مقصوده، فتنبتر عليه مقاصده ومطالبه، وإن طاوعه في لمحة فيكون كبرق خاطف فيعقبه ما يشوش عليه فكره وينغص وقته. فنسأل الله التأييد والتسديد والرشاد إلى سواء السبيل.

**الرابع عشر:** فإن قيل قد قلتم إن ذاتك إذا كانت حاصلة لك فهي معقولة لك، ودليله أن الذات إما أن تكون حاصلة لغيرك أو ليس لغيرك، فإن لم تكن حاصلة لغيرك فتكون حاصلة لك وما يدرينا فلعلها حاصلة لا لغيره ولا لذاته.

قلنا: هذا روم درجة بين النفي والإثبات ولا واسطة، ثم لو لم تكن ذاتك لك لما قلت ذاتي ونفسي؛ لأنه لو كان لغيرك لما قبل هذه الإضافة. ثم التحقيق فيه وهو سر عظيم وفتح باب من خزائن العلوم هو أن كل شيء حقيقته الصرفة لا توجد متعينة بلا لوازم تتعين بها، فهو من حيث حقيقته شيء، ومن حيث إنه ملزوم لوازم شيء؛ وبالجمله إذا أخذت الحقيقة مع اللوازم شيء، وهو إنما يتعين لا بأنه حقيقة بل من حيث إنه ملزوم لوازم، فبتلك اللوازم يتعين، فإذا تكون حقيقة الذات في نفسها لا بشرط آخر شيء، ومن حيث هو متعين شيء، فتكون هناك غيرية تقبل الإضافة والنسبة والله المرشد.

**الخامس عشر:** فإن قيل قد ذكرتم أن للنفس ملكة بها تتمكن من تحصيل المعقولات، فهذه الملكة التي بها تستحصل الصور المعقولة إن كانت قوة طارئة على النفس فالنفس مركبة، وقد أقمتم البرهان على أنه واحد ليس بمركب؛ ثم لا يصح البرهان بعد ذلك على أنها لا تفسد بالموت؛ وإن لم تكن قوة طارئة عليها بل استكمالاً فتكون من حيث تؤثر وتتأثر ومن حيث تفعل وتفعل، ثم ما البرهان



على أنها ليست قوة طارئة وأنها استكمال وكيف حل هذا السؤال إن كان استكمالاً؟

قلنا : اعلم أن النفس في ذاتها جوهر ليس بمركب : الذات إذا أخذ مع تلك الملكة الحاصلة ، والاستكمال إنما يكون من خارج ، فليس هو من حيث يؤثر يتأثر ، ولا من حيث يفعل ينفع ، وكأن هذا الاستكمال يفعل في جوهر النفس صوراً ؛ فهو من حيث إنه يتصور بها النفس استكمال ، ومن حيث إنه يتمكن بها من الاطلاع على صور أخرى معقولة قوة ، ومن حيث هي لازمة لا مقومة ولا طارئة .

**السادس عشر :** فإن قيل قد أثبت بالبرهان أن النفس من المفارقات ، فكيف تنتفع بالبدن وما فيه من الحسن والخيال ؟ وكيف تكتسب العلوم بواسطة قوة التخيل وتحصل الفضائل وتكتسب الرذائل بواسطة القوى البدنية ؟ وكيف تؤثر الطاعات والمواظبة على العبادة في التنوير والتصفية ؟ وكيف تؤثر المعاصي والانهاك في الشهوات حتى يرتقي منها ظلمات إلى النفس فيبطل بها الاستعداد الفطري <sup>(١)</sup> ؟ .

قلنا : هذا سؤال شريف والانفصال عنه أشرف منه ، وإعطاء البرهان في ذلك مشكل ، وإنما الطريق فيه الوجدان والعرفان يقيناً ؛ والنفس خلقت بالفطرة مستعدة للعلوم ، والعلوم تحصل فيها بالتدريج ، فلا بد من استعمال الفكر والخيال كما قدمنا وكما نذكر بعد ذلك من انتفاع النفس بالقوى .

أما تأثير الطاعات والمعاصي في التنوير والإظلام فذلك لأن سعادة النفس وكمال جوهرها أن تكون مولية وجهها شطر الحق ، معرضة عن الخواص ، منخرطة في سلك القدس ، مستديمة لشروق نور الحق في سرها ، فكل ما يكون

(١) فحوى السؤال عن كيفية الصلة والعلاقة بين ما هو جوهر مفارق وما هو جسدي مادي .

مانعاً من ذلك يكون حاطاً لها عن درجتها ؛ وتقدر بقدر ما تُعرض عن حضرة الجلال والالتفات إلى جانب القدس باتباع الشهوات تعرض عنها الأنوار الإلهية<sup>(١)</sup> ، وكلما كانت أدرب بالمعقولات كانت إلى السعادة أقرب : فالنفس لها قرب وبعد ، فقربها بقدر العلوم وتحصيل الفضائل ، وبعدها بالجهل وتحصيل الرذائل .

وهذا يتبين سرّ أنوار اتباع رسول الله ﷺ في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله ، فإن له خاصية عظيمة في تنوير القلب إنما يتجلى فيه جلالي الحقائق بأن يكون معدلاً مصقلاً منوراً ، وتصقيله بالتوجه إلى جناب القدس وبالإعراض عن مقتضى الشهوات ، وتعديله بالأخلاق الحسنة الموافقة للسنة ، وتنويره بالذكر ووظائف العبادات ، ولا دليل أقوى في هذا من التجربة والوجدان ، فكل من ليس له سبيل إليه بالعرفان ولا بالوجدان فينبغي أن يصدق به فإنه درجة الإيمان والله الموفق .

## ذكر منشأ الفضائل والرذائل

اعلم أن أكثر الفضائل والرذائل إنما تنشأ من ثلاث قوى في الإنسان : قوة التخيّل وقوة الشهوة وقوة الغضب ، فهذه الثلاثة مُعينات للنفس ومبطلات .

### زيادة تبصرة

أما القوة المتخيلة فهي ذات وجهين : أحدهما يلي جانب الحس ويقبل منه الصور المحسوسة كما يؤدي إليها (الحسّ حقيقة أو مجازاً) .

أما الحقيقة فالصورة التي هي في نفسها كذلك ، وأما المجاز فكالصورة التي ليست في نفسها كذلك لكنها تُرى كذلك مثل السراب والصدى والمتحرك

---

(١) لعلها : وبقدر ما تعرض عن حضرة الجلال ..... تعرض عنها الأنوار الإلهية .

الذي هو ساكن وكالساكن الذي هو متحرك ؛ والخيال يتخيلها كذلك .  
والوجه الثاني يلي جانب العقل ويقبل به الصورة المعقولة كما يؤدي إليه الفكر  
العقلي حقاً وباطلاً .

أما الحق فكالصورة التي هي في نفسها كذلك ، وأما الباطل فكالصورة التي  
ليست في نفسها كذلك لكنها ترى كذلك كالشبهات والضلالات والسحر  
والكهانة ، فإن الأذهان كثيراً ما تزيع عن الجادة فترى الخطأ صواباً والصواب  
خطأ ، ولهذا قيل : « أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه » والتدبير أن لا يعتمد عليها ما لم  
يزنها بالقوانين المنطقية والبراهين اللائحة . ثم قد تقع الصور في التخيل دفعة واحدة  
كالمرآة المقابلة للمرآة تقع الصورة في إحداها كما تقع في الثانية دفعة واحدة ،  
وذلك إذا كانت الصورة وقعت في البصر الحاس أولاً . أما المسموعات بالسمع  
فتقع فيه على ترتيب وتدرج على حسب تعاقب الحروف والكلمات .

وأما من جانب العقل فالمعقولات قد تقع فيه دفعة واحدة كالمرآة المتقابلة ،  
وذلك لأن العلوم منتقشة في ذوات النفوس السماوية فإذا اتصلت به النفس  
الإنسانية تقع منها فيها الصور بقدر جلائها واستعدادها - وسيأتي شرح هذا بعد  
ذلك في النبوة والرسالة - ثم إن كان ذلك حقاً فهو وحي وإلهام وحس ؛  
والوحي هو أن يرى صورة الملك ، وفي الإلهام والحدس لا يرى وإن كان باطلاً  
فهو سحر وكهانة وعرافة ؛ وقد يقع فيه أي في النفس على ترتيب وتدرج  
بحسب المقدمات القياسية ، وذلك إن كانت يقينية فهو برهان وحجة ، وإن  
كانت مشهورة محمودة عند قوم فهو خطائي ، وإن كانت إلزامات على خصم فهو  
جدلي ، وإن كانت كاذبة ظاهرة الكذب فهو سوفسطائي ، وإن كانت مخيلة فهو  
شعري . ثم إن غلبَ على الخيال جانب الحس شبه كل معقول بحسوس ، وإن  
غلب عليه العقل شبه كل محسوس بمعقول ؛ فخيال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام  
يُرى من المحسوس المعنى المعقول ، وهو ما كان صدوره منه أو وروده عليه

ومرجعه إليه ليرى شخصاً في هذا العالم ويحكم عليه أنه تفاحة من الجنة، وشخصاً قطعت يده في سبيل الله نبت له جناحان يطير بهما في الجنة، وشخصاً قتل في سبيل الله حياً قائماً يرزق فرحاً مستبشراً بما آتاه من فضله. وعلى العكس من ذلك يرى من المعقول محسوساً ومن الروحاني جسمانياً « هذا جبريل جاءكم يعلمكم أمر دينكم »<sup>(١)</sup> ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ [ مريم : ١٧ ] ثم من قوة إشراق نور خياله ونور روحه يشرق أيضاً على من يناسبه في تلك القوة والاستعداد فيراه كما رأى النبي ﷺ . فالتخيل إذاً فيصل بين العالمين، وحاجز بين البحرين، ومفصل بين الحكمين، ولولاه لما بقي محسوس ومعقول للإنسان، ولا كانت الصورة والمعنى مدركين بمدرك الحس والبرهان .

وقوة التخيل ليست متشابهة في أصناف الناس، بل هي مرتبة متفاضلة وربما تكون متضادة: فمن ذلك ما يناسب الروحانيين من الملائكة ويكون مهبطهم إليه ونزولهم عليه وظهورهم له وتأثيرهم فيه وتمثلهم به، حتى تكلم الشخص بكلامهم وتكلموا بلسانه، ورأى الشخص بأبصارهم وأبصروا بعينه، وسمع بأسماعهم وسمعوا بأذانه، وهم ملائكة يمشون في الأرض مطمئين ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ﴾ [ فصلت : ٣٠ ] .

ومن ذلك ما يناسب الشياطين من الأبالسة ويكون مهبطهم إليه وظهورهم له وتأثيرهم فيه وتمثلهم به، حتى إذا ظهوروا عليه تكلم الشخص بكلامهم وتكلموا بلسانه، ورأى الشخص بأبصارهم وأبصروا بعينه، وسمع بأذانهم وسمعوا بأذنيه، وهم شياطين الإنس يمشون في الأرض متوهجين قل ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أنم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ [ الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ] وحيثما كانت استقامة في حال الخيال كان منزل

(١) من حديث الإسلام والإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ . رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

الملائكة . وحيثا كان اعوجاج في حال الخيال كان منزل الشياطين .

أما القوة الشهوية ففيها أيضاً مَضَرَّة ومنفعة ، وهي أصعب إصلاحاً من سائر القوى ؛ لأنها أقدم القوى وجوداً في الإنسان ، وأشدّها به تشبُّثاً ، وأكثرها منه تمكُّناً ، فإنها تولد معه وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه ، بل في النبات <sup>(١)</sup> الذي هو كجنس جنسه ؛ ثم توجد فيه قوّة الحميّة ، ثم آخرّاً توجد فيه قوّة الفكر والنطق والتمييز . ولا يصير الإنسان خارجاً من جملة البهائم وأسر الهوى إلا بإماتة الشهوات ، أو بقهرها وقمعها إن لم يمكنه إماتته إياها ، فهي التي تضربه وتغره وتعوقه وتصرفه عن طريق الآخرة وتنبّطه ؛ ومتى قمعها أو أماتها صار الإنسان حرّاً نقيّاً بل إلهيّاً ربانيّاً ، فتقلّ حاجاته ويصير غنيّاً عمّاً في يَدَيْ غيره وسخيّاً بما في يده ومحسناً في معاملاته .

وأما منفعتها فهي أن هذه الشهوة مهما أدّبت فهي المبلغة للسعادة وجوار ربّ العزة ، حتى لو تصوّرت مرتفعة لما أمكن الوصول إلى الآخرة ؛ وذلك أن الوصول إلى الآخرة بالعبادة ، ولا سبيل إلى العبادة إلا بالحياة الدنيوية ، ولا سبيل إلى الحياة الدنيوية إلا بحفظ البدن ، ولا سبيل لحفظه إلا بإعادة ما يتحلل منه ، ولا سبيل إلى إعادة ما يتحلل منه إلا بتناول الأغذية ، ولا يمكن تناول الأغذية إلا بالشهوة .

وأيضاً فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، وقوام عمارة الأرض وتزجية المعاش بهذه الشهوة ، فلو تصوّرت مرتفعة لاختلّ نظام الدّين والدنيا . وارتفعت المعاملات من بين الناس ، وارتفعت الشريعة والسياسة . فإذا هذه القوة الشهوية مثل عدوّ يخشى مضرته من وجه ويرجى منفعته من وجه ، ومع عداوته لا يستغنى عن الاستعانة به ؛ فحق العاقل أن يأخذ نفعه ولا يركن إليه ولا يعتمد عليه إلا بفدر ما ينتفع به ، وما أصدق في ذلك قول المتنبي :

(١) القوة الشهوية موجودة في النبات باعتبار أنه يفتدي وينمو ويولد المثل .

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بُدّ  
ومن نوافذ الخيل في قمع هذه الشهوة أن يتسلط بقوة الحميّة على قوة الشهوة  
حتى تنقمع ولا تميل إلى مدامّ الأخلاق وتُسْتَفْسَفها<sup>(١)</sup>، كما أن الطريق في قمع  
الغضب وسوْرته أن يتسلط بخلاصة الشهوة على القوة الغضبية حتى تُكسّر  
استشاطتها أو غلواؤها، فإنها تنقاد للمطامع وعوارض الحاجات. ومن الطريق في  
معالجة إفراط الشهوة حتى يكسرها كسراً ويزبرها زبراً مطالعة فضائل قلة  
الأكل من الأخبار والآثار، والوقوف على فوائد قلة الأكل من صفاء القلب  
واتقاد القرينة ونفاذ البصيرة، ومُواتاة الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار  
بحقائق الحق، ورقة القلب وصفائه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المناجاة والتأثير  
بالذكر، ومن الانكسار والذلّ وزوال البطر والمرح والفرح والأشر الذي هو  
مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، وأن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل  
البلاء.

ومن فوائد قلة الأكل كسر الشهوة الدّاعية إلى المعاصي والاستيلاء على النفس  
الأمّارة بالسوء، ومن فوائد قلة الأكل دفع النوم ودوام السهر وتيسر المواظبة على  
العبادة، ومن فوائدها صحة البدن ودفع الأمراض المنغصة للعيش، المانعة من  
العبادات المشوشة لقوة الفكر، ومن فوائدها خفّة المؤونة والتحلي بعزّ القناعة  
والاستغناء عن الناس الذي هو مظنة الإخلاص والعز، ومن فوائدها أن يتمكن  
من الإيثار والبذل والسماحة والتصدق على اليتامى والمساكين.

وعلى الجملة مفتاح الزهد والعفة والورع قلة الأكل وقمع الشهوة، ومفتاح  
الدنيا وباب الرغبة فيها استرسال الشهوة بموجب الطبع.

وهذه القوة الشهوية لها شعبتان: إحداها شهوة البطن، والثانية شهوة الفرج؛  
فشهوة البطن ليبقى الشخص بعينه، وشهوة الفرج ليبقى بنسله وأعقابهِ ونوعه؛

(١) السفاسف: الردي، الحقير من كل شيء وعمل. جمعها سفاسف.

ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تُضَبَّطْ ولم تُقَهَّرْ ولم تُزَمَّ بزمام التقوى ولم تُرَدَّ إلى حدة الاعتدال. ولو لم تكن هذه الشهوة لما كان للنساء سلطة على الرجال، ولما كانت النساء حباثل الشيطان. وجميع الفواحش من هذه الشهوة إذا كانت مفرطة، وجميع الفضائح منها إذا كانت خادمة مفرطة كالعنة والخنوثة. والمحمود أن تكون معتدلة ومطبعة للعقل والشرع في انبساطها وانقباضها، ومهما أفرطت فكسرها بالجوع وبالنكاح وغض البصر وقلة الاهتمام بها وشغل النفس بالعلوم واكتساب الفضائل؛ فبهذا تندفع.

أما القوة الغضبية فإنها شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع إلا أنها لا تطلع إلا على الأفئدة. وإنها المستكنة في ضمن الفؤاد استكنان النار تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين من قلب كل جبار عنيد كما يستخرج النار من الحديد. وقد انكشف لأولي الأبصار بنور اليقين أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان الرجيم اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال خلقتني من نار وخلقته من طين؛ فإن شأن الطين السكون والرقاد وقبول الآثار. وشأن النار التلظى والاشتعال والحركة والاضطراب والصعود وعدم قبول الآثار. ومن نتائج الغضب الحقد والحسد وكثير من أخلاق السوء، ومقيضها ومنشؤها مضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد.

وفي هذه القوة إفراط واستيلاء يجذب إلى المهالك والمعاطب، وفيها تفريط وخود يقصُر عن المحامد من الصبر والحلم والحمية والشجاعة. ومن الاعتدال يحصل أكثر محامد الأخلاق، من الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات والشهامة والوقار. والأسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجب والمرحُ والهزل والتعير والمهارة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق ردية مذمومة شرعاً وعقلاً، ولا خلاص عن الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة أسبابها بأضدادها حتى يقهر الغضب ويردَّ إلى حال الاعتدال؛ وهذا شأن المداواة حسّاً وعقلاً.

## بيان أمهات الفضائل

الفضائل وإن كانت كثيرة فيجمعها أربع تشمل شُعبها وأنواعها، وهي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة. فالحكمة فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة القوة الشهوية، والعدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب فيها فبها تتم جميع الأمور ولذلك قيل بالعدل قامت السموات والأرض. فلنشرح هذه الأمهات وما يتولد منها وينطوي من الأنواع تحتها.

أما الحكمة فنعني بها ما عظمها الله تعالى في قوله: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩] وما أَراده رسول الله ﷺ حيث قال: «الحكمة ضالة المؤمن» وهي منسوبة إلى القوة العقلية. وقد عرفت فيما سبق أن للنفس قوتين: إحداهما تلي جهة فوق، وهي التي بها تتلقى حقائق العلوم الكلية الضرورية والنظرية من الملأ الأعلى، وهي العلوم اليقينية الصادقة أزلاً وأبداً لا تختلف باختلاف الأعصار والأمم، كالعلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وأصناف خلقه، وتدبيره للملكه وملكوته، وأحوال الإبداء والإعادة خلقاً وأمرأً، وأحوال المعاد من السعادة والشقاوة؛ وعلى الجملة جميع حقائق العلوم. والقوة الثانية: هي التي تلي جهة تحت، أعني جهة البدن وتدبيره وسياسته، وبها تدرك النفس الخيرات في الأعمال، وتسمى العقل العملي وبها يسوس قوى نفسه ويسوس أهل منزله وأهل بلده.

واسم الحكمة لها من وجه كالمجاز؛ لأن معلوماتها كالزئبق تنقلب ولا تثبت وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ ومن معلوماتها أن بذل المال فضيلة وقد يصير رذيلة في بعض الأقوال وفي حق بعض الأشخاص، فلذلك كان اسم الحكمة بالأول أحق وإن كان بالثاني أشهر، وهذا الثاني كالكمال والتمتع للأول، وهذه هي الحكمة الخلقية، والأولى هي الحكمة العلمية النظرية. ونعني بالحكمة



الخُلُقَة حالة وفضيلة للنفس العاقلة، بها تسوس القوة الغضبية والشهوية، وتقدر حركاتها على الحد الواجب في الانقباض والانبساط، وهي العلم بصواب الأفعال. وتدبير أحوال هذا العالم مستمد من العقل النظري، فالعقل النظري يستمد من الملائكة الكليات، والعقل العملي يستمد من العقل النظري الجزئيات، ويسوس البدن بواجب الشرع؛ وهذا على مثال العقل والنفس وأجرام السماء، فإن العقل يدرك الكليات وليس فيه ما في القوة، وتدرك النفس منها الكليات، وبواسطة الكليات تدرك الجزئيات، فيحرك السموات فيتحرك من تحريكها العناصر فيتولد منها المركبات. وكذلك عقلنا يستمد من الملائكة الكليات ويفيض الكليات على العقل العملي؛ والعقل العملي بواسطة البدن وقوة التخيل يدرك جزئيات عالم البدن فيحركها بواجب الشرع فيتولد منها الأخلاق الجميلة.

وهذه الفضيلة الخلقية يكتنفها رذيلتان: الخب والبلة؛ أما الخب فهو طرف إفراطها وزيادتها، وهو حالة يكون الإنسان بها ذا مكر وحيلة بإطلاق الغضبية والشهوية لتتحركا إلى المطلوب حركة زائدة على قدر الواجب.

وأما البلة فهو طرف تفريطها ونقصانها عن الاعتدال، وهو حالة للنفس تقصر بالغضبية والشهوية عن القدر الواجب، ومنشؤه بطء الفهم وقلة الإحاطة بصواب الأفعال. ويندرج تحت فضيلة الحكمة حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وصواب الظن.

أما رذيلة الخب فيندرج تحتها الدهاء والجربزة. وأما رذيلة البلة فيندرج تحتها الغمارة والحمق والجنون.

أما الشجاعة فهي فضيلة القوة الغضبية بكونها قوية الحمية، ومع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع في إقدامها وإحجامها. وهي وسط بين رذيلتين مطيفتين بها، وهما التهور والجبن.

فالتهور لطرف الزيادة على الاعتدال، وهي الحالة التي بها يقدم الإنسان على الأمور المخطرة التي يجب في العقل الإحجام عنها.

وأما الجبن فطرف النقصان وهي الحالة التي بها تنقبض حركة القوة الغضبية عن القدر الواجب فتصرف عن الإقدام حيث الإقدام. ومهما حصلت هذه الأخلاق صدرت منها هذه الأفعال، أي يصدر من خلق الجبن الإحجام لا في محله، ومن التهور الإقدام لا في محله؛ وهما خلقان مذمومان.

ومن الشجاعة يصدر الإقدام والإحجام حيث يجب وكما يجب، وهو الخلق الحسن الم محمود، وإياه أراد بقوله تعالى: ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكَفَّارِ رَحَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فلا الشدة في كل مقام محمودة ولا الرحمة، بل الم محمود ما يوافق معيار العقل والشرع، فمتى حصل له ذلك فليتنظر فإن كان طبعه مائلاً إلى النقصان الذي هو الجبن فليتعاط أفعال الشجعان تكلفاً ومواظبة عليها حتى يصير له بالاعتیاد طبعاً وخلقاً فيفيض منه أفعال الشجعان بعد ذلك طبعاً؛ وإن كان مائلاً إلى طرف الزيادة وهو التهور فليشعر نفسه بعواقب الأمور وبِعَظَم أخطارها، وليتكلف الإحجام إلى أن يعود إلى الاعتدال أو ما يقرب منه، فإن الوقوف على حقيقة حد الاعتدال شديد، ولو تصور ذلك لارتحلت النفس عن البدن وليس معها علاقة منها، فكانت لا تتعذب أصلاً بالتأسف على ما يفوته منها، وكان يتكدر عليه ابتهاجه بما يتجلى له من جمال الحق وجلاله، ولكن لما عَسَرَ ذلك قيل: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

وقال عليه السلام: «شيبتي سورة هود وأخواتها» وأراد به قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [هود: ١١٢] فإن الامتداد على الصراط المستقيم في طلب الوسط بين هذه الأطراف شديد، وهو أدق من الشعر وأحد من السيف، كما وُصف من حال الصراط في الدار الآخرة. ومن استقام على الصراط في الدنيا

استقام عليه في الآخرة، بل يكون في الآخرة مستقيماً، إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه؛ ولذلك يجب في كل ركعة من الصلاة سورة الفاتحة المشتملة على قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦] فإنه أعزّ الأمور وأعصاها على الطالب، ولو كلف ذلك في خلق واحد لطلال العناء فيه، فكيف وقد كُلفنا ذلك في جميع الأخلاق مع خروجها عن الحصر كما سيأتي. ولا مخلص عن هذه المخاطر إلا بتوفيق الله ورحته، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم». فنسأل الله العظيم أن يمدّدنا بتوفيقه لنتجاوز الأخطار في هذه الدار ولا ننخدع بدواعي الاغترار فهذا هذا.

ثم ما يندرج تحت فضيلة الشجاعة فهو الحرّ والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات والنبل والشهامة والوقار.

أما رذيلة التهور فيندرج تحتها البذخ والجسارة والتفح والاشتياطة والتكبر والعجب.

وأما رذيلة الجبن فيندرج تحتها النذالة والنكول وصغر النفس والهلع والانفراط والتخاسُّس والمهانة.

أما العفة فهي فضيلة القوة الشهوية، وهي انقيادها على يسر وسهولة للقوة العقلية حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب إشارتها. ويكتنفها رذيلتان: الشره وخود الشهوة؛ والشره هو إفراط الشهوة إلى المبالغة في اللذات التي تستبجها القوة العقلية وتنهى عنها؛ والخمود هو قصور الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضي العقل تحصيله. وهما مذمومان، كما أن العفة التي هي الوسط محمودة؛ وعلى الإنسان أن يراقب شهوته، فالغالب عليها الإفراط لاسيما إلى الفرج والبطن، وإلى المال والرياسة وحب الثناء؛ والإفراط في ذلك نقصان، وإنما الكمال في

الاعتدال، ومعيار الاعتدال العقل والشرع، وذلك بأن يعلم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة والغضب مثلاً بأن يعلم أن شهوة الطعام إنما خلقت لتبعث على تناول الغذاء الذي يسد بدل ما يتحلل من أجزاء بدنه بالحرارة الغريزية حتى يبقى البدن حياً والحواس سليمة فيتوصل بالبدن إلى نيل العلوم ودرك حقائق الأمور ويتشبه بالطبقة العالية بالإضافة إليه وهي الملائكة وبها كمالها وسعادتها، ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوي على العبادة دون التلذذ به، فيقتصر ويقتصد به لا محالة ولا يشتد إليه شرهه.

ويعلم أن شهوة الجماع خلقت فيه لتكون باعثة له على الجماع الذي هو سبب بقاء النوع الإنساني، فيطلب النكاح للولد والتحصن لا للعب والتمتع؛ وإن تمتع ولعب كان باعثاً عليه التألف والاستمالة الباعثة على حسن الصحبة وإدامة النكاح، ويقتصر من الأنكحة على القدر الذي لا يعجز عن القيام بحقوقه. ومن عرف ذلك سهل عليه الاقتصار، وعند ذلك لا يقيس نفسه بصاحب الشرع ﷺ إذ كان لا يشغله كثرة الأنكحة عن ذكر الله تعالى، وكان لا يلزمه طلب الدنيا لأجل الزواج. ومن ظن أن ما لا يضر صاحب الشرع لا يضره كان كمن يظن أن ما لا يغير البحر الخضم من النجاسات لا يغير كوزاً مغترفاً من البحر. وممن أحق يتكاسر فيقاس نفسه به مقياس الملائكة بالحدادين فيهلك من حيث لا يدري نعوذ بالله من عمى البصيرة. هذا كله حكم العفة.

وأما ما يندرج تحت فضيلة العفة ورذيلتها، ففضائل العفة الحياء والمسامحة والتصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدمائة والانتظام والقناعة والهدو والورع والطلاقة والمساعدة وحسن الهيئة، أعني الزينة الواجبة التي لا رعونة فيها. وأما الرذائل المندرجة تحت رذيلتي<sup>(١)</sup> العفة وهما الشره وكرال الشهوة، فهي

(١) أي الرذيلتين اللتين تكتنفان العفة. فإضافة لفظ رذيلتي إلى العفة لهذه المناسبة؛ وإلا فالعفة فضيلة لا رذيلة

الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهيبة والكزازة والمجانة والعبث والتحاشي والشكاسة والملق والحسد والشماتة.

وأما العدالة فهي حالة للقوى الثلاثة في انتظامها على التناسب تحت الترتيب الواجب في الاستعلاء مع الانقياد، فليس هو جزءاً من الفضائل بل هو عبارة عن جملة الفضائل، فإنه مهما كان بين الملك وجنوده ورعيته ترتيب محمود - يكون الملك بصيراً قاهراً، وكون الجنود ذوي قوة وطاعة، وكون الرعية ضعفاء سلسي القيادة - قيل إن العدل قائم في البلد؛ ولن ينتظم العدل بأن يكون بعضهم بهذه الصفات دون كلهم؛ كذلك العدل في مملكة البدن بين هذه الصفات والعدل في أخلاق النفس يتبعه لا محالة العدل في المعاملة والسياسة، ويكون كالمتمفرع منه. ومعنى العدل الترتيب المستحسن إما في الأخلاق، وإما في حقوق المعاملات، وإما في أجزاء ما به قوام البلد. والعدل في المعاملة وسط بين رذيلتي الغبن والتغابن، وهو أن يأخذ ماله أخذه ويعطي ماله إعطاؤه، والغبن أن يأخذ ما ليس له، والتغابن أن يعطي في المعاملة ما ليس عليه حمد ولا أجر.

والعدل في السياسة أن يرتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس، حتى تكون المدينة في ائتلافها وتناسب أجزائها وتعاون أركانها على الغرض المطلوب من الاجتماع كالشخص الواحد، فيوضع كل شيء موضعه، وينقسم سكانه إلى مخدوم لا يخدم وإلى خادم ليس بمخدوم وإلى طبقة يخدمون من وجه ويخدمون من وجه، كما يكون في قوى النفس، فإن بعضها مخدوم لا يخدم كالعقل المستفاد، وبعضها خادم لا يخدم كالقوة الدافعة للفضلات، وبعضها خادم من وجه ومخدوم من وجه كالشاعر الباطنة. ولا يكتنف العدل رذيلتان بل رذيلة الجور المقابل له، إذ ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط. وبمثل هذا الترتيب والعدل قامت السموات والأرض حتى صار العالم كله كالشخص الواحد، متعاون القوى والأجزاء، مترتب التقدم والتأخر، بتقديم المقدم الحق وتأخير المؤخر الحق؛ جلت عظمته وعظمت قدرته.

وشرح ذلك الترتيب من الروحاني المطلق والجسماني المطلق، وما بين الروحاني والجسماني، وتقسيم العالم إلى مؤثر لا يتأثر كالعقول، وإلى متأثر لا يؤثر كالأجسام، وإلى متأثر مؤثر كالنفوس، فإنها تقبل من العقول وتوصل إلى السموات، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم جل جلاله وعظم برهانه وتم سلطانه. فالعدالة جامعة لجميع الفضائل والجور المقابل لها جامع لجميع الرذائل. والله وليّ التوفيق إلى الصراط المستقيم الذي هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، حتى إذا حصل ذلك كله كمالاً يقربه إلى الله تعالى تقريباً بالرتبة بحسب قرب الملائكة المقربين من الله. فله البهاء الأعظم والكمال الأتم، وكل موجود فمشتاق إلى الكمال الممكن له وهو غايته المطلوبة، فإن ناله التحق بأفق العالم الذي هو فوقه، وإن حرم منه طرح إلى الخسيف الذي تحته. فالإنسان بين أن ينال الكمال فيلتحق في القرب من الله بأفق الملائكة وذلك سعاده، أو يقبل على ما هو مشترك بينه وبين البهائم من رذائل الشهوة والغضب فينحط إلى درجة البهائم ويهلك هلاكاً مؤبداً وهو شقاوته؛ أعادنا الله منها بفضلته.

### بيان مثال القلب بالإضافة إلى العلوم

اعلم أن مثال القلب الذي هو عبارة عن الروح المدبر لجميع الجوارح، المخدم من جميع القوى والأعضاء بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلون، فكما أن للمتلون صورة ومثلاً لتلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل فيها، فكذلك لكل معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورته فتنطبع في المرآة أعني مرآة القلب، فتتضح فيه؛ وكما أن المرآة غير صورة الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير في ثلاثة أمور، ويحتاج إلى أمر رابع وهو نور بواسطته تنكشف الصورة في المرآة وتظهر فكذلك ههنا أربعة أمور: القلب وحقائق الأشياء، وحصول نقش الحقائق في القلب وحضوره فيه، ونور به تنكشف الحقائق في القلب وهو في الشرع عبارة عن جبريل عليه السلام، وفي

عبارة الحكماء عبارة عن العقل بواسطته تفيض العلوم على الأرواح البشرية. فالعالم عبارة عن القلب الذي يحل فيه مثال حقائق الأشياء، والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة، والنار والشعاع عبارة عن الملك الموكل بإفاضة العلوم على القلوب البشرية. وكما أن المرآة لا تنكشف فيه الصور لخمسة أمور: أحدها لنقصان صورته كجواهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل، والثاني لخبثه وصدئه وكُدُورته وإن كان تام الشكل، والثالث لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة، والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصور، والخامس الجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها؛ فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن يتجلى فيه حقيقة الأمور كلها وإنما خلت القلوب عنها لهذه الأسباب الخمسة:

**أولها:** نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا يتجلى فيه حقائق المعلومات لنقصانه، أو كروح ناقص في أصل الفطرة، فإن النفوس وإن كانت نوعاً واحداً ولكن في هذا النوع تفاوت عظيم وعرض واسع.

**والثاني:** لكدورة المعاصي والخبث الذي تراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه، فيمنع ظهور الحق فيه، كالشمس التي ينكشف بعضها أو كلها فيذهب نورها وبهاؤها بقدر ظلمتها، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «من قارب ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً». أي حصل في قلبه كُدُورة لا يزول أثرها أبداً إذ غايته أن يتبعها بحسنة تمحوها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لزاد لا محالة إشراق نور القلب، فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها ما كان قبل السيئة ولم يزد بها. فالإقبال على طاعة الله تعالى والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه - ولهذا قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال عليه الصلاة والسلام: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم».

**الثالث:** أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جليلة الحق وليس يحاذي بمرآته شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفضيل الطاعات البدنية أو تهئية أسباب المعيشة، ولا يصرف فكره إلى التأمل في الحضرة الربوبية والحقائق الخفية، ولا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها أو مبالغ المعيشة إن كان متفكراً فيها. وإذا كان تقيد الهم بالطاعات وتفصيلها مانعاً عن انكشاف جليلة الحق، فما ظنك في صرف الهم إلى الشهوات واللذات الدنيوية وعلائقها وزخارفها فكيف لا يمنع عن الكشف الخفي؟

**الرابع:** الحجاب، فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد للفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونها محجوبة عليه باعتقاد سيق إليه في ضد الحق منذ الصبي على سبيل التقليد، والقبول بحسن الظن يحول ذلك بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد.

وهذا أيضاً حجاب عظيم به حُجِبَ أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض؛ لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق.

**الخامس:** الجهل بالجهة التي منها يقع العثور على المطلوب، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بتذكر العلوم التي تناسب مطلوبه، حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء استخرج مطلوبه بطريق الاعتبار وتحصيل المجهول من المعلوم الذي سبق وهذا هو القانون المنطقي. فإن المنطق آلة قانونية تعصمه مراعاتها من أن يضل في فكره، فإذا حكّم القوانين وطرق التفكير فعند ذلك يعثر على جهة المطلوب فتتجلّى حقيقة المطلوب لقلبه،



فإن العلوم المطلوبة ليست فطرية لا تحتاج إلى تجشم الاستدلال والنظر والاعتبار، بل لا تُقنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة، فكل علم نظري لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص وشكل معلوم من الأشكال القياسية حلياً أو شرطياً، متصلاً أو منفصلاً، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث يسمى النتيجة عند حصولها والمطلوب قبل حصولها. فالجهل بتلك الأمور وبتلك المقدمات وبكيفية الازدواج والترتيب المفضي إلى المطلوب تصوراً أو تصديقاً هو مانع من العلم.

وهكذا كالمرآة إذا لم تحاذها شطر الصورة فلا يقع فيها الصورة، وكذلك إذا حُرِفَ عن جهة الصور ففي اقتناص العلوم طرق عجيبة وازورارات وتحريفات خفية أعجب مما ذكرنا في المرآة، ويعزّ على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات. فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور، وإلا فكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق وإن كان بينها تفاوت كثير؛ لأنه أمر ربّاني شريف كما ذكرناه فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصة والشرف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ [الأحزاب: ٧٢] إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرضين والجبال بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى؛ وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد. وقلب كل آدمي مستعد للأمانة ومطيع لها في الأصل، ولكن يشبّطها عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرنا، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» حتى يعرب عنه لسانه؛ وقول رسول الله ﷺ: «لولا الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلب وبين الملكوت.

وفي الخبر قال الله تعالى : « لم يَسْعَنِي أَرْضِي وَسَمَائِي وَوَسْعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ اللّٰهِ الْوَدِيعِ » وفي الخبر : « أنه قيل : من خير الناس ؟ فقال : كل مؤمن مخموم القلب ، فقيل : وما مخموم القلب ؟ فقال : هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد »<sup>(١)</sup> . ولذلك قال عمر رضي الله عنه : رأى قلبي ربّي إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلّى صورة الملك والملكوت في قلبه ف يرى جنة عرضها السموات والأرض بل أكثر سعة من السموات والأرض ، فإن الجنة وإن كانت واسعة الأطراف متباعدة الأكناف فهي متناهية ، وأما عالم الملكوت وهي معرفة الحقائق والأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصر فلا نهاية لها .

نعم ، الذي يلوح للقلب منه أيضاً مقدار متناه ولكنّه في نفسه بالإضافة إلى علم الله تعالى لا نهاية له ؛ وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة يسمى الحضرة الربوبية ؛ لأن الحضرة محيطة بكل الموجودات ، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله وأفعاله ، ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلّى من ذلك للقلب هو الجنة بعينه عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ؛ وتكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلّى له من الله تعالى وصفاته وأفعاله . وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكّيته وجلاؤه ، ومراد تزكّيته حصول أنوار المعارف فيه وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [ الأنعام : ١٢٥ ] وبقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [ الزمر : ٢٢ ] .

---

(١) من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ . رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب ٢٤ ولفظه فيه : « قيل لرسول الله ﷺ : أي الناس أفضل ؟ قال : كل مخموم القلب صدوق اللسان . قالوا : صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ؟ قال : هو التقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد . »

نعم هذا له مراتب فيها تتفاوت العلماء والحكماء ؛ وكل واحد له مقدار معلوم ، وغايته درجة الأنبياء الذين تتلأأ أنوار الحقائق في قلوبهم وينكشف لهم أسرار الملك والملوك في صفائح أرواحهم على أتم ظهور وأجلى بيان ؛ وفقنا الله لاتباعهم في جميع أفعالهم وأحوالهم وأخلاقهم .

### بيان أمثلة القلب مع جنوده وله ثلاثة أمثلة

**الأول:** تقول مَثَلُ نفس الإنسان في بدنه كمثل والٍ في مدينته ومملكته ، فإن البدن مملكة النفس وعالمه ومستقره ومدينته ، وقواه وجوارحه بمنزلة الصانع والعملة ، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل ، والشهوة له كعبد سوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ، والغضب والحمية له كصاحب شرطة ، والعبد الجالب للميرة كذاب مكار مخادع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشرّ الهائل والسم القاتل ، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في كل تدبير يدبره حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته في آرائه ساعة . فكما أن الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته لوزيره معرضاً عن إشارة العبد الخبيث ، بل يستدل بإشاراته على أن الصواب في نقيض رأيه وأدب صاحب شرطته ، وأسلسه لوزيره وجعله مؤتمراً له مسلطاً من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره ، حتى يكون العبد مسوساً لا سائساً ومأموراً مدبراً لا أمراً مدبراً ، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه . فكذلك النفس متى استعانت بالعقل وأدبت القوة الغضبية وسلطتها على الشهوة ، واستعانت بإحداها على الأخرى ، فتارة بأن تقلل من تيه الغضب وغلوائها بخلاصة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وبقهرها بتسليط القوة الغضبية عليها وتقبيح مقتضياتها ، اعتدلت قواه وحسنت أخلاقه . ومن عدل عن هذا الطريق كان كمن قال الله سبحانه فيه ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ [الجن: ٢٣] وقال تعالى : ﴿واتبع هواه فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾

[الأعراف: ١٧٦] وقد ذكرنا كيفية تهذيب هذه الجنود في الفصل المتقدم.

**المثال الثاني:** أن البدن كالمدينة، والعقل أعني القوة المدركة كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الخواص الظاهرة والمشاعر الباطنة كجنوده، وأعضاؤه كرعية، والنفس الأمانة بالسوء التي هي الشهوة، والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته؛ فصار بدنه كرباط وثق. ونفسه كمقيم فيه مرابط، فإن جاهد عدوه فهزمه وقهره على ما يجب حُمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥] وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذُمَّ أثره وانتقم منه عند لقاء الله تعالى، فيقال له يوم القيامة: يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجر الكسير، اليوم أنتقم منك، كما ورد في الخبر. وإلى هذه المجاهدة أشاروا بقولهم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

**المثال الثالث:** مثل العقل مثل فارس متصيد، وشهوته كفرسه، وغضبه ككلبه؛ فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه مؤدباً معلماً كان جديراً بالنجح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جوحاً والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته متقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطبعاً، فهو خليق بأن يعطب فضلاً من أن لا ينال ما طلب. وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته، وجاح الفرس مثل لغلبة شهوته خصوصاً شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل لغلبة شهوته خصوصاً لغلبة الغضب واستيلائه وغلوائه وزعارته<sup>(١)</sup>.

### بيان أن النفس قد تحتاج إلى البدن وقد لا تحتاج إليه

اعلم أن القوى الحيوانية قد تعين النفس الناطقة في أشياء، منها أن يورد الحس عليها الجزئيات فيحدث لها من الجزئيات أمور أربعة:

(١) الزعارة: سوء الخلق وقلة خيره.

**أحدها:** انتزاع النفس الكليات المفردة عن الجزئيات على سبيل تجريد لمعانيتها عن المادة وعن علائق المادة ولواعتها، ومراعاة المشترك فيه والمتباين به، والذاتي وجوده والعرضي وجوده، فيحدث للنفس عن ذلك مباديء التصور عن استعمالها الخيال والوهم مثل الجنس والفصل والعرض العام والعرض الخاص.

**والثاني:** إيقاع النفس مناسبات بين هذه الكليات المفردة على مثال سلب وإيجاب، فما كان التأليف فيه ذاتياً بيناً بنفسه أخذه، وما كان ليس كذلك تركه إلى مصادفة الواسطة.

**الثالث:** تحصيل المقدمات التجريبية، وهو أن يوجد بالحس محمول لازم الحكم لموضوع ما كان حكمه بالإيجاب والسلب أو تالٍ موجب الاتصال أو مسلوبه، أو موجب العناد أو مسلوبه؛ وليس ذلك في بعض الأحيان دون بعض على المساواة بل دائماً حتى تسكن النفس. على أن طبيعة هذا المحمول أن يكون فيه هذه النسبة إلى هذا الموضوع، والتالي أن يلزم هذا المقدم أو ينافيه لذاته لا بالاتفاق فيكون ذلك اعتقاداً حاصلاً من حس وقياس: أما الحس فلأجل مشاهدة ذلك، وأما القياس فلأنه لو كان اتفاقاً لما وجد دائماً أو في الأكثر، وهذا كالحكم بأن السقمونيا مسهل للصفراء بطبعه لإحساسنا ذلك كثيراً. وبقياسنا أنه لو كان لا على الطبع بل بالاتفاق لوجد في بعض الأحيان.

**الرابع:** الأخبار التي يقع بها التصديق لشدة التواتر؛ فالنفس الإنسانية تستعين بالبدن لتحصيل هذه المباديء للتصور والتصديق، ثم إذا حصلت رجعته إلى ذاتها، فإن تعرض لها من القوى التي دونها بأن يشغلها شغلته عن فعله وأضررت بفعله إلا في أمور تحتاج فيها إليها النفس خاصة بأن تعود إلى القوى الخيالية مرة أخرى لاقتناص مبدأ غير الذي حصل أو معاونة بإحضار خيال، وهذا يقع في الابتداء كثيراً ولا يقع بعده إلا قليلاً.

وأما إذا استكملت النفس وقويت فإنها تنفرد بأفعالها على الإطلاق، ويكون القوى الخيالية والحسية وسائر القوى البدنية غير صارفة لها عن فعلها بل شاغلة لها .

ومثال ذلك : أن الإنسان قد يحتاج إلى دابة وآلات ليتوصل بها إلى المقصد ، فإذا وصل إليه ثم عرض من الأسباب ما يحول عن مقارنته صار السبب الموصل بعينه عائقاً .

## بيان أن هذه القوى كيف يرأس بعضها بعضاً وكيف يخدم بعضها بعضاً

فإنك تجد العقل المستفاد رئيساً مطلقاً ويخدمه الكل ، وهو الغاية القصوى . ثم العقل بالفعل يخدمه العقل بالملكة . والعقل الهولاني لما فيه من الاستعداد يخدم العقل بالملكة . ثم العقل العملي يخدم جميع هذا ؛ لأن العلاقة البدنية لأجل تكميل العقل النظري ، والعقل العملي هو مدبر تلك العلاقة . ثم العقل العملي يخدمه الوهم ، والوهم يخدمه قوتان قوة بعده وقوة قبله : فالقوة التي بعده هي القوة التي تحفظ ما أذاه الوهم ، والقوة التي قبله هي جميع القوى الحيوانية . ثم المتخيلة يخدمها قوتان مختلفتا المآخذ ، فالقوة النزوعية تخدمها بالاثثار لأنها تبعثها على التحريك ، والقوة الخيالية تخدمها بقبول التركيب والتفصيل فيما فيها من صورها . ثم هذان رئيسان لطائفتين . أما القوة الخيالية فيخدمها بنطاسيا ، وبنطاسيا يخدمها الحواس الخمس . وأما القوة النزوعية فتخدمها الشهوة والغضب . والشهوة والغضب تخدمها القوة المحركة بالفعل . وإلى ههنا تنتهي القوى الحيوانية .

ثم القوى الحيوانية بالجملة تخدمها النباتية ، وأولها ورأسها المولدة . ثم المربية تخدم المولدة . ثم الغذائية تخدمها جميعاً . ثم القوى الطبيعية الأربع تخدم هذه وهي : الهاضمة وتخدمها من جهة الماسكة ومن جهة الجاذبة . وتخدمها جميعها الدافعة .

وتخدم جميعها الكيفيات الأربع، لكن الحرارة تخدمها البرودة وتخدم كليهما الرطوبة واليبوسة؛ وهناك آخر درجات القوى.

## بيان أن الأرواح البشرية حادثة

حدثت عند استعداد النقطة لقبول النفس من واهبها كما قال الله تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوْحِي﴾ [الحجر: ٢٩] كما حدثت الصورة في المرأة لحدوث الصقالة، وإن كان ذو الصورة سابق الوجود على الصقالة.

وتلخيص البرهان: أن الأرواح لو كانت موجودة قبل الأبدان لكانت إما كثيرة وإما واحدة، وباطل وحدتها وكثرتها فباطل وجودها.

وإنما استحال وحدتها لأنها بعد التعلق بالأبدان إما أن تبقى على وحدتها أو تكثرها، وبحال وحدتها وكثرتها فمحال وجودها؛ وإنما استحال وحدتها بعد التعلق بالأبدان لعلمنا ضرورة بأن ما يعلمه زيد يجوز أن يجله عمرو، ولو كان الجوهر العاقل منها واحداً لاستحال اجتماع المتضادين فيه كما يستحيل في زيد وحده؛ ونحن نعني بالروح العاقل كما ذكرنا، وبحال كثرتها لأن الواحد إنما لا يستحيل أن يتثنى وأن ينقسم إذا كان ذا مقدار كالأجسام، فالجسم الواحد ينقسم فإنه ذو مقدار فله بعض فيتبع بعض، أما ما لا بعض له ولا مقدار فيكف ينقسم.

أما تقدير كثرتها قبل التعلق بالأبدان فمحال؛ لأنها إما أن تكون متائلة أو مختلفة وكل ذلك محال؛ وإنما استحال التماثل لأن وجود المثليين محال في الأصل، ولهذا يستحيل وجود سوادين في محل واحد وجسمين في مكان واحد، لأن الاثنينية تستدعي مغايرة ولا مغايرة ههنا، وسوادان في محلين جائز لأن هذا يفارق ذلك في المحل إذا اختص هذا بمحل لا يختص به الآخر، وكذلك يجوز سوادان في محل واحد في زمانين إذ لهذا وصف ليس للآخر وهو الافتراق بهذا

الزمان الخاص، فليس في الوجود مثل مطلق بل بالإضافة كقولنا زيد وعمرو مثلاً في الإنسانية والجسمية، وسواد الخبر والغراب مثلاً في السوادية. ومحال تغيرها لأن التغير نوعان :

أحدهما باختلاف النوع والماهية كتغير النار والماء وتغير السواد والعلم. الثاني بالعوارض التي لا تدخل في الماهية كتغير الماء الحار للماء البارد؛ فإن كان تغير الأرواح البشرية بالنوع والماهية فمحال، لأن الأرواح البشرية متفقة بالحد والحقيقة وهي نوع واحد، لأن الحد وهو الحيوان الناطق يشملها. وإن كانت متغيرة بالعوارض فمحال، لأن الحقيقة الواحدة إنما تتغير عوارضها إذا كانت متعلقة بالأجسام منسوبة إليها بنوع ما، ولا تعلق لها بالأجسام قبل وجود الأبدان فكان الاختلاف محالاً، إذ الاختلاف في أجزاء الجسم ضرورة ولو كان في القرب من السماء والبعد منه مثلاً؛ أما إذا لم يكن كذلك كان الاختلاف والتغير محالاً. وهذا ربما يحتاج تحقيقه إلى مزيد بيان ولكن في هذا القدر تنبيه عليه.

فإن قيل: فيكيف تكون حال الأرواح بعد مفارقة الأجسام ولا تعلق لها بالأجسام فكيف تكثرت وتغيرت؟

فالجواب أن نقول: لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافاً مختلفة من العلم والجهل والصفاء والكدورة وحسن الأخلاق وقبحها، فبقيت بسببها متغيرة فعقلت كثرتها، بخلاف ما قبل الأجساد فإنه لا سبب لتغيرها، فقد اتضح أن النفس تحدث كما تحدث مادة بدنية صالحة لاستعمالها إياها، ويكون البدن آلة ومملكة لها، ويكون للنفس الحادثة في جوهرها هيئة نزاع طبيعي إلى الاشتغال بذلك البدن خاصة والاهتمام بأحواله والانجذاب إليه؛ وتلك الهيئة تكون مقتضية لاختصاصها بذلك البدن، ولا بد أن تكون مناسبة له مناسبة خاصة لصلوح سياسة بدن خاص دون آخر، وإن خفيت علينا تلك المناسبة بعينها فإن تلك



المناسبات غير محصورة ولا ظاهرة والله سبحانه وتعالى يتولى أسرارها وسرائرها .  
فإن قيل : لا نسلم بأن النفوس الإنسانية متفقة في النوع والمعنى ، ولسنا نسلم  
أن الأنواع إنما تتكثر من جهة النسبة إلى المادة والمكان والزمان فحسب ، بل  
الماديات إنما تتكثر بالمقادير والكائنات الزمانية ، والنفوس الإنسانية ليست بمادية  
في ذاتها وإنما نسبتها إلى المادة بوجه التدبير والتصرف لا بوجه الانطباع في  
المادة حتى يستدعي مكاناً مميزاً وزماناً مميزاً . والتدبير والتصرف لا يوجب تعدداً  
ذاتياً ، فإن الواحد يجوز أن يكون متصرفاً في أشياء ، والعدد الكثير يجوز أن  
يكون متصرفاً في شيء واحد ؛ فهذه النسبة لذاتها لا توجب الكثرة في الذات .

قلنا : الدليل على أن النفوس الإنسانية متفقة النوع ما ذكرناه ، وهو أن حد  
الإنسان يشملها وهو الحي الناطق <sup>(١)</sup> ؛ وما شمله حد النوع فهو متفق في النوع .  
والدليل على أن أسباب التكثر ما ذكرته أن الأشياء التي ذاتها حقائق فقط إنما  
تكثرها بالحوامل والقوابل والمنفعلات عنها أو بنسبة ما إليها وإلى أزميتها فقط ،  
فإذا كانت مجردة لم تقترن بذلك فمحال أن يكون بينهما مغايرة وتكثر .

وأما قولهم : إن النفس الإنسانية ليس بمادية فتمايز بالمادة ، فمسلّم ؛ لكنها  
ذات نسبة إلى المادة أي نسبة كانت وإن تكن نسبة الانطباع ، فنسبة التدبير  
والتصرف وهذه النسبة مؤثرة في التمييز كافية ، فيقال : إن النفس الإنسانية ملك  
تلك المدينة الفاضلة .

فإن قيل : لا نسلم أن الأسباب المكثرة محصورة فيما ذكرتم من أقسام الحوامل  
والقوابل والمنفعلات عنها أو النسبة إليها ، فما الدليل على الحصر ؟ أليست  
المفارقات متغايرة الذوات والحقائق ولا حوامل لها ولا قوابل ولا مكان ولا

---

(١) تعريف الإنسان بالحي الناطق أو الحيوان الناطق هو تعريف جامع مانع : جامع لأنه يضم كل  
أفراد المعرف فيه ، ومانع لأنه يمنع ما هو من نوع آخر أن يدخل فيه . وهو تعريف بالحد التام ،  
فهو يتركب من الجنس القريب (حيوان) والفصل القريب (ناطق) .

زمان ؟ وإنما تميز بحقائقها الذاتية ، وإنما نوعها في شخصها ، أعني في ذاتها ؛ فهلا قلتم في النفوس الإنسانية إنها تتغير بخواصها أو بأمر آخر سوى الحوامل ! أليست النفوس بعد المفارقة تتغير بالعدد ؟ وتقولون إنها تتغير بما اكتسبت من الأبدان : من الأخلاق والعلوم ، وقلتم يكفيها في التمييز هيئة أنها كانت نفس البدن الفلاني . ولئن كان هذا القدر كافياً في التمييز فهلا كان كافياً في التمييز هيئة أنها ستكون نفس البدن الفلاني ؟ فإن الانطباع في البدن ليس بشرط .

قلنا : في المفارقات قد قام الدليل على أنها متغيرة الحقائق ، أما النفوس البشرية فيشملها حد واحد كما ذكرنا ، وإنما يمكن وجودها وتعددتها بعد المفارقة بهيئات وأخلاق اكتسبت من الأبدان ، وقبل الاتصال بالبدن لا يمكن أن تكتسب من الأبدان شيئاً إذ لا أبدان ؛ وما لا يكون ليس له تأثير فإننا نعلم قطعاً أنها بعد الاتصال بالبدن إنما تكمل بمعاونة البدن وتكتسب فضائل وروايل من العلاقة البدنية ؛ فقبل البدن لا علاقة فلا اكتساب فلا تغير فثبت أنها تحدث مع البدن .

فإن قيل : أحلتم وجود النفوس البشرية قبل الأبدان ببيان ما ذكرتم من أنها لا تتصور قبل الأبدان ، ونحن نورد إشكالين واقعين على نحو وجودها متصلة بالأبدان وحادثة مع حدوث الأبدان ؛ وذلك لأنه من المسلم بيننا أن النفوس الإنسانية ليس مادية ولا منطبعة في مادة ، وما هذا سبيله فليس حدوثه على تدرج شيء بعد شيء أو زمان بعد زمان ، بل يكون وجوده إبداعياً محضاً ، ووجود البدن ليس إبداعياً محض بل على تدرج شيء بعد شيء واستحالة جزء بعد جزء ، فأبى جزء بعينه انتهت النوبة إليه في الاستحالة حتى يحدث عنده النفس ويتصل به ؛ وليس جزءاً بعينه إلا ويمكن حدوث النفس قبله بلحظة أو بعده بلحظة . ولو قلتم إنها تحدث عند كمال الاستعداد ، فيقال وكمال الاستعداد ليس يحصل بغتة ودفعة بل على تدرج كمال بعد كمال ، وقد بان أنها كمال واحد

يُحصل إبداعاً لا تدريج فيه . ثم إن الاستعداد وكمال الاستعداد إنما يشترط فيما هو صورة مادية، أعني منطبعة في المادة، فيكون الاستعداد سبباً ما بوجه ما لحصول الصورة فيه من واهب الصور، ولا يشترط ذلك في النفوس التي ليست منطبعة في مادة أصلاً، ولا علاقة بينها وبين القوى المادية إلا علاقة التدبير والتصرف في المملكة، فالتصرف فيه كيف يكون سبباً لوجوب التصرف المدبر فيه والمدبر أولى بأن يكون متقدماً في الوجود على المملكة. واشتراط الاستعداد لقبول الصورة حتى توجد الصورة في المستعد غير، واشتراط الاستعداد لقبول تصرف النفس غير، فإن الاستعداد الأول يصلح سبباً لوجود النفس بوجه ما، والاستعداد الثاني لا يصلح سبباً لوجود النفس بوجه ما، بل هو سبب لقبول تصرفه فيه إما ليفيده كمالاً أو ليستفيد منه فائدة وهذا إشكال عظيم.

فالجواب عنه كلمة واحدة، فإن العلم نكتة واحدة كثرها الجهل، فنقول: لا ارتياب في أن النفوس إبداعية وأنها ليست منطبعة في المادة، وإنما تحدث من مبدعها عند كمال الاستعداد الذي عبر عنه في التنزيل بقوله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ﴾ [الحجر: ٢٩ وص: ٧٢] ومبدعها أعلم بكمال الاستعداد. وليس في طاقة القوى البشرية الإحاطة بتفاصيل الاستعدادات، ولكن على الجملة نعلم أن الصور تفيض من مبدعها وواهبها كما يقتضيها جود الجواد المحض عن كمال العلم المحيط بتفاصيل المعلومات، فيعطي كل مستحق ما يستحقه وكل قاصر ما يكمله، بل ماهيات الأشياء واستعداداتها من جوده الفياض بواسطة الأسباب المعطية للاستعدادات الخاصة من الأجرام العنصرية وامتزاجاتها وحركات السموات وأجرامها وأشكالها وخواصها وفيض العقول على النفوس وإفاضة النفوس طلباً للاستكمال تحريكاً للسموات. فالكل من جود الجواد الحق الذي يعطي كل حقيقة وجودها، وهو أعلم بكمال الاستعداد وأي استعداد يستحق أي صورة؛ ومعلوم البشر قاصرة عن إدراك ذلك، وإذا بلغ الكلام إلى الله سبحانه فتقطع

سؤال « لِمَ » كما ينقطع مطلب « ما » ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾  
[الأنبياء : ٢٣].

الإشكال الثاني: أن النفوس إذا كانت متشابهة في النوع فائضة من واهب الصور وليس في فيضانه اختلاف، فمن أين يجب أن يكون كل نفس حادثة ذات هيئة نزاعية طبيعية إلى الاشتغال ببدن مخصوص والاهتمام بأحواله؟ ومن أين يلزم أن يكون لها مناسبة خاصة تصلح لسياسة بدن خاص دون بدن؟ فإن كانت هذه الهيئة لازمة لذاتها فهي متخصصة بهذه الهيئة قبل وجود البدن، وإن كانت هذه الهيئة تكتسب هذه الهيئة من البدن فكيف يسبق الموجب على الموجب وكيف تكون تلك الهيئة نزاعية طبيعية؟

وجملة القول: إن لم تكن هيئة مختصة فلم اختصت ببدن دون بدن؟ وإن كانت الهيئة طبيعية على حالتها فهي المخصصة لذاتها بعد الاتفاق في النوع، وإن كانت مكتسبة من خارج وهو إما هذا البدن أو غيره فليتحقق لها وجود حتى تكتسب الهيئة المخصصة، وكل ذلك محال. ثم اختلاف المناسبات والهيئات تستدعي اختلاف الأسباب، وواهب الصّور واحد في ذاته أحدي الإفاضة، فلا اختلاف هناك ولا تأثير لاختلاف الأمزجة في اختلاف هيئات النفوس، إذ لا انطباع ولا حلّول ولا اتصال بين المجردات وبين الأمزجة، بخلاف النفوس النباتية والنفوس الحيوانية والصور الجسمانية والصور الطبيعية، فإن اختلاف النفوس والصور لاختلاف موادها وصورها مقدرة على استعداداتها.

وحل هذا الإشكال أن نقول: نعم إن المناسبات والهيئات المختلفة تستدعي أسباباً مختلفة؛ وأسباب الاستعدادات الامتزاجات، وأسباب الامتزاجات وجميع ما يحدث في العالم العنصري منوطة بالحركات السهاوية؛ وحتى الاختيارات والإرادات فإنها لا محالة أمور تحدث بعد ما لم تكن، ولكل حادث بعد ما لم يكن علة وسبب حادث، وينتهي ذلك إلى الحركة، ومن الحركات إلى

المستديرة، فجميع الاستعدادات تابعة للحركات السماوية، ثم الحركات المستديرة مستندة إلى اختيارات النفوس الفلكية، والكل يستند إلى العقل الإلهي المستعلي على الكل الذي منه ينشعب المقدورات؛ فالجود الإلهي بواسطة العقول والنفوس، والحركات السماوية يعطي كل مادة استعدادها لصورة خاصة، والنفوس لا تحدث بالاستعداد الخاص بل عند الاستعداد الخاص وفرق بين أن تحصل عنده أو به.

ثم الهيئة النزاعية في النفس إنما تكون بعد الاتصال بها؛ فإذا حدث النفس له صفة في الفاعل وصفة في القابل، أما صفة الفاعل فالجود الإلهي الذي هو ينبوع الوجود وهو فياض بذاته على كل ماله قبول الوجود حقيقة وجوده، ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة، وإن أضفت هذا الفيض إلى الوسائط فواهب الصور، ومثاله فيضان نور الشمس على كل قابل للاستنارة عند ارتفاع الحجاب بينها؛ والقابل للاستنارة هي المتلونات دون الهواء الذي لا لون له.

وأما صفة القابل فالاستواء والاعتدال الحاصل بالتسوية كما قال سويته<sup>(١)</sup>؛ ومثال صفة القابل صقالة الحديد، فإن المرأة التي ستر الصدا وجهها لا تقبل الصورة وإن كانت محاذية للصورة، وإذا اشتغل المصقل بتصقيلها فكلما حصلت الصقالة حدثت فيها الصورة من ذي الصورة المحاذية لها. فكذلك إذا حصل الاستواء والاستعداد في النطفة حدثت فيها النفس من واهبها وخالفها من غير تغير في الواهب، بل إنما حدث الروح الآن لا قبله لتغير المحل بمحصل الاستواء الآن لا قبله، كما أن الصورة فاضت من ذي الصورة على المرأة في حكم الوهم من غير تغير في الصورة، ولكن كان لا تحصيل من قبل لأن الصورة ليست مهيئة لأن تنطبع في المرأة، لكن لأن المرأة لم تكن صقيلة.

فإن قيل: فإذا كانت الأرواح حادثة مع الأجساد فما معنى قوله ﷺ:

(١) قوله تعالى في سورة الحجر، الآية ٢٩: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾.

« خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام » وقوله عليه السلام: « أنا أول الأنبياء خلقاً، آخرهم بعثاً » وقوله عليه السلام: « كنت نبياً وآدم منجدل بين الماء والطين »؟.

قلنا: شيء من هذا لا يدل على قدم الروح بل على حدوثه وكونه مخلوقاً، نعم دل بظاهره على تقديم وجوده على الجسد كما ظن جماعة من الحكماء؛ وأمر الظواهر هين، فإن تأويلها ممكن، والبرهان القاطع لا يُدْرَأُ بالظواهر بل يسلط على تأويل الظواهر كما في ظواهر الآيات المتشابهات في حق الله تعالى.

أما قوله عليه السلام: « خلق الله الأرواح قبل الأجساد » أراد بالأرواح أرواح الملائكة، وبالأجساد العالم من العرش والكرسي والسموات والكواكب والهواء والماء والأرض. وكما أن أجساد الآدميين بجملتهم صغيرة بالإضافة إلى جرم الأرض، وجرم الأرض أصغر من الشمس بكثير، ثم لا نسبة لجرم الشمس إلى فلكه، ولا لفلكه إلى السموات التي فوقه، ثم كل ذلك اتسع له الكرسي إذ وسع كرسيه السموات والأرض، والكرسي صغير بالإضافة إلى العرش؛ فإذا تفكرت في جميع ذلك استحققت أجساد الآدميين ولم تفهمها من مطلق لفظ الأجساد؛ فكذلك فاعلم وتحقق أن أرواح البشر بالإضافة إلى أرواح الملائكة كأجسادهم بالإضافة إلى أجساد العالم، لو انفتح لك باب معرفة الملكية لرأيت الأرواح البشرية كسراج اقتبس من نار عظيمة طبقت العالم، وتلك النار العظيمة هي الروح الأخير من أرواح الملائكة، ولأرواح الملائكة ترتيب، وكل واحد منفرد برتبته ولا يجتمع في مرتبة واحدة اثنان، بخلاف الأرواح البشرية المتكثرة مع اتحاد النوع، أما الملائكة فكل واحد نوع برأسه وهو كل ذلك النوع، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: ١٦٤] وبقوله عليه السلام: « إن الراكع منهم لا يسجد، والقائم لا يركع، وإنه ما من واحد إلا وله مقام معلوم » فلا تفهمن إذاً من الأرواح والأجساد المطلقة إلا أرواح الملائكة وأجساد العالم.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعناً» وقوله عليه السلام: «نحن الآخرون السابقون» وقد قال عليه السلام: «أول ما خلق الله القلم» وقال: «أول ما خلق الله العرش» وقال: «أول ما خلق الله جوهر محمد ﷺ، وغير ذلك، فكشف الغطاء عن هذا من وجوه، تحت كل وجه فوائد لطيفة ولطائف من الحكمة قلما تسطر في الكتب.

**الوجه الأول:** أنا شاهدنا الموجودات كلها بشهادة الحس والعقل على ترتب وتفاضل في النوع والشخص.

أما في المركبات التي هي أقرب إلى حواسنا فالمعادن والنباتات والحيوان والإنسان على تفاضل، وانتهى ذلك بالإنسان، وانتهى الإنسان بالشخص الواحد الأفضل من الكل كالنبي في زمانه والولي في كل زمان.

وأما في البسائط الجسمانية، أعني المتشابهة الأجزاء، فهي أيضاً على تفاضل في الجوهر والحيز والعظم والحركة؛ والأفضل من الكل الجرم الأقصى وهو الذي عبر عنه التنزيل بالعرش والكرسي الذي وسع السموات والأرض.

وأما في البسائط الروحانية، أعني المجردة عن المواد المنزهة عن المكان والزمان، ففيها ترتب وتفاضل، فما كان أشد قوة وأوسع علماً وإحاطة وأبلغ في الوحدة وأشبه بكمال الربوبية كان في المقام الأعلى والمرتبة الأقصى، ولا بد أن ينتهي بواحد، فإن المترتبات المتفاضلات إن لم تنته بواحد أوجب ذلك الحُكْمَ بالتسلسل وذلك محال، فالمرتبات في كل قسم انتهت بواحد هو مبدؤها.

وربما يعبر لسان النبوة عن ذلك الواحد بأنه أول ما خلق الله تعالى؛ فالروحانيات انتهت بروح القدس أو العقل الفعال أو شديد القوى ذو مرة فاستوى، وهو أول المبدعات، ثم ينزل بالترتب والتفاضل كما قيل: أول ما خلق الله عز وجل العقل ثم النفس ثم الهوى، (أو ما روي في الخبر: أن أول ما خلق الله عز وجل القلم ثم اللوح ثم الظلمة الخارجة).

وأما الجسائيات فقد انتهت بالجزم الأقصى، وهو ما روي أن أول ما خلق الله العرش ثم الكرسي. وأما في المركبات فقد انتهت بجوهر النبوة، وأكملها وأفضلها جوهر محمد ﷺ، وذلك ما روي أن أول ما خلق الله تعالى جوهر محمد ﷺ. فقد وجدت لكل مقال مجالاً ولكل مذهب محلاً ومساغاً؛ ثم الأولية في كل صنف منها هل هي أولية بالزمان، أو أولية بالمكان، أو أولية بالذات؟ أعني العلة الفاعلية أو الكمالية، فذلك مطلب آخر سهل التناول قريب المأخذ والمجتنى.

**الوجه الثاني:** أن المبادي تساق إلى الكمالات حتى في لم يكن كمال لم يكن مبدأ، كما لو لم يكن مبدأ لم يكن كمال، وأن المعقولات تظهر بالمحسوسات. وكما أن كمال جلال الحق إنما يظهر بأفعاله وصنائه كذلك الأمر الحق إنما يظهر بخلقه، وكذلك العقل إنما يظهر بالنفس، والنفس إنما تظهر بالطبيعة، والطبيعة إنما تظهر بالجسم الكلي. وكذلك جميع الموجودات إنما تظهر بالإنسان حتى يكون جسمه وطبيعته مظهر الجسم والطبيعة، ونفسه وعقله مظهر النفس والعقل، وتسليمه مظهر الأمر الحق فيظهر به جلال البارئ تعالى وإكرامه.

ويصح أن يقال: لولاك ما خلقت الأفلاك، فهو الخلاصة من الخليفة والصفوة من البرية، وهو الكمال والغاية والسدرة المنتهى، وهو أول ما خلق وآخر ما بعث كما ذكره عليه السلام.

**الوجه الثالث:** أن الطبيعة المسخرة تؤثر في إعداد المادة لقبول فيض الأمر والعقل والنفس، حتى يحصل في المركبات باستصفاء العناصر واستخلاص اللباب من المواد وابتلاء الأمشاج من المزاج طبقة بعد طبقة واستصفاء بعد استصفاء، حتى يحصل في المركبات الجزئية شخص في مقابلة العقل الكلي، بل هو شخص العقل أو عقل مشخّص، وذلك هو نبي زمانه، فيكون العود به كما كان البدء إليه، فيضاهي صاحب المبدأ صاحب الكمال، وتكون النهاية هي الرجوع إلى



البداية ، ويكون أول الفكر آخر العمل ، ويظهر معنى قول النبي ﷺ : « نحن الآخرون السابقون » .

**الوجه الرابع :** كما ابتداء الدين والشرعة من آدم عليه السلام واستكمل نوع كمال بنوح عليه السلام ، ونوع كمال بإبراهيم عليه السلام ، ونوع كمال بموسى عليه السلام ، ونوع كمال بعيسى عليه السلام ، ونوع كمال بالمصطفى عليه السلام ، وابتداء العود من المصطفى ﷺ في دار الجزاء ، ولذلك قال : « أنا أول من ينشق عنه الأرض ، وأنا العاقب ، وأنا الحاشر يحشر الناس على قدمي » <sup>(١)</sup> .

### بيان بقاء النفس

ونذكر أنها لا تموت بموت البدن ، ثم نذكر أنها لا تفنى مطلقاً ، ونذكر برهانه من المنقول والمقول .

**أما المنقول** فقوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ [ آل عمران : ١٧٠ ] ومعلوم أن من كان حياً مرزوقاً فرحاً مستبشراً به لا يكون ميتاً معدوماً . وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ﴾ [ البقرة : ١٥٤ ] وقال رسول الله ﷺ : « أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في رياض الجنة » . وقد ترسخ في جميع عقائد أهل الإسلام هذا ، فإن رسول المغفرة والرحمة لمن يكون باقياً لا لمن يكون فانياً . وكذلك إهداء

---

(١) روى البخاري ومسلم وأحمد ومالك والترمذي والدارمي عن جابر بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال : « إن لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب » وروى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش لينس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري » .

الصدقة ، فاعتقادهم أنها تصل إليه ، وكذلك المنامات ؛ فكل ذلك دليل على أنها باقية .

وقد ذكرنا أن النفس ليست منطبعة في البدن ، بل لها العلاقة مع البدن بالتصرف والتدبير ، والموت انقطاع تلك العلاقة ، أعني تصرفاتها وتديرياتها عن البدن ؛ وإنما يموت الروح الحيواني وهو بخار لطيف ينشأ من القلب ويتصاعد إلى الدماغ ، ومن الدماغ بواسطة العروق إلى جميع البدن ، وفي كل موضع ينتهي إليه يفيد فائدة من الحواس الظاهرة والمشاعر الباطنة ؛ فذلك الروح لا يبقى ، وإذا بطل الروح بطل ما يتبعه من الحواس الظاهرة والباطنة والقوى المحركة .

**أما البرهان العقلي** فلأن كل شيء يفسد بفساد شيء آخر ، فهو متعلق به نوعاً من التعلق ، وكل متعلق بشيء آخر نوعاً من التعلق فإما أن يكون تعلقه به تعلق المكافئ في الوجود ، أو تعلق المتأخر عنه في الوجود ، أو تعلق المتقدم عليه في الوجود الذي هو قبله في الذات لا في الزمان ؛ فإن كان تعلق النفس بالبدن تعلق المكافئ في الوجود ، وذلك أمر ذاتي له لا عرضي ، فكل واحد منها مصاف الذات إلى صاحبه ، فليس لا النفس ولا البدن بجوهر ولكنها جوهران . وإن كان ذلك أمراً عرضياً لا ذاتياً فإن فسد أحدهما بطل العارض الآخر من الإفاضة ولم يفسد الذات بفساده .

وإن كان تعلقه به تعلق المتأخر عنه في الوجود ، فالبدن علة للنفس في الوجود ؛ والعلل أربع : إما أن يكون البدن علة فاعلية للنفس معطية لها الوجود ، وإما أن يكون علة قابلية لها بسبيل التركيب كالعناصر للأبدان أو بسبيل البساطة كالنحاس للصنم ، وإما أن يكون علة صورية ، وإما أن يكون علة كمالية . ومحال أن يكون علة فاعلية فإن الجسم بما هو جسم لا يفعل شيئاً وإنما يفعل بقواه ، ولو كان بذاته يفعل لا بقواه لكان كل جسم يفعل ذلك الفعل .

ثم القوى الجسمانية كلها إما أعراض وإما صور مادية؛ ومحال أن يفيد الأعراض أو الصور القائمة بالمواد وجود ذات قائمة بنفسها لا في مادة ووجود جوهر مطلق. ومحال أيضاً أن يكون علة قابلية، فقد برهنا وبيننا أن النفس ليست منطبقة في البدن بوجه من الوجوه، فلا يكون إذاً البدن متصوراً بصورة النفس، لا بحسب البساطة ولا على سبيل التركيب بأن يكون جزءاً من أجزاء البدن يتركب فتحدث النفس. ومحال أن تكون علة صورية للنفس أو كمالية، فإن الأولى أن يكون الأمر بالعكس، فإذاً ليس تعلق النفس بالبدن تعلق معلول بعلة ذاتية.

نعم البدن والمزاج علة بالعرض للنفس، فإنه إذا حدث بدن يصلح أن يكون آلة لنفسه ومملكة له أحدثت العلل المفارقة النفس الجزئية أو حدث عنها ذلك، فإن إحداثها بلا سبب يخصص إحداث واحد دون واحد محال، ومع ذلك فإنه يمنع عن وقوع الكثرة فيها بالعدد لما بيناه ولأنه لا بد لكل كائن بعد ما لم يكن من أن يتقدمه مادة فيكون فيها تهيؤ قبوله أو تهيؤ نسبة إليه كما تبين في العلوم الأخر، ولأنه لو كان يجوز أن تكون نفس جزئية تحدث ولم يحدث لها آلة بها تستكمل وتفعل لكانت معطلة الوجود، ولا شيء معطل في الطبيعة المسخرة المبلغة كل شيء من العنصریات إلى كمالها وغايتها، ولكن إذا حدث التهيؤ للنسبة والاستعداد للآلة فيلزم حينئذ أن يحدث من الجود الإلهي الفياض بواسطة العلل المفارقة شيء هو النفس. وليس إذاً وجب حدوث شيء مع حدوث شيء وجب أن يبطل مع بطلانه وإنما يكون ذلك إذا كان ذات الشيء قائماً بذلك الشيء وفيه.

وقد تحدث أمور عن أمور وتبطل تلك الأمور وتبقى هي إذا كانت ذات غير قائمة فيها، وخصوصاً إذا كان مفيد الوجود لها شيئاً آخر غير الذي إنما هو تهيؤ إفادة وجوده مع وجوده، ومفيد وجود النفس شيء غير الجسم كما بينّا

وإلا فهو قوة في جسم ، بل هو لا محالة أيضاً جوهر غير جسم ، فإذا كان وجوده من ذلك الشيء ومن البدن يحصل وقت استحقاقه الوجود فقط ، فليس له تعلق في نفس الوجود بالبدن ولا البدن علة له إلا بالعرض ، فلا يجوز إذاً أن يقال إن التعلق بينهما على نحو يوجب أن يكون الجسم متقدم الذات على النفس .

وأما القسم الثالث مما كنا ذكرنا في الابتداء وهو أن يكون تعلق النفس بالجسم تعلق المتقدم في الوجود ، فإما أن يكون التقدم مع ذلك زماناً فيستحيل أن يتعلق به وجوده وقد تقدمه في الزمان ، وإما أن يكون التقدم في الذات لا في الزمان ؛ لأنه في الزمان لا يفارقه ، وهذا النحو من التقدم هو أن يكون الذات المتقدمة كلما توجد يلزم أن يستفاد عنها ذات المتأخر في الوجود ، وحينئذ لا يوجد أيضاً هذا المتقدم في الوجود إذا فرض المتأخر قد عدم ، لا لأن فرض عدم المتأخر أوجب عدم المتقدم ولكن لأن المتأخر لا يجوز أن يكون عُدَم إلا وقد عرض أولاً بالطبع للمتقدم ما أعدمه فحينئذ عدم المتأخر . فليس فرض عدم المتأخر يوجب عدم المتقدم ولكن فرض عدم المتقدم نفسه ؛ لأنه إنما افترض المتأخر معدوماً بعد أن عرض للمتقدم أن عُدَم في نفسه ، وإذا كان كذلك فيجب أن يكون السبب المعدم يعرض في جوهر النفس فيفسد معه البدن ، وأن لا يكون البدن البتة يفسد بسبب يخصه ، لكن فساد البدن بسبب يخصه من تغير المزاج أو التركيب ؛ فباطل أن تكون النفس تتعلق بالبدن تعلق المتقدم بالذات ثم تفسد بالبدن البتة ، فليس إذاً بينهما هذا التعلق .

وإذا كان الأمر على هذا فقد بطل أنحاء التعلق كلها وبقي أن لا تعلق للنفس في الوجود بالبدن بل تعلقه في الوجود بالجود الإلهي بواسطة المبادئ الأخر التي لا تستحيل ولا تبطل .

## برهان أنها لا تفنى مطلقاً

فنقول: إن النفس لا يتطرق إليها الفناء والعدم والفساد والهلاك، وذلك أن كل شيء من شأنه أن يفسد بسبب ما فيه قوة أن يفسد، وقَبْلُ الفساد فيه فِعْلُ أن يبقى، ومحال أن يكون من جهة واحدة وفي شيء واحد قوة أن يفسد وفعل أن يبقى، بل تهيؤه للفساد ليس لفعل أن يبقى، فإن معنى القوة مغاير لمعنى الفعل، وإضافة هذه القوة مغايرة لإضافة هذا الفعل؛ لأن إضافة ذلك إلى الفساد وإضافة هذا البقاء. فإذا لأمرين مختلفين في الشيء يوجد هذان المعنيان، وهذا إنما يكون في الأشياء المركبة أو الأشياء البسيطة في المركبة؛ وأما في الأشياء البسيطة المفارقة الذات فلا يجوز فيها هذان الأمران.

ونقول بوجه مطلق إنه لا يجوز أن يجتمع في شيء أحديّ الذات هذان المعنيان، وذلك لأن كل شيء يبقى وله قوة أن يفسد فله قوة أن يبقى، لأن بقاءه ليس بواجب ضروري، وإذا لم يكن واجباً كان ممكناً، والإمكان طبيعة القوة فإذاً يكون له في جوهره قوة أن يبقى وفعل أن يبقى. وفعل أن يبقى منه لا محالة ليس هو قوة أن يبقى منه وهذا بَيِّن، فيكون إذاً فعل أن يبقى منه أمراً يعرض للشيء الذي له قوة أن يبقى منه، فتلك القوة لا تكون لذات ما بالفعل بل للشيء الذي يعرض له أن يبقى بالفعل لا بوجود ذاته.

فيلزم من هذا أن تكون ذاته مركبة من شيء كان به ذاته موجوداً بالفعل، وهو الصورة في كل شيء ومن شيء حصل له هذا الفعل وفي طباعه قوته وهو مادته، فإن كانت النفس بسيطة مطلقة لم تنقسم إلى مادة وصورة وإن كانت مركبة فلنترك المركب ولننظر في الجوهر الذي هو مادته ولنصرف القول إلى نفس مادته ولنتكلم فيها.

ونقول: إن تلك المادة إما أن تنقسم هكذا دائماً ونثبت الكلام دائماً وهذا

محال، وإما أن لا يبطل الشيء الذي هو الجوهر والسنخ<sup>(١)</sup>، وكلامنا في هذا الشيء الذي هو السنخ والأصل لا في شيء يجتمع منه ومن شيء آخر، فبيّن أن كل شيء هو بسيط غير مركب أو هو أصل مركب وسنخه فهو غير مجتمع فيه فعل أن يبقى وقوة أن يعدم بالقياس إلى ذاته، فإذا كانت فيه قوة أن يعدم فمحال أن يكون فيه فعل أن يبقى، وإن كان فيه فعل أن يبقى وأن يوجد فليس فيه قوة أن يعدم. فبيّن إذاً أن جوهر النفس ليس فيه قوة أن يفسد.

وأما الكائنات التي تفسد فإن الفاسد منها هو المركب المجتمع، وقوة أن تفسد وأن تبقى ليس في المعنى الذي به المركب واحد بل في المادة التي هي بالقوة قابلة كلا الضدين. نليس إذاً في الفاسد المركب لا قوة أن يبقى ولا قوة أن يفسد فلم يجتمعا فيه.

وأما المادة فإما أن تكون باقية لا بقوة تستعدّ بها للبقاء كما يظن قوم، وإما أن تكون باقية بقوة بها تبقى، وليس لها قوة أن تفسد بل قوة أن تفسد شيء آخر فيها يحدث، والبسائط التي في المادة فإن قوة فسادها هو في المادة لا في جوهرها. والبرهان الذي يوجب أن كل كائن فاسد من جهة تناهي قوة النفي والبطلان، إنما يوجب فيما كونه من مادة وصورة ويكون في مادته قوة أن يبقى فيه هذه الصورة وقوة أن تفسد فيها معاً. فقد بان إذاً أن النفس لا تفسد البتة وإلى هذا سقنا كلامنا والله ولي التوفيق.

---

(١) السنخ بكسر السين وسكون النون هو الأصل من كل شيء.

## بيان إثبات العقل المفارق الفعّال والعقل المنفعل في النفوس الإنسانية ومراتب العقول

وإثبات العقل الفعّال من حيث الشرع أظهر من أن يثبت لوروده جلياً في  
النصوص .

كقوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى﴾ [النجم: ٥، ٦]  
وكقوله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾  
[التكوير: ١٩، ٢٠] وكقوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من  
وراء حجاب أو يرسل رسولاً﴾ [الشورى: ٥١] .

وأما من حيث العقل فمن وجوه الأول ما ذكرناه قبل ذلك من ترتب  
الموجودات وتفاضلها، وأنها في أجسام البسائط تنتهي إلى العرش، وفي  
الروحانيات إلى العقل والنفس، وفي المركبات إلى جوهر محمد ﷺ . وقد بسطنا  
ذلك الفصل فلا نعيده<sup>(١)</sup> .

الوجه الثاني: قد بان لك أن المرسم بالصورة العقلية غير جسم ولا في جسم؛  
لأن الجسم ينقسم وما في الجسم أيضاً، والصور العقلية كلية متحدة لا تنقسم، فلو  
حلت جسماً لانقسمت، وانقسامها محال فحلوها في الجسم وما في الجسم محال .

وأنت تعلم أن المرسم بالصورة التي قبلها<sup>(٢)</sup> أعني الوهم والخيال والحس قوى  
مركوزة في الأجسام، وأن الصورة إذا كانت حاصلة في القوى لم تغب عنها،  
وأن الإنسان يدرك صوراً عقلية ثم تغيب عنه وإن أراد أن يعود إليها يعود على  
قرب من غير تكلف اكتساب بل يحتاج إلى الإقبال عليها . فهذه الصور العقلية  
التي غابت إما أن تكون قد انعدمت أو لم تنعدم، فإن انعدمت فينبغي أن يحتاج

(١) راجع من ص ١١٥ إلى ص ١١٩ .

(٢) أي التي قبل الصورة العقلية

إلى الاكتساب كما كان أولاً يُحتاج إليه ، وإن لم تنعدم فإما أن تكون في النفس أو في البدن أو خارجاً ، فإن كانت في النفس فينبغي أن تكون شاعرة بها عاقلة لأنه لا معنى للتعقل إلا حصول تلك الصورة في النفس ، ولا يجوز أن تكون في البدن لما ذكرنا أن المعقولات لا تحل الأجسام وما في الأجسام ، وإن كانت خارجة فإما أن تكون قائمة بنفسها أو تكون في جوهر آخر شأنه إفاض المعقولات على الأنفس البشرية ، ولا يجوز أن تكون قائمة بنفسها لأن المعاني قيامها بالجواهر فلا تقوم بنفسها ؛ فبقي أن تكون في الجوهر المفيض للمعقولات ، فثبت بهذا وجود ملك شأنه ما ذكرناه ؛ وذلك هو العقل الفعال وهو روح القدس <sup>(١)</sup> .

ثم الدليل على أن التعقل لا يكون غير التمثل فإنها لو غابت عنها ثم عاودتها لا يحصل غير التمثيل ، فلو كان هذا التمثيل ثابتاً للنفس كانت شاعرة بها عاقلة لها ، فيجب أن تكون الصورة قد زالت عن النفس زوالاً ما وهذا بخلاف ما يدركه الوهم ثم يغيب عنها ، فإن للقوة الوهمية خزاناً يحفظ مدركاتنا فمضى غابت عن الوهم والتفت إليها أخذت منه المعاني التي استفادت من الصور .

نعم لا ننكر أن الزوال يكون على قسمين ، فتارة يزول عن القوة الإدراكية ويتحفظ في قوة أخرى كالخازن لها ، وتارة يزول عن القوة وعن الخازن . ففي الوجه الثاني يحتاج إلى تحشم كسب جديد ، وعلى الأول لا يحتاج إلى كسب بل إلى التفات ومطالعة للخزانة من غير تحشم كسب . وفي المعقولات يحتمل

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن العقل الفعال عند بعض الفلاسفة هو الله نفسه . والعقل الفعال عند معتنقي نظرية الفيض ، عند الفارابي مثلاً ، هو العقل العاشر في سلسلة العقول التي تفيض عن العقل الأول والغزالي في نظريته هنا في العقل الفعال كونه ملكاً أو روح القدس يشير إلى كيفية الوحي من الله تعالى إلى النبي بواسطة الملك (العقل الفعال) بينما نظرية الفيض قد تؤدي إلى القول بالوحي المباشر من الله إلى النبي دون وساطة ملك ؛ وذلك لأن العقل العاشر الفعال في نظرية الفيض قد يفسر أنه هو الله نفسه المدبر للعالم .



القسمين، ولكن قد بينا أنه لا خازن لها لا في النفي ولا في البدن، فبقي أن يكون شيئاً خارجاً إذا وقع بين نفوسنا وبينه اتصال ما ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد لأحكام خاصة.

وإذا أعرضت النفس عنه إلى ما يلي العالم الجسداني أو إلى صورة أخرى، انجحى ما تمثل أولاً، كأن المرأة التي تحاذي بها جانب القدس قد أعرض بها عنه إلى جانب الحس أو إلى شيء آخر من أمور القدس. وهذا إنما يكون أيضاً إذا اكتسبت ملكة الاتصال بالعقل الفعال.

الوجه الثالث: أن النفس الإنسانية قد تكون عاقلة بالقوة ثم تصير عاقلة بالفعل، وكل ما خرج من القوة إلى الفعل فإنما يخرج بسبب هو بالفعل يخرج، فهنا سبب هو الذي يخرج نفوسنا في المعقولات من القوة إلى الفعل؛ وإذا هو السبب في إعطاء الصور العقلية فيكون عقلاً بالفعل عنده مبادئ الصور العقلية مجردة. فهذا الشيء سمي بالقياس إلى العقول التي تخرج منه إلى الفعل عقلاً فعالاً كما يسمى العقل الهولاني بالقياس إليه عقلاً منفعلاً، ويسمى العقل الكائن بينهما عقلاً مستفاداً.

ونسبة العقل الفعال إلى نفوسنا نسبة الشمس إلى أبصارنا، فكما أن الشمس تبصر بذاتها بالفعل ويُبصر بنورها ما ليس مبصراً بالفعل، كذلك حال هذا العقل عند نفوسنا، فإن القوة العقلية إذا اطلعت على الجزئيات في الخيال وأشرق نور العقل الفعال استحالت مجردة عن المادة وعلائقها وانطبع في النفس الناطقة، لا على أن نفسها تنتقل من التخيّل إلى العقل منا. ولا على أن المعنى المغمور في العلائق وهو في نفسه واعتباره مجرد يعقل مثل نفسه، بل على معنى أن مطالعتها تعد النفس لأن يفيض عليها المجرّد من العقل الفعال، فإن الأفكار والتأملات حركات معدة للنفس نحو قبول الفيض، كما أن الحدود الوسطى معدة بنحو أشد تأكيداً لقبول النتيجة؛ وإن كان الأول على سبيل والثاني على

سبيل فتكون النفس الناطقة إذا وقعت لها نسبة ما إلى هذه الصورة بتوسط إشراق العقل الفعال حدث فيها شيء من جنسها من وجه وليس من جنسها من وجه، كما أنه إذا وقع انضواء على الملونات فعل في البصر منها أثراً ليس على جملتها من كل وجه. فالخيالات التي هي معقولات بالقوة تصير معقولات بالفعل لا أنفسها بل ما يلتقط عنها، كما أن الأثر المتأدي بواسطة الضوء من الصور المحسوسة ليس هو نفس تلك الصور بل شيئاً آخر مناسباً لها يتولد بتوسط الضوء في القابل المقابل، كذلك النفس الناطقة إذا طالعت تلك الصور الخيالية واتصل بها نور العقل الفعال ضرباً من الاتصال استعدت لأن يحدث فيها من ضوء العقل مجردات تلك الصور من الشوائب، فأول ما يتميز عند العقل الإنساني أمر الذاتي منها والعرضي وما به يتشابه به وما به يختلف، فتصير المعاني معنى واحداً في ذات العقل بالقياس إلى التشابه، لكنه بالقياس إلى ما تختلف به تصير معاني كثيرة، فيكون للعقل قوة على تكثير الواحد من المعاني وعلى توحيد الكثير؛ أما توحيد الكثير فمن وجهين:

أحدهما أن تصير المعاني الكثيرة المختلفة في التخييلات بالعدد إذا كانت لا تختلف في الحد معنى واحداً.

والثاني أن تتركب من معاني الأجناس والفصول معنى واحداً بالحد ويكون وجه التكثير بعكس هذين الوجهين. فهذا من خواص العقل الإنساني وليس ذلك لغيره من القوى، فإنها تدرك الكثير كثيراً كما هو، والواحد واحداً كما هو، ولا يمكنها أن تدرك الواحد البسيط بل الواحد من حيث هو جملة مركبة من أمور وأعراضها، ولا يمكنها أن تفصل العرضيات وتنزعها عن الذاتيات، فإذا عرض الحس على الخيال صورة وعرض الخيال على العقل تلك الصورة، يأخذ العقل منها معنى، فإن عرض عليه صورة وأخرى من ذلك النوع وإنما هو آخر بالعدد لم يأخذ منه العقل صورة ما غير ما أخذه أولاً إلا من جهة العرض

الذي يخص هذا من حيث ذلك العرض بأن يأخذه مرة مجرداً ومرة مع ذلك العرض، ولأجل هذا يقال إن زيداً وعمراً لهما معنى واحد في الإنسانية، أعني أن السابق منها إذا أفاد النفس صورة الإنسانية فإن الثاني لا يفيد البتة شيئاً من ذلك المعنى بل يكون المعنى المنطبع منها في النفس واحداً هو عن الخيال الأول ولا تأثير للخيال الثاني وللعقل إذا أدرك أشياء فيها تقدم وتأخر أن يعقل معها الزمان ضرورة ويكون ذلك لا في زمان بل في آن، والعقل يعقل الزمان في آن.

وأما تركيبه للحد والقياس فهو لا محالة يكون في زمان، إلا أن تصور النتيجة والمحدود يكون دفعة، والعقل ليس قصوره عن تصور الأشياء التي هي في غاية المعقولة والتجريد عن المادة لأمر في ذات تلك الأشياء، ولا لأمر في غريزة العقل، بل لأجل أن العقل مشغول بالبدن ويحتاج في كثير من الأمور إلى البدن، فيبعده البدن عن أفضل كمالاته، فإذا زال عنه هذا الغمور كان تعقل النفس للمجردات أفضل التعقلات وأوضحها وألذها.

وأما مراتب العقل من الهيولاني والملكة والعقل بالفعل والعقل المستفاد فقد ذكرناها، وأما العقل القدسي فسنذكره إن شاء الله تعالى في خصائص النبوة.

## قاعدة في النبوة والرسالة

وتشتمل على بيانات: بيان أن الرسالة هل تقتنص بالحد أم لا، وبيان أن الرسالة مكتسبة أم أثره ربانية، وبيان إثبات الرسالة بالبرهان، وبيان خواص الرسالة وهي المعجزات، وبيان كيفية الدعوة وما يؤخذ من السمع وما لا يؤخذ.

## بيان أن الرسالة لا تقتنص بالحد والحقيقة بذكر جنسها وفصلها

وذلك لأن معرفة الأشياء لا تتوقف على الظفر بحدودها ووجدان جنسها وفصلها، فكم من موجود لا جنس له ولا فصل ولا حد ولا رسم، وما له جنس وفصل فرجاً لا يظفر بجنسه وفصله، وأكثر الأمور كذلك، فإن إعطاء الحدود صعب عسر على الأذهان.

نعم يستدل على وجوده وحقيقته بآثاره، فإن العقل والنفس وكثيراً من المفارقات تتصور ولا حد لها ولا رسم، وإنما يدل عليها برهان إن؛ ولو سأل سائل نبياً من الأنبياء عن خواص الرسالة وماهيتها وإبراز حدّها بجنسها وفصلها ترى كيف كان جوابه عنها؟ أو كان يشرع في تحقيق ذلك وذكر حده ورسمه وتعدد خواصه حتى تتوقف رسالته على معرفة ذلك كله، وإن لم يعرف المستجيب ذلك لا يمكنه تصديقه؟ أم كان يجب عليه التصديق في الحال سواء عرف حد الرسالة أو لم يعرف. وإذا كانت الرسالة مرتبة فوق مرتبة الإنسانية كما كانت الإنسانية مرتبة فوق مرتبة الحيوانية، لم يتوقف اتباع الرسول على معرفة الرسالة كما يتوقف استسخار الحيوان على معرفة الإنسانية؛ بل الإنسان لو أراد تعريف الحيوان خواص الإنسانية كان ذلك سفهاً منه وتكليف ما لا يطاق، كذلك لو أراد الرسول تعريف الإنسان خواص الرسالة كان ذلك تكليفاً منه بما لا يطاق؛ فلا المطالبة متوجهة عليه ولا الجواب عنه لازم؛ وهذا كما طالب فرعون موسى عليه السلام بذكر ماهية رب العالمين قال ﴿وما ربّ العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ [الشعراء: ٢٤] وطالبه ثانياً وثالثاً فلم يأت بحد ولا رسم، ولم يذكر جنساً ولا فصلاً في تعريف ما سألته إلا بالربوبية المحضة، والتعريف بالحقائق مكانياتها وزمانياتها والمواليد التي بين المكان والزمان.

## بيان أن الرسالة هل هي خطوة مكتسبة أم أثره ربانية

فنقول: اعلم أن الرسالة أثره علوية وخطوة ربانية وعطية إلهية لا تكتسب بجهد ولا تنال بكسب ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴿[الشورى: ٥٢] لكن الجهد والكسب في إعداد النفس لقبول آثار الوحي بالعبادات المشفوعة بالفكر والمعاملات الخالصة عن الرياء والسמعة من لوازمها. فليس الأمر فيها اتفاقياً جزافياً حتى ينالها كل من دب ودرج، أو مرتباً على جهد وكسب حتى يصيبها كل من فكر وأدّج. وكما أن الإنسانية لنوع الإنسان والملكية لنوع الملائكة ليست مكتسبة لأشخاص النوع، وأن العمل بموجب النوعية ليس يخلو عن اكتساب واختيار لإعداد واستعداد، كذلك النبوة لنوع الأنبياء ليست مكتسبة لأشخاص النوع، وأن العمل بموجب النبوة ليس يخلو عن اكتساب واختيار لإعداد واستعداد، فيوحي إليه ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ١، ٢] حين تورّمت قدماء من العبادة حتى قال عليه السلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً» وكان ﷺ يتحنّث بجراء قبل الوحي، وحبب إليه الخلوة، وكان يرى الرؤيا فتأتي مثل فلق الصبح. على أنها أحوال عرضية وأعراض طارئة على النوعية بنوع استيجاب واستحقاق من كمال تركيب المزاج، وحسن الصورة، وتمام الاعتدال، وطهارة النشو والتربة، وطيب الأعراق، ومكارم الأخلاق، والسمت الصالح، والأناة والوقار ولين الجانب، وخفض الجناح، والرحمة والرافة بالأولياء، والشدة والبأس على الأعداء، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والصون عن جميع الرذائل، والتحلي بأنواع الفضائل، وزكاة العرض عن جميع الدنيات، والعفو عمن ظلمه والإحسان إلى من أساء إليه، وصلة الرحم، وحفظ الغيب، وحسن الجوار، وإعانة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وحب المعروف، وبغض المنكر، وغير ذلك ﴿ما ضلّ صاحبكم وما

غوى ﴿ [ النجم: ٢ ] في هذا العالم ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [ النجم: ١٧ ] في ذلك العالم. تعنو لنفسه نفوس العالمين طوعاً وكرهاً، وهو غير متكبر ولا جبار ولا فظّ ولا غليظ. يُهاب إذا سكت ولا يعاب إذا نطق، لطيف الشماثل إذا تحرك وسكن، قد نهض باحتمال أعباء ما حل من الرسالة فأداها، وأفاض رحمته على العالمين فوقها، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين.

## بيان إثبات الرسالة بالبرهان

بيان إثباتها بطريقتين: أحدهما جملي، والآخر تفصيلي.

أما الجملي فهو كما أن نوع الإنسان تميز عن سائر الحيوانات بنفس ناطقة هي فوقها بالفضيلة العقلية، والمسخرة لها، والمالكة عليها، والمتصرف فيها، كذلك نفوس الأنبياء عليهم السلام تميزت عن نفوس الناس بعقل هادٍ مهديّ هو فوق العقول كلها بالفضيلة الربانية المدبرة لها، والمالكة عليها، والمتصرف فيها؛ وكما أن حركات الإنسان معجزات للحيوان فليس حيوان يتحرك مثل حركته الفكرية والقولية والفعلية، كذلك جميع حركات النبيّ معجزات للإنسان فليس إنسان يتحرك مثل حركته الفكرية والقولية والفعلية.

وكما تميز النبيّ عن الناس بعقله المناسب للعقول المفارقة والعقل الأول، كذلك تميز بنفسه المشاكلة لنفوس السموات والنفس الفلكية، وكذلك تميز بطبعه ومزاجه المستعد لقبول مثل هذا العقل والنفس بالفعل. وكما لا يتصور في سنة الفطرة الإلهية أن يكون من نطفة كل حيوان إنسان، كذلك لا يتصور في سنة الفطرة أن يكون من نطفة كل إنسان نبيّ؛ الله يخلق ما يشاء ويختي ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ [ الحج: ٧٥ ] فهو المختار في طبعه ومزاجه المصطفى بنفسه وعقله لا يشاركه فيها أحد من الناس.

ومن وجه آخر: النبيّ إذا شارك الناس في البشرية والإنسانية من حيث

الصورة فقد باينهم من حيث المعنى، إذ بشرته فوق بشرية الناس، لاستعداد بشرته لقبول الوحي: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ [الكهف: ١١٠] أشار إلى طرف المشابهة من حيث الصورة ﴿يوحى إليّ﴾ أشار إلى طرف المباينة من حيث المعنى.

أما من حيث التفصيل فمن طرق<sup>(١)</sup>:

**الطريق الأول:** برهان أنشيء من الحركات الاختيارية وهي أقسام ثلاثة: فكرية، وقولية، وعملية؛ والحركة الفكرية يدخلها الحق والباطل، والقولية يدخلها الصدق والكذب، والعملية يدخلها الخير والشر. وهذه العبارات اصطلاحية والمعنى مستقيم فيها مفهوم عنها، ولا يشك في أنها على تضادها واختلافها ليست واجبة الفعل بجملتها واجبة التحصيل، فإن من أفق بهذه الفتوى يكون مستحق القتل بفتواه، لأن قتله من جملة الحركات وهو واجب الفعل وليس كلها واجب الترك، فإن من أفق بهذا ينبغي أن لا يتنفس لأن التنفس منه حركة وهي واجبة الترك؛ فظهر من هذا أن بعضها واجب الترك وبعضها واجب الفعل. وإذا ثبت هذا فقد ثبت حدود في الحركات حتى كان بعضها خيراً واجب الفعل وبعضها شراً واجب الترك. فالتمييز بين حركة وحركة بالحدود؛ ولا يخلو إما أن يعرفه كل واحد أو لا يعرفه أحد أو يعرفه بعض دون بعض، وظاهر أنه لا يعرفه كل واحد وباطل أنه يعرفه كل أحد، فظهر أنه يعرفه أحد دون أحد؛ فثبت بالتقسيم الأول حدود في الحركات، وثبت بالتقسيم الثاني أصحاب حدود يعرفونها وهم الأنبياء وأصحاب الشرائع عليهم الصلاة والسلام. والإنسان إذا راجع نفسه علم أنه إذا لم يكن عارفاً بالحدود يجب أن يكون في حكم أصحاب الحدود؛ فثبت وجود النبوة بضرورة الحركات.

(١) أي إثبات الرسالة بالبرهان من حيث التفصيل.

**الطريق الثاني:** أن نقول إن نوع الإنسان محتاج إلى اجتماع على صلاح في حركاته الاختيارية ومعاملاته المصلحة، ولولا ذلك الاجتماع ما بقي شخصه ولا انحفظ نوعه ولا احتسرس ماله وحرمة؛ وكيفية ذلك الاجتماع تسمى ملة وشريعة.

وبيان ذلك أنه في استبقاء حياته واستحفاظ نوعه وحراسة ماله وحرمة يحتاج إلى تعاون وتمانع: أما التعاون فلنحصيل ما ليس له مما يحتاج إليه في مطعمه وملبسه ومسكنه؛ وأما التمانع فلحفظ ما له من نفسه وولده وحرمة وماله. وكذلك في استحفاظ نوعه يحتاج إلى تعاون في الازدواج والمشاركة، وتمانع يحفظ ذلك على نفسه. وهذا التمانع والتعاون يجب أن يكونا على حد محدود وقضية عادلة وسنة جامعة مانعة؛ ومن المعلوم أن كل عقل لا يفهم بتمهيد هذه السنة على قانون يشمل مصالح النوع جملة ويخص حال كل شخص تفصيلاً، إلا أن يكون عقل مؤيد بالوحي مقيض للرسالة مستمد من الروحانيات التي قيتضت لحفظ نظام العالم، وهم بأمره يعملون وعلى سنته في الخلق سائرون وبحكمه حاكمون، فيكون الفيض متصلاً بها من المقادير في الأحكام. ثم منها فائضاً على الشخص المتحمل لتلك الأمانة القابل لأسرار الديانة، يتبع الحق في جميع الأمور ويتبعه الخلق في جميع الحركات، يكلم الناس على مقادير عقولهم بعقله الواقف على تلك المقادير، ويكلف العباد على قدر استطاعتهم بقدرته المحيطة بتلك الأقدار.

وهذه الدلائل فروع لأصل واحد وهو إثبات الأمر لله عز وجل وهو **الطريق الثالث** لإثبات النبوة. ومن لم يعترف بأمره لم يعترف بالنبوة قط، فإن النبي متوسط الأمر كما أن الملك متوسط الخلق والأمر. وكما وجب الإيمان بالله من حيث الخلق والأمر وجب الإيمان بالله بمتوسط الخلق والأمر ﴿كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والطريق في إثبات الأمر على نوعين:

**أحدهما:** أن الممكنات كما احتاجت إلى مرجع لجانب الوجود على العدم،



وأن الحركات كما احتاجت بتجدها إلى محرك يديهما بالتعاقب، ثم المائلة من الحركات إلى غير ما مالت عنه والمختلفات منها إلى غير جهاتها الطبيعية احتاجت إلى كون المحرك مريداً مختاراً، ثم المتوجهة منها إلى نظام الخير دون الفساد والشر احتاجت إلى كون المحرك آمراً أمر التدبير، وذلك قوله تعالى ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ [فصلت: ١٢] ثم الحركات الإنسانية كما احتاجت إلى إرادة عقلية في جهاتها المتباينة، كذلك احتاجت إلى مكلف أمرناه في حدودها المختلفة، حتى يختار المكلف الحقّ دون الباطل في الحركات الفكرية، والصدق دون الكذب في الحركات القولية، والخير دون الشر في الحركات العملية. وكما أن أمر التدبير جار على عموم الخلق لنظام وجود العالم الكبير كله وذلك قوله تعالى ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤] كذلك أمر التكليف جار على خصوص الخلق لنظام وجود العالم الصغير وذلك قوله تعالى ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ [البقرة: ٢١] وكذلك جميع الأوامر والنواهي المتوجهة على الناس. وكما أوحى في كل سماء أمرها بواسطة ملك، كذلك أوحى في كل زمان أمره بواسطة نبي؛ فذلك هو التقدير وهذا هو التكليف.

**الطريق الثاني في إثبات الأمر الأول أن نقول:** قد ثبت وتحقق بالبراهين أن الأول المبدع ملك مطاع، فله الخلق كله ملكاً ومُلكاً. ولكل ملك في سلطانه أمر ونهي وترغيب وترهيب ووعد ووعد؛ ولا يجوز أن يكون أمره محدثاً مخلوقاً، فإن المخلوق من حيث هو مخلوق لا يدل إلا على خالق، فليس له دلالة على الأمر بمعنى الاقتضاء والطلب والتكليف والتعريف والحث والزجر والترغيب والترهيب. ومن لم يثبت لله عز وجل أمراً يطاع فقد أحال كل هذه الأوامر والنواهي والتذكيرات والتنبيهات على من أذع النبوة مقصورة عليه غير متعدية عنه، وما يضيفه إلى الله تعالى من: «قال الله» و«ذكر الله» و«أمر الله» و«نهي الله» و«وعد الله» و«أوعده الله» يكون مجازاً لا حقيقة، وترويحاً للكلام على

العامّة لا تحقيقاً ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يُوحِ إليه شيء﴾ [ الأنعام: ٩٣ ] فقد نسبوا النبي الذي في أعلى درجات الإنسان إلى أشد الظلم الذي هو أسفل الدرجات والخيانة التي هي أخبث السيئات؛ جلّ منصب النبوة عن ذلك .

## بيان خواص النبوة

ولها خواص ثلاث :

إحداها تابعة لقوة التخيل والعقل العملي ، والثانية تابعة لقوة العقل النظري ، والثالثة تابعة لقوة النفس .

**الخاصية الأولى:** اعلم أولاً أنه ليس يمكن أن يبرهن على مبادئ العلوم ومقدماتها من العلوم نفسها ؛ فيسلم لنا ههنا أن كل معلول معلول فيجب أن يلزم عن علته حتى يوجد ، وما دام ممكن الوجود عنه بعد فليس يوجد ، وأن الحركة السماوية اختيارية ، وأن الحركة الاختيارية لا تلزم إلا عن اختيار بالغ موجب للفعل ، وأن الاختيار للأمر الكلي لا يوجب أمراً جزئياً فإنه إنما يلزم الأمر الجزئي بعينه عن اختيار جزئي يخصه بعينه ، وأن الحركات التي توجد بالفعل كلها جزئية ، فيجب إن كانت اختيارية أن تكون عن اختيار جزئي ، فيجب أن يكون المحرك لها مدركاً للجزئيات ولا يكون البتة عقلاً صرفاً بل يكون نفساً تستعمل آلة جسمانية تدرك بها أموراً جزئية إدراكاً إما أن يكون تخيلاً أو تعقلاً عملياً هو أرفع من التخيل ، وله أيضاً عقل كلي يستمد من العقل المفارق الذي يدرك العلوم الكلية . وهذا كله مبين في العلوم الإلهية .

فيظهر من تسليم هذه أن الحركات السماوية يحرك كل واحد منها جوهر نفساني يتعلل الجزئيات بالنحو من التعقل الذي يخصها ، ويرسم فيه صورها

وصور الحركات التي يختارها كل واحد منها، ويجاوزه حتى تكون هيئات الحركات تتحدد فيها دائماً، حتى تتحدد الحركات، ويكون يتصور لا محالة حينئذ الغايات التي تؤدي إليها الحركات في هذا العالم، ويتصور هذا العالم أيضاً بتفصيله وتلخيصه والأجزاء التي فيه لا يعزب عنه شيء. ويلزم ذلك أن يتصور الأمور التي تحدث في المستقبل؛ وذلك أنها أمور يلزم وجودها عن النسبة التي بين الحركات المتعلقة عنها بالشخصية، والنسب التي بين الأمور التي ههنا، والنسب التي بين هذه الأمور وتلك الحركات. فلا يخرج شيء البتة من أن يكون حدوثه في المستقبل لازماً لوجود هذه على ما هي عليه في الحال؛ فإن الأمور إما أن تكون بالطبع، وإما أن تكون بالاختيار، وإما أن تكون بالاتفاق. والتي تكون عن الطبع إنما تكون باللزوم عن الطبع، إما طبع حاصل ههنا أولاً، أو طبع حادث ههنا عن طبع ههنا، أو طبع حادث ههنا عن طبع سماوي.

وأما الاختيارات فإنها تلزم الاختيار، والاختيار حادث، وكل حادث بعد ما لم يكن فله علة وحدوثه بلزومه، وعلته إما شيء كائن ههنا على إحدى الجهات أو شيء سماوي أو شيء مشترك بينهما.

وأما الاتفاقيات فهي احتكاكات ومصادمات بين هذه الأمور الطبيعية والاختيارية بعضها مع بعض في مجاريها؛ فيكون إذاً الأشياء الممكنة ما لم تجب لم توجد؛ وإنما تجب لا بذاتها بل بالقياس إلى عللها، وإلى الاجتماعات التي لعل شق؛ فإذاً يكون كل شيء متكون متصوراً بجميع الأحوال الموجودة في الحال من الطبيعة والإرادة الأرضية والسماوية، والمأخذ كل واحد منها ومجراه في الحال، فإنه يتصور ما يجب عن استمرار هذه على مأخذها من الكائنات ولا كائنات إلا ما يجب عنها كما قلنا؛ فالكائنات إذاً قد ندرك قبل الكون، ولا من جهة ما هي ممكنة بل من جهة ما يجب؛ وإنما لا ندرك نحن لأنه إما أن يخفى علينا جميع أسبابها الآخذة نحوها، أو يظهر لنا بعضها ويخفى

علينا بعضها؛ فبمقدار ما يظهر لنا منها يقع لنا حدس وظنّ بوجودها، وبمقدار ما يخفى علينا منها يتداخلنا الشك في وجودها.

وأما المحركات للأجرام السماوية فيحصرها جميع الأحوال المتقدمة معاً، فيلزم جميع الأحوال المتأخرة معاً، فتكون الهيئة للعالم بما يريد أن يكون فيه يرتسم هناك. ثم تلك الصور لا وحدها بل الصور العقلية التي في الجواهر المفارقة غير محتجة عن أنفسنا بحجاب البتة من جهتها؛ إنما الحجاب هو في قبولنا إما لضعفنا أو لاشتغالنا بغير الجهة التي عندها يكون الوصول إليها والاتصال بها. وأما إذا لم يكن أحد المعنيين فإن الاتصال بها مبذول، وليست مما تحتاج أنفسنا في إدراكها إلى شيء غير الاتصال بها ومطالعتها. فأما الصور العقلية فإن الاتصال بها بالعقل النظري.

فأما هذه الصور التي الكلام فيها فإن النفس إنما يتصورها بقوة أخرى وهو العقل العملي، ويخدمه في هذا الباب التخيل، فتكون الأمور الجزئية تنالها النفس بقوتها التي تسمى عقلاً عملياً من الجواهر العالية النفسانية، وتكون الأمور الكلية تنالها النفس بقوتها التي تسمى عقلاً نظرياً من الجواهر العالية العقلية التي لا يجوز أن يكون فيها شيء من الصور الجزئية البتة. وتختلف الاستعدادات للنفوس جميعاً في الأنفس، خصوصاً الاستعداد لقبول الجزئيات، بالاتصال بهذا الجواهر النفسانية؛ فبعض الأنفس يضعف فيها ويقلّ هذا الاستعداد لضعف القوة المتخيلة، وبعضها لا يكون فيه هذا الاستعداد أصلاً لضعف القوة المتخيلة أيضاً، وبعضها يكون هذا فيه أقوى حتى أن الحس إذا ترك استعماله القوة المتخيلة وترك شغله بما يورد عليها جذبتها القوة العملية إلى تلك الجهة حتى انطبع فيها تلك الصور. إلا أن القوة المتخيلة لما فيها من الغريزة المحاكية والمتقلبة من شيء إلى غيره، تترك ما أخذت وتورد شبيهه أو ضده أو مناسبه، كما يعرض لليقظان من أنه يشاهد شيئاً فينعطف عليه التخيل إلى أشياء أخرى

يحضرها مما يتصل به بوجه حتى ينسبه الشيء الأول، فيعود على سبيل التحليل والتخمين ويرجع إلى الشيء الأول بأن يأخذ الحاضر مما قد تأدى إليه الخيال فيقطن أنه خطر في الخيال تابعاً لأي صورة تقدمته وتلك لأي صورة أخرى، وكذلك حتى ينتهي إلى البدء ويتذكر ما نسيه. كذلك التعبير هو تحليل بالعكس لفعل التخيل حتى ينتهي إلى الشيء الذي تكون النفس شاهدته حين اتصالها بذلك العالم وأخذت المتخيلة تنتقل عنه إلى أشياء أخرى.

فهذه طبقة؛ وطبقة أخرى يقوى استعداد نفسها حتى تستثبت ما نالته هناك، ويستقر عليه الخيال من غير أن يغلبه الخيال وينتقل إلى غيره، فتكون الرؤيا التي لا تحتاج إلى تعبير.

وطبقة أخرى أشد تهيؤاً من تلك الطبقة، وهم القوم الذين بلغ من كمال قوتهم المتخيلة وشدتها أنها لا تستغرقها القوى الحسية في إيراد ما يورد عليها حتى يمنعها ذلك عن خدمة النفس الناطقة في اتصالها بتلك المبادئ الموحية إليها بالأمور الجزئية، فيتصل لذلك في حال اليقظة ويقبل تلك الصور.

ثم إن المتخيلة تفعل مثل ما تفعل في حال الرؤيا المحتاجة إلى التعبير بأن تأخذ تلك الأحوال وتحاكيها، وتستولي على الحسية حتى يؤثر ما يتخيل فيها من تلك في قوة بنطاسيا بأن تنطبع الصور الحاصلة فيها في البنطاسيا المشاركة، فيشاهد صوراً إلهية عجيبة مرئية، وأقاويل إلهية مسموعة، هي مثل تلك المدركات الوحيية؛ وهذه أدون درجات المعنى المسمى بالنبوة.

وأقوى من هذا أن يستثبت تلك الأحوال والصور على هيئتها مانعة للقوة المتخيلة على الانصراف إلى محاكاتها بأشياء أخرى.

وأقوى من هذه أن تكون المتخيلة مستمرة في محاكاتها، والعقل العملي والوهم لا يتخيلان عما استبناه، فثبت في الذاكرة صورة ما أخذت، وتقبل المتخيلة على بنطاسيا وتحاكي فيه ما قبلت بصورة عجيبة مسموعة ومبصرة. ويؤدي كل

واحد منها على وجهه. وهذه طبقات النبوة المتعلقة بالقوى العقلية العملية والخيالية. وانظر قصص القرآن كيف أتت على جزئياتها كأنه شاهدها وحضرها، وكأنها كانت بمراى من النبي ومسمع، وكيف صدقت بحيث لم ينكرها أحد من منكري النبوة! ولا يتعجب متعجب من قولنا إن التخيل قد يرتسم في بنطاسيا فيشاهد، فإن المجانين قد يشاهدون ما يتخيلون، ولذلك علة تتصل بإبانة السبب الذي لأجله يعرض للممرورين أن يخبروا بالأمر الكائنة فيصدقون في الكثير؛ ولذلك مقدمة وهي أن القوة المتخيلة كالموضوعة بين قوتين مستعملتين لها سافلة وعالية: أما السافلة فالحس، فإنها تورد عليها صوراً محسوسة تشغلها. وأما العالية فالعقل، فإنه بقوته يصرفها عن التخيل للكاذبات التي لا تورد لها الخواص عليها ولا يستعملها العقل فيها. واجتماع هاتين القوتين على استعمالها يحول بينها وبين التمكن من إصدار أفعالها الخاصة على التمام، حتى تكون الصورة التي تحضرها بحيث ينطبع في بنطاسيا انطباعاً تاماً فيحس، فإذا أعرض عنها إحدى القوتين لم يبعد أن يقام الأخرى في كثير من الأحوال فلم يمتنع عن فعلها فتمنعها، فتارة تتخلص عن مجاذبة الحس فتقوى على مقاومة العقل وتمنع فيما هو فعلها الخاص غير ملتفتة إلى معاندة العقل، وهذا في حال النوم وعند إحضارها الصورة كالمشاهدة؛ وتارة تتخلص عن سياسة العقل عند فساد الآلة التي يستعملها العقل في تدبير البدن، فيستعصي على الحس ولا يمكنها من شغلها بل يعين إيراد أفعالها حتى يصير ما ينطبع فيها من الصور كالمشاهدة لانطباعه في الخواص وهذا في حال الجنون.

وقد يعرض مثل ذلك عند الخوف، لما يعرض من ضعف النفس وانحذالها واستيلاء الوهم والظن المعينين للتخيل على العقل، فيشاهد أموراً موحشة، فالممرورون والمجانين يعرض لهم أن يتخيلوا ما ليس موجوداً بهذا السبب. وأما إخبارهم بالغيب، فإنما يتفق أكثر ذلك لهم عند أحوال كالصرع

والغشى الذي يفسد حركات قواهم الحسية، وقد يعرض أن يكلّ قوتهم المخيلة لكثرة حركاتهم المضطربة لأنها قوة بدنية، وتكون مهمهم عن المحسوسات مصروفة فيكثر رفضهم للحس. وإذا كان كذلك فقد يتفق أن لا تشتغل هذه القوة بالحواس اشتغلاً مستغرقاً، ويعرض لها أدنى سكون عن حركاتها المضطربة، ويسهل أيضاً انجذابها مع النفس الناطقة، فيعرض للعقل العملي اطلاع إلى أفق عالم النفس المذكور، فيشاهد ما هناك، ويتأدى ما يشاهده إلى الخيال، فيظهر فيه كالشاهد المسموع، فحينئذ إذا أخبر به الممرور وخرج وفق مقاله يكون قد تكهن بالكائنات المستقبلية.

والآن فيجب أن نختم هذا البيان فقد أدبنا فيه نكت الأسرار المكتومة والله الموفق.

فإن قال قائل: إذا كان أصحاب الجن والكهنة والعرافون وبعض المجانين ربما يخبرون عن الغيب ويصدق خبرهم، وينذرون بالآيات ويتحقق أثرها، فبطلت الخاصية النبوية.

فالجواب أن نقول: قد بينا قبل ذلك في البيانات المتقدمة أن التخيل في الحيوانات على تفاوت وتفاضل وتضاد وترتب، حتى قال بعض الحكماء: إن أعلى درجاته أن تصل النفس إلى النفس التي هي مدبر فلك القمر الذي هو واهب الصور. ولولا أن الجزئيات من الموجودات الكائنة الفاسدة متصورة متخيلة في ذات النفس الفلكي لما أفاض على كل مادة ما تستحقه من الصور، ولا مانع لها من تصور اللوازم الجزئية لحركاتها الجزئية من الكائنات عنها في العالم العنصري، وكأنه بهذا المعنى صار للأجسام السماوية زيادة معنى على العقل المفاوق لتظاهر رأي جزئي وآخر كلي، وإن كان الرأي الكلي مستمدّاً من العقول. فإذا فهمت هذا فللنفوس البشرية أن تنتقش من ذلك العالم بحسب الاستعداد وزوال المانع

وتكون كالمرآة المقابلة للنفس الفلكي حتى يقع فيها جميع ما في النفس الفلكي،  
فإلى هذا الحد عظموا أمر الخيال.

وأما في جانب السفلى، فإلى حيوان عديم التخيل أو ضعيف التخيل سريع  
النسيان، لا يمكنه أن يستثبت الصورة ساعة أو لحظة، بل يتجدد له الخيالات  
بحسب تجدد الحركات، وهذا على غلط التفاوت بالتفاضل، وأما ما هو على غلط  
التفاوت بالتضاد فكخيال وتخيل كله حق نشأ عن نفس خيرة، وكخيال وتخيل  
كله باطل نشأ عن نفس شريرة، وكخيال وتخيل بين الطرفين: إن التفتت إلى  
الخير التحق به، وإن التفتت إلى الشر التحق به. وههنا غلط آخر من الكلام،  
وهو إثبات عقل مجرد عن كل خيال، وإثبات خيال مجرد عن كل عقل، وإثبات  
عقل كله خيال، وإثبات خيال كله عقل. وههنا حس عمل من خيال، وخيال  
عمل من حس، وعقل عمل من خيال، وخيال عمل من عقل، وههنا علم على  
مزاج الظن، وظن على مزاج العلم ﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله  
أحداً﴾ [الجن: ٧] إشارة إلى الظن الأول ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في  
الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ [الجن: ١٢] إشارة إلى الظن الثاني. واختصاص  
الظن بالجن في القرآن لسر في خصائص الجن، وهو أن وجودهم خيالي  
وتصوراتهم خيالية وصورهم لا تتراءى إلا للخيال، وكما أن الخيال على وسط  
بين الحس والعقل فكل ما هو خيالي على وسط بين الجسماني والروحاني كالجن  
والشياطين. والأوساط أبداً تكون ممزوجة من الطرفين أو تكون خالية عن  
الطرفين.

أما الخاصية الثانية للنبوة وهي تابعة للقوة النظرية، فنقول: من المعلوم الظاهر  
أن الأمور المعقولة التي يتوصل إلى اكتسابها في القياس؛ وهذا الحد الأوسط قد  
يحصل على ضربين من الحصول: فتارة يحصل بالحدس؛ والحدس هو فعل الذهن  
يستنبط بذاته الحد الأوسط، والذكاء قوة الحدس؛ وتارة يحصل بالتعلم ويتأدى



التعليم إلى الحدس، فإن الابتداء ينتهي لا محالة إلى حدوس استنبطها أرباب تلك الحدوس ثم أدّوها إلى المتعلمين. فجائز أن يقع للإنسان بنفسه الحدس وأن يعتقد في ذهنه القياس بلا معلم بشري؛ وهذا يتفاوت بالكم والكيف: أما في الكم فلأن بعض الناس يكون أكثر حدساً للحدود الوسطى. وأما بالكيف فلأن بعض الناس يكون أسرع زمان حدس؛ ولأن هذا التفاوت ليس منحصراً في حد بل يقبل الزيادة والنقصان: فمنهم غي لا يعود عليه الفكر برادة، ومنهم له فطنة إلى حد ما ويستمتع بفكره، ومنهم من هو أثقب من ذلك وله إصابة في المعقولات. وتلك الثقابة غير متشابهة في الجميع، بل ربما قلت وربما كثرت؛ فكما أنك تجد جانب النقصان ينتهي إلى حدّ يكون منعدم الحدس، فأيقن أن جانب الزيادة يمكن أن ينتهي إلى حدّ يستغني في أكثر أحواله عن التعلم والتفكير، فيحصل له العلوم دفعة، ويحصل معه الوسائط والدلائل. فيمكن إذاً أن يكون شخص من الناس مؤيد النفس لشدة الصفاء وكمال الاتصال بالمبادئ العقلية إلى أن يشتعل حدساً في كل شيء، فيرتسم فيه الصورة التي في العقل الفعّال إما دفعة وإما قريباً من دفعة: ارتساماً لا تقليدياً بل يقينياً مع الحدود الوسطى والبراهين اللائحة والدلائل الواضحة.

والفرق بين الحدس والفكر، أن الفكرة هي حركة للنفس في المعاني مستعيناً بالتخيل في أكثر الأمور، يطلب بها الحد الأوسط وما يجري مجراه مما يقاربه إلى علم بالمجهول حالة الفقد استعراضاً للمخزون في الباطن وما يجري مجراه، وربما تأدت إلى المطلوب وربما انبثت. وأما الحدس فهو أن يتمثل الحد الأوسط في الذهن دفعة بأن يعلم العلة فيعلم المعلول، أو يعلم الدليل فيحصل له العلم بالمعلول دفعة أو قريباً من دفعة. وهذا الحصول تارة يكون عقيب طلب وشوق، وقد يكون من غير طلب واشتياق، بأن يكون نفساً شريفة قوية مستضيئة في نفسها، فيحصل له العلوم ابتداء كأنه ما تخلى إلى اختياره، يكاد زيتها يضيء ضوء

الفطرة ولو لم تمسه نار الفكرة، ولا يفارق طريق الإلهام والحدس طريق الاكتساب والفكر في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه؛ لأن محل العلم النفس. وسبب العلم العقل الفعّال، أو الملك المقرب، ولكن يفارقه في جهة زوال الحجاب، فإن ذلك ليس باختيار العبد، ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم.

سؤال: فإن قال قائل إذا كان هذه القوة الحدسية موجودة في غير النبي فإن الإنسان يجد في نفسه هذا الحدس في مسائل كثيرة. ولكل أحد في صناعته حدوس، فإن شرط في النبي أن يكون في جميع المعقولات، فهو شرط غير موجود، فإنه ربما يمتنع عليه الحدس في مسألة أو مسائل؛ وأيضاً فإن عقله حينئذ يكون غير مشتبه عليه شيء ما من الغيب والشهادة فيكون بعينه عقلاً بالفعل فلا يحتاج إلى وسط فلا يكون له حدس؛ وقد أثبت له الحدس فهذا خلف. وإن كان الحدس في بعض المسائل فقد شاركه فيه غيره وليس بخاصية له.

وأيضاً ليس بعض المسائل أولى من بعض، وليس له حد محدود يختص بالنبوة، فلم تتعين الخاصية النبوية. وأيضاً قد رتب العقل أربع مراتب: الهيولاني، والملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد، ففي أي مرتبة توجد للنبي خاصية يتميز بها عن سائر الناس؟

الجواب أن نقول: من لم يثبت في العقول الإنسانية تضاداً وترتباً لم يستقم له إثبات هذه الخاصية؛ أما التضاد فعقل النبي وعقل الكاهن، وأما الترتب فـعقل النبي وعقل الصديق. والمتضادان خصمان يحتاجان إلى حاكم ليس فوقه حاكم، والمترتبان ينتهيان بعقل ليس فوقه عقل. وعلى الوجهين جميعاً عقل النبي فوق العقول كلها، وحاكم عليها، ومتصرف فيها، ومخرجها من القوة إلى الفعل، ومكملها بالتكليف إلى أقصى غايات الكمال اللائق بكل واحد منها، فلا يمكن

التنصيص على حدّ محدود. أما إذا كان يمكن أن يقال إن هذه القوة قابلة للزيادة والنقصان فعقل النبي فوق العقول كلها.

أما الخاصية الثالثة التابعة للنفس فنقول: قد ظهر لنا في العلوم الإلهية أن الصور التي هي في الأجسام العالمية تابعة في الوجود للصور التي في النفوس والعقول الكلية، وأن هذه المادة طوّع لقبول ما هو متصور في عالم العقل، فإن تلك الصور العقلية مبادئ لهذه الصور الحسية يجب عنها لذاتها وجود هذه الأنواع في العوالم الجسمانية. والأنفس الإنسانية قريبة من تلك الجواهر، وقد نجد لها فعلاً طبيعياً في البدن الذي لكل نفس، فإن الصورة الإرادية التي ترسم في النفس يتبعها ضرورة شكل قسري للأعضاء، وتحريك غير طبيعي، وميل غير غريزي، يدعن لها الطبيعة والصورة الخوفية التي ترسم في الخيال، يحدث عنها في البدن مزاج من غير استحالة عن محيل طبيعي شبيه بنفسه. والصورة الغضبية التي ترسم في الخيال يحدث عنها في البدن مزاج آخر من غير محيل شبيه. والصورة المعشوقية عند القوة الشهوانية إذا لمحت في الخيال حدث عنها مزاج يحدث ريحاً من المادة الرطبة في البدن، ويحدّره إلى العضو الموضوع آلة للفعل الشهواني حتى تستعد لذلك الشأن. وليست طبيعة البدن إلا من عنصر العالم، ولولا أن هذه الطبائع موجودة في جوهر العنصر لما وجد في هذا البدن. ولا ننكر أن يكون من القوى النفسانية ما هو أقوى فعلاً وتأثيراً من أنفسنا نحن، حتى لا يقتصر فعلها في المادة التي رسم لها وهو بدنّها، بل إذا شاءت أحدثت في مادة العالم ما تتصوره في نفسها. وليس يكون مبدأ ذلك الإحداث تحريك وتسكين وتبريد وتسخين وتكثيف وتلين كما تفعل في بدنّها، فيتبع ذلك أن يحدث سحباً هائلة ورياح وصواعق وزلازل وصياح مثيرة، ويتبعه مياه وغيون جارية وما أشبه ذلك في العالم بإرادة هذا الإنسان. والذي يقع له هذا الكمال في جبلة النفس، ثم يكون خيراً متحلياً بالسرة الفاضلة ومحامد الأخلاق وسير الروحانيين، مجتنباً عن

الردائل وذنات الأمور ، فهو ذو معجزة من الأنبياء ؛ أي من يدعي النبوة ويتحدى بها وتكون هذه الأمور مقرونة بدعوى النبوة أو كرامة من الأولياء ، ويزيده تزكيته لنفسه وضبطه القوى وإسلاسها من هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته . ثم من يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث .

واعلم أن هذه الأشياء ليس القول بها والشهادة لها هي ظنون إمكانية سير إليها من أمور عقلية فقط ، وإن كان ذلك أمراً معتمداً لو كان ، ولكنها تجارب لما ثبتت طلب أسبابها : ومن حسن الاتفاق لمحيي الاستبصار أن يعرض لهم هذه الأحوال في أنفسهم ، أو يشاهدوها مراراً متوالية في غيرهم ، حتى يصير ذلك ذوقاً في إثبات أمور عجيبة لها وجود ، وصحة وداعياً إلى طلب سببها ، فإنه إذا اقترن الذوق بالعلم كان ذلك من أحسن الفوائد وأعظم العوائد والله ولي التوفيق .

## خاتمة لهذا الباب

فأفضل النوع البشري مَنْ أوتي الكمال في حدس القوة النظرية حتى استغنى عن المعلم البشري أصلاً ، وأوتي للقوة التخيلة استقامة وهمة لا يلتفت إلى العالم المحسوس بما فيه حتى يشاهد العالم النفساني بما فيه من أحوال العالم ويستثبتها في اليقظة ، فيصير العالم وما يجري فيه متمثلاً لها ومنتقشاً بها ، ويكون لقوته النفسانية أن تؤثر في عالم الطبيعة حتى ينتهي إلى درجة النفوس السماوية .

ثم الذي له الأمران الأولان وليس له الأمر الثالث ، ثم الذي له هذا التهيؤ الطبيعي في القوة النظرية دون العملية ، ثم الذي يكتسب هذا الاستكمال في القوة النظرية ولا حصه له في أمر القوة العملية من الحكماء المذكورين ، ثم الذي ليس له في القوة النظرية لا تهيو طبيعي ولا اكتساب تكلفي ولكن له التهيؤ في القوة العملية : فالرئيس المطلق والملك الحقيقي الذي يستحق بذاته أن يملك ، هو الأول من العدة المذكورين الذي إن نسب نفسه إلى عالم العقل وجد كأنه من سكان

ذلك العالم ، وإن نسب نفسه إلى عالم الطبيعة كان فعلاً فيه ما يشاء . والذي يتلوه أيضاً رئيس كبير بعده في المرتبة والباقون هم أشرف النوع الإنساني وكرامه .  
وأما الذين ليس لهم استكمال شيء من القوى إلا أنهم يصلحون الأخلاق ويقتنون الملكات الفضيلة ، فهم الأذكاء من النوع الإنساني ، ليسوا من ذوي المراتب العالية إلا أنهم متميزون من سائر أصناف الإنسان .

### بيان السعادة والشقاوة بعد المفارقة

اعلم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين شرحوا أحوال الآخرة أتم شرح وبيان ، وإنما بعثوا لسوق الناس إليها ترغيباً وترهيباً وتشويقاً وتخويفاً ، مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، لاسيما ما في الشريعة الأخيرة من تقرير أحوال المعاد بالروحاني والجسداني ، والعاجل والآجل ، وضرب الأمثال فيها ، وإقامة البراهين عليها . وإنما يتعرف حال ما بعد الموت من الأنبياء عليهم السلام لأنهم الذين اطلعوا على أحواله وحياً وإخباراً والعقل المجرد كيف يهتدي إلى مقادير العلوم والأخلاق حتى يرتب على كل علم وعمل جزاء في الآخرة مقدراً عليها مناسباً لها ! ومن المعلوم أن العلوم مترتبة متفاضلة ، وإنما شرفها بشرف معلوماتها ، ومقادير الشرف فيها مترتبة على مقادير شرف المعلومات ومقادير السعادة بها ، والجزاء عليها مرتب على مقادير الشرف فيها . وكذلك الأخلاق والأعمال متفاوتة متفاضلة ومتميزة بالخير والشر والمقادير فيها عملاً وجزاء مما لا يهتدي إليه عقل كل عاقل إلا أن يكون مؤيداً من عند الله عز وجل بالوحي والأنبياء ، مطلعاً على ما في ذلك العالم من أنواع الجزاء . فإذا السعادة البدنية قد شرحها الشرع أتم شرح وبيان فلا يحتاج إلى مزيد بسط .

أما السعادة أو الشقاوة التي بحسب الروح والقلب ، فقد أشار إليها ونبه عليها

في مواضع، ونحن نشرح ذلك بقدر ما تهتدي إليه العقول القاصرة في دار  
الغربة.

فنقول: يجب أن يعلم أن لكل قوة نفسانية لذة وخيراً يخصها، وأذى وشرّاً  
يخصها: مثاله أن لذة الشهوات أن يتأدى إليها من محسوساتها كيفية ملائمة من  
الحس، وكذلك لذة الغضب الظفر، ولذة الوهم الرجاء، ولذة الحفظ تذكر  
الأمر الماضي الموافقة، وأذى كل واحد منها ما يضاده. ويشترك كلها نوعاً من  
الشركة في أن الشعور بموافقتها وملائمتها هو الخير واللذة الحاصلة بها، وموافق  
كل واحد منها بالذات والحقيقة هو حصول الكمال الذي هو بالقياس إليه كمال  
بالفعل؛ فهذا أصل.

وأيضاً فإن هذه القوى وإن اشتركت في هذه المعاني فإن مراتبها في الحقيقة  
مختلفة، فالذي كماله أفضل وأتم وأدوم وأوصل إليه وأحصل له، والذي هو في  
نفسه أشد إدراكاً، كانت اللذة التي له أبلغ وأوفر، وهذا أصل.

وقد يكون الخروج إلى الفعل في كمال بحيث يعلم أنه كائن لزيد، ولا يشعر  
باللذة ما لم يحصل له، وما لم يشعر به لم يشق إليه ولم ينزع نحوه، مثل العنين فإنه  
متحقق أن الجماع لذيد ولكن لا يشتهي ولا يحن إليه الاشتها والحنين اللذين  
يكونان مخصوصين به، بل شهوة أخرى كما يشتهي من يجرب شهوة من حيث  
يحصل بها إدراك وإن كان مؤذياً؛ وكذلك حال الأكمه عند الصور الجمالية  
والأصم عند الألحان المنتظمة الرخيمة. ولهذا يجب أن لا يتوهم العاقل أن كل  
لذة فهو كما للحمار في بطنه وفرجه، وأن المبادئ الأولى المقربة عند رب العالمين  
عادمة للذة والغبطة، وأن ربّ العالمين ليس في سلطانه وخاصيته البهاء الذي له،  
وقوته الغير المتناهية أمر في غاية الفضيلة والشرف والطيب نجله عن أن نسميه  
لذة. فأني نسبة يكون لذلك مع هذه الحسية ونحن نعرف ذلك يقيناً، ولكن لا  
نشعر به لفقداننا تلك الحالة، فيكون حالنا حال الأصم والأكمه؛ وهذا أصل.

وأيضاً فإن الكمال والأمر الملائم قد يتيسر للقوة الدراكة، وهناك مانع أو شاغل للنفس، فيكرهه ويؤثر ضده عليه، مثل كراهية المريض للعسل وشهوته للطعوم الرديئة الكريهة بالذات، وربما لم يكن كراهية ولكن عدم الاستلذاذ به، كالحائف يجد اللذة ولا يشعر بها؛ وهذا أصل.

وأيضاً قد تكون القوة الدراكة ممنونة بضد ما هو كمالها، ولا يحسن به ولا ينفر عنه حتى إذا زال العائق رجع إلى غريزته فتأذت به، مثل المرور فربما لا يحسن بمرارة فمه إلى أن يصلح مزاجه وينقي أعضائه، فحينئذ ينفر عن الحال العارضة له. وكذلك قد يكون الحيوان غير مشته للغذاء البتة وهو أوفق شيء له، وكارهاً له، ويبقى عليه مدة طويلة، فإذا زال العائق عاد إلى واجبه في طبعه فاشتد جوعه وشهوته للغذاء حتى لا يصبر عنه ويهلك عند فقدانه. وكذلك قد يحصل سبب الألم العظيم مثل حرق النار وتبريد الزمهرير، إلا أن الحس قد أصابته آفة فلا يتأذى البدن به حتى تزول الآفة فيحسن به حينئذ.

فإذا تقررت هذه الأصول فنقول: إن النفس الناطقة كمالها الخاص بها أن يصير عالماً عقلياً مرتسماً فيه صورة الكل، والنظام المعقول في الكل، والخير الفائض في الكل، مبتدأ من مبدأ الكل، وسالكاً إلى الجواهر الشريفة الروحانية المطلقة، ثم الروحانيات المتعلقة نوعاً ما من التعلق بالأبدان ثم الأجسام العلوية بهيئاتها وقواها، ثم كذلك حتى تستوفي في نفسها هيئة الوجود كله فينقلب عالماً معقولاً موازياً للعالم الموجود كله، مشاهداً لما هو الحسن المطلق والخير المطلق والجمال المطلق، ومتحدداً به ومنتقشاً بمثاله وهيئته، ومنخرطاً في سلكه، وصائراً من جوهره.

فإذا قيس هذا بالكمالات المعشوقة التي للقوى الأخرى، توجد في المرتبة التي بحيث يقبح معها أن يقال إنه أفضل وأتم منها، بل لا نسبة لها البتة بوجه من الوجوه فضيلة وتاماً وكثرة ودواماً. وكيف يقاس الدوام الأبدي بدوام المتغير

الفاسد ؛ وكذلك شدة الوصول ، فكيف يكون ما وصوله بملاقاة السطوح والأجسام بالقياس إلى ما وصوله بالسريان في جوهر الشيء كأنه بلا انفصال إذا العقل والمعقول واحد أو قريب من الواحد . وأما أن المدرك في نفسه أكمل فهو أمر لا يخفى ، وأما أنه أشد إدراكاً فأمر أيضاً يكشف عنه أدنى بحث ، فإنه أكثر عدداً للمدركات وأشد تقصياً للمدرك وتجريداً له عن الزوائد الغير الداخلة في معناه إلا بالعرض والخوض في باطنه وظاهره ؛ بل كيف يعاير هذا الإدراك بذلك الإدراك ، أو كيف يمكننا أن ننسب اللذة الحسية والبهيمية والغضبية إلى هذه السعادات واللذات ! ولكننا في علمنا هذا ، وأبداننا هذه ، وانغمارنا في الرذائل ، لا نحس بتلك اللذة إذا حصل شيء من أسبابها عندنا كما أومأنا إليه في بعض ما قدمنا من الأصول ؛ ولذلك لا نطلبها ولا نحن إليها ، اللهم إلا أن نكون قد خلعنا ربقة الشهوة والغضب وأخواتهما عن أعناقنا ، وطالعنا شيئاً من تلك اللذة ، فحينئذ ربما نتخيل منها خيالاً طفيفاً ضعيفاً ، وخصوصاً عند انحلال المشكلات واستيضاح المطلوبات اليقينية ؛ والتذاذنا بذلك شبيه بالتذاذ الحس عن المذاقات اللذيذة بروائحها من بعيد .

وأما إذا انفصلنا عن البدن ، وكانت النفس تنبته وهي في البدن لكماها الذي هو معشوقها ، ولم تحصله وهي بالطبع نازعة إليه ، إذا عقلت بالفعل أنه موجود ؛ إلا أن اشتغالها بالبدن كما قلنا أنساه ذاته ومعشوقه كما ينسى المريض الحاجة إلى بدل ما يتحلل ، وكما ينسى الممرور الالتذاذ بالخلو واشتهاءه ، وتميل بالشهوة منه إلى المكروهات في الحقيقة ، عرض لها حينئذ من الألم لفقدانه كفاء ما يعرض من اللذة التي أوجبنا وجودها ودللنا على عظم منزلتها ، فيكون ذلك هو الشقاوة والعقوبة التي لا يعدلها تفريق النار للاتصال وتبديلها أو تبديل الزمهرير المزاج ؛ فيكون مثلنا حينئذ مثل الخدر الذي أومأنا إليه فيما سلف ، والذي قد عمل فيه ناراً وزمهيراً فمُنعت المادة الملابس وجوه الحس عن الشعور فلم يتأذ ، ثم عرض أن زال العائق فشعر بالبلاء العظيم .



وأما إذا كانت القوة العقلية بلغت من النفس حداً من الكمال، فيمكنها به إذا فارقت البدن أن تستكمل الكمال الذي لها أن تبلغه، كان مثله مثل الخدر الذي أذيق المطعم الألدّ، وعرض للحالة الأشهى، وكان لا يشعر فزال عنه الخدر، فطالع اللذة العظيمة دفعة، وتكون تلك اللذة لا من جنس تلك اللذة الحسية والحواسية بوجه، بل لذة تتشاكل الحالة الطيبة التي للجواهر الحية المحضة أجلّ من كل لذة وأشرف. فهذه السعادة وتلك الشقاوة ليست تكون لكل واحد من الناقصين، بل للذين اكتسبوا اللذة العقلية والشوق إلى كمالها؛ وذلك عندما يتبرهن لهم أن من شأن النفس إدراك ماهية الكل بكسب المجهول من المعلوم والاستكمال بالفعل، فإن ذلك ليس فيها بالطبع الأول أيضاً في سائر القوى، بل شعور أكثر القوى بكمالاتها إنما يحدث بعد أسباب.

وأما النفوس والقوى الساذجة الصرفة فكأنها هيولى موضوعة لم تكتسب البتة هذا الشوق؛ لأن هذا الشوق إنما يحدث حدوثاً وينطبع في جوهر النفس إذا تبرهن للقوة النفسانية أن ههنا أموراً يكسبها العلم بالحدود الوسطى وبمبادئ معلومة بأنفسها، وأما قبل ذلك فلا يكون لأن هذا الشوق يتبع رأياً وليس رأياً أولياً بل رأياً مكتسباً؛ فهؤلاء إذا اكتسبوا هذا الرأي لزم النفس ضرورة هذا الشوق، وإذا فارق ولم يحصل معه ما يبلغ به بعد الانفصال التام وقع في هذا النوع من الشقاء الأبدي؛ لأنه إنما كانت تلك السعادة تكتسب بالبدن لا غير وقد فارق. وهؤلاء إما مقصرون عن السعي في كسب الكمال الإنسي، أو معاندون جاحدون متعصبون لآراء فاسدة مضادة للآراء الحقيقية؛ وحال الجاحدين أشد من حال المقصرين، وحال المقصرين أشد من حال النفوس الساذجة الصرفة. وأما أنه كم ينبغي أن يحصل عند نفس الإنسان من تصور المعقولات حتى يجاوز به الحد الذي في مثله تقع هذه الشقاوة، فليس يمكنني أن أنص عليه نصّاً إلا بالتقريب؛ وأظن أن ذلك أن يتصور نفس الإنسان المبادئ المفارقة تصوراً حقيقياً، ويصدق بها تصديقاً يقينياً لوجودها عنده بالبرهان،

ويعرف العلل الغائية للأمور الواقعة في الحركات الكلية دون الجزئية التي لا تنتهي، ويتقرر عنده هيئة الكل ونسب أجزائه بعضها إلى بعض، والنظام الآخذ من المبدأ الأول إلى أقصى الموجودات الواقعة في ترتيبه، ويتصور العناية الشاملة للكل وكيفيتها، ويتحقق أن الذات الحق الموجد للكل أي وجود يخصها وأي وحدة تخصها، وأنها كيف تعرف حتى لا يلحقها تكثر وتغير بوجه من الوجوه، وكيف ترتبت نسبة الوجود إليه جل وعلا. ثم كلما ازداد الناظر استبصاراً ازداد للسعادة استعداداً، وكأنه ليس يتبرأ الإنسان عن هذا العالم وعلائقه إلا أن يكون أكد العلاقة مع ذلك العالم فصار له شوق إلى ما هناك، وعشق لما هناك، يصده عن الالتفات إلى ما خلفه جملة.

ونقول أيضاً: إن هذه السعادة الحقيقية لا تتم إلا بإصلاح الجزء العملي من النفس ف ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [فاطر: ١٠] ونقدم لذلك مقدمة، فنقول: إن الخلق هو ملكة يصدر بها عن النفس أفعال ما بسهولة من غير تقدم روية، والخلق المحمود هو الوسط بين الطرفين المذومين، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وقد شرحنا ذلك أتم شرح فيما سبق: وجلته أن لا تحكم العلاقة مع القوى البدنية قصداً بل يكون للعقل العملي يد الاستيلاء وللقوة الحيوانية الانقياد والمطاوعة.

فالعقل ينبغي أن لا يتأثر عن القوى الحيوانية بل يؤثر، والقوى الحيوانية ينبغي أن تتأثر ولا تؤثر؛ فإذا كان كذلك فتكون النفس على جبلتها مع إفادة هيئة الاستعلاء والتزّه، وذلك غير مضاد لجوهره ولا مائل به إلى جهة البدن. ثم النفس إنما كان البدن يغمره ويليه ويغفله عن الشوق الذي يخصه، وعن طلب الكمال الذي له، وعن الشعور بلذة الكمال إن حصل له، أو الشعور بألم فقد الكمال إن قصر عنه، لا بأن النفس منطبعة فيه أو منغمسة فيه، لكن للعلاقة التي بينها، وهو الشوق الجبلي إلى تدبيره والاشتغال بآثاره وما يورده عليه من عوارضه. فإذا فارق وفيه ملكة الاتصال به وكان قريب الشبه من حاله وهو

فيه، فبقدر ما ينقص من ذلك يزول عنه غفلته عن حركة الشوق الذي له إلى كماله، وبقدر ما يبقى منه يصدده عن الاتصال الصرف بمحل سعادته ويحدث هناك من الحركات المشوشة ما يعظم أذاه.

ثم تلك الهيئة البدنية مضادة لجوهره مؤذية له، وإنما كان يلهمه عنه البدن وتعام انغماسه فيه، فإذا فارقت أحست بتلك المضادة العظيمة، فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وتأذت أذى عظيماً، لكن هذا الأذى وهذا الألم ليس لأمر ذاتي بل لأمر عارض غريب، والأمر العارض الغريب لا يدوم ولا يبقى، ويزول ويبطل مع ترك الأفعال التي كانت تثبت تلك الهيئة بتكريرها، فيلزم إذاً أن تكون العقوبة التي بحسب ذلك غير خالدة، بل تزول وتنمحي قليلاً قليلاً حتى تزكو النفس وتبلغ السعادة التي تخصها. ولهذا لم يرَ أهل السنة تخليد أهل الكبار من المؤمنين؛ لأن أصل الاعتقاد راسخ والعوارض تزول ويعفى عنها وتغفر.

وأما النفوس البله التي لم تكتسب الشوق ولم تحن إلى المعارف التي للعارفين، فإنها إذا فارقت الأبدان وكانت غير مكتسبة للهيئات الرديئة صارت إلى سعة رحمة الله تعالى ونوع من الراحة، ولهذا قال عليه السلام «أكثر أهل الجنة البله»<sup>(١)</sup> وعلّيون لذوي الأبواب» وأما إن كانت مكتسبة للهيئات البدنية، ملطخة بالمعاصي وكُدُورات الشهوات، وليس عندها هيئة غير ذلك ولا معنى يضاده وينافيه، فيكون لا محالة شوقها إلى مقتضاها، فتتعذب عذاباً شديداً لفقدان البدن ومقتضيات البدن من غير أن يحصل المشتاق إليه، لأن آلة الذكر والفكر قد بطلت، وخلق التعلق بالبدن قد بقي، وإن اعتقدت اعتقادات باطلة وآراء فاسدة ومع ذلك تعصب لتلك الاعتقادات وجحد الحق فذلك هو حليف ألم ورفيق عذاب أليم مقيم.

(١) قال في النهاية: البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس، لأنهم أغفلوا أمر دنياهم، فجهلوا حقد التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فغفلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. اهـ. فأما الأبله وهو الذي لا عقل له فغير مراد في الحديث.

فخلاصة هذا الفصل أن النفس بعد المفارقة إن كانت قد فارقت قبل أن اكتسبت حقاً أو باطلاً، فهو من أهل النجاة لا مستريح منعّم ولا معذب كحال الصبيان والمجانين. وإن كانت معتقدة اعتقادات وهمية فاسدة مضادة للحق وأضاف إليها أعمالاً على خلاف الشرع فهو في عذاب مقيم. وإن اعتقدت اعتقاداً حقاً لا عن براهين يقينية، وأضاف إليها أعمالاً صالحة فهو من أهل الجنة. وإن اعتقدت اعتقادات حقة ولكن اشتغلت بزخارف الدنيا ولذاتها وشهواتها فهو معذب ملتفت إلى ما خلفه غير واصل إليه، لأن آلة طلب الدنيا قد بطلت. إلا أن هذا العذاب لا يبقى بل يزول إذا أتى عليه مدة من الزمان. وإن كانت من العلوم في درجة الكمال واعتقدت الحقائق على براهين يقينية ولكن لم تنتهج مناهج الشرع ولم تسلك سبيل الخيرات ولم يعمل بعلمها، فهو معذب مدة ولكن يزول ولا يبقى ويبلغ بالآخرة درجة من السعادة بسبب العلم، لأن هذه العوارض بمقتضى الشهوات وتلك تزول.

وإن حصل له العلوم اليقينية إما على سبيل الحدس وإما على سبيل الفكر ونزه أخلاقه وحسنها وعمل بموجب الشرع، فله الدرجة العليا في السعادة، وله الوصول بلا انفصال، وهو النظر إلى الجمال الحق والجلال المحض والكمال الصّرف كما قال الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فحق العاقل أن يسعى لطلب تلك السعادة ويحتز عن مضادها وعوائقها والله ولي التيسير والتوفيق.

## فصل

والنفس الإنسانية إذا تجردت عن البدن ولم يبق لها علاقة إلا بعالمها، فإنه يجوز أن يكون فيها ما يكون بالعقل والرأي وسائر ما يعقل مما يليق بذلك العالم الذي هو عالم الثبات، والكون بالفعل وهو عالم اتصال النفس بالمباديء التي فيها هيئة الوجود كلها، فتنتقش به فلا يكون هناك نقصان وانقطاع من الفيض المتمم حتى تحتاج أن تفعل فعلاً ينال به كمالاً، ويقول قولاً ينال به كمالاً، وذلك هو الفكر والذكر ونحوهما، فإنها تنتقش بنقش الوجود كله فلا يحتاج إلى طلب نقش آخر فلا يتصرف في شيء مما كان في هذا العالم، وفي تحصيلها على هيئاتها الجزئية طالبة لها من حيث كانت جزئية. والنفس الزكية تعرض عن هذا العالم وهي متصلة بعدد البدن، ولا تحفظ ما يجري فيه عليها، ولا تحب أن تذكر، فكيف الفائز بالتجرد المحض مع الاتصال بالحق والجمال المحض والعالم الأعلى الذي في حيز السرمد، وهو عالم ثبات ليس عالم التجدد الذي في مثله يتأتى أن يقع الفكر والذكر، وإنما عالم التجدد عالم الحركة والزمان، فالمعاني العقلية الصرفة والمعاني التي تصير جزئية مادية كلها هناك بالفعل وكذلك حال نفوسنا.

والحجة في ذلك أنه لا يجوز أن تقول إن صور المعقولات حصلت في الجواهر التي في ذلك العالم على سبيل الانتقال من معقول إلى معقول، فلا يكون هناك انتقال من حال إلى حال، حتى إنه لا يقع أيضاً للمعنى الكلي تقدم زمني على المعنى الجزئي كما يقع ههنا، فإنك تحصل الكلي أولاً ثم تأتي المالة الزمانية فتفصل العلم بالمجمل من حيث هو مجمل وبالمفصل من حيث هو مفصل معاً لا يفصل بينهما الزمان؛ فإذا كان هذا هكذا في الجوهر الذي هو الخاتم فكذلك هو في الجوهر الذي هو كالشمع، فإن نسبة الجوهر الذي هو كالشمع حين ترتفع العوائق إلى الذي هو كالخاتم نسبة واحدة فلا يتقدم فيها انتقاش ولا يتأخر بل الكل معاً، وهذا فصل في غاية التحقيق.

## بيان حقيقة اللقاء والرؤية

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور المتخيلة والأجسام المتلوّنة والمشكلة من أشخاص الحيوان والنبات، وإلى ما لا يدخل كذات الله سبحانه، وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها. ومن رأى إنساناً ثم غمّض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما، ولا يرجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية موافقة للمتخيلة، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً، وهو ك شخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم يرى عند تمام الضوء، فإنه لا تفرق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف. فإذا الخيال أول الإدراك، والرؤية هو استكمال إدراك الخيال وهو غاية الكشف، وسُمّي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين، بل لو خلق الله تعالى هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية.

وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل في الخيال أيضاً لمعرفتها وإدراكها درجتان: إحداها أولى، والثانية استكمال لها؛ وبين الثانية والأولى من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئي، فتسمى الثانية أيضاً بالإضافة إلى الأولى مشاهدة ولقاء ورؤية؛ وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف. وكما أن سنة الله جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام غاية الكشف بالرؤية، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي، ولا بد من ارتفاع الحجاب لحصول الرؤية، وما لم يرتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجية عن الخيال، بل هذه الحياة

حجاب لها مانع عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار .

ولذلك قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿لن تراني﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي في الدنيا ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية ، وإن كانت متفاوتة في ذلك التلوّث : فمنها ما تراكم عليها الخبث والصدأ فصارت كالمرآة التي قد فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ولا تقبل الإصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، نعوذ بالله منه .

ومنها ما لم ينته إلى حد الرين<sup>(١)</sup> والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، فيعرض على النار عرضاً يقلع منه الخبث الذي هو متدنس به ، ويكون عرضه على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما ورد في الخبر سبعة آلاف سنة . ولن يرتحل نفس من هذا العالم إلّا ويصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلت ؛ ولذلك قال تعالى ﴿وإن منكم إلّا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ [مريم: ٧١] اللهم إلّا نفوساً قد انغمست في تأمل الجبروت ، وانخرطوا في سلك القدس مستديمين لشروق نور الحق في أسرارهم على الدوام ؛ فهؤلاء مبدؤهم ومعادهم سواء ، فإن من النفوس الإنسانية وعقلها ما هو نفس مقطورة على التجرد والتقديس عن علائق المواد وغواشي هذا العالم من القوة والاستعداد ، منخرطاً في سلك العقول المفارقة ، متصلاً بالعقل الأول ، مستمداً من الكلمة العليا ، مؤيداً من أمر الله تعالى ، أرسل إلى عالم الأجساد لا يستكمل عنها وعن قواها الجسمانية استكمال العقول الهيولانية لتخرج من القوة إلى الفعل ، بل لتخرج بالقوة من القوة إلى الفعل ،

(١) الرين والران: الغطاء والحجاب الكثيف . والصدأ يعلو الشيء الجلي كالسيف والمرآة ونحوها . والدنس . وما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب . وهذا المعنى الأخير هو المقصود هنا .

ويكتمل النفوس الناطقة المنغمسة في أحوال هذا العالم إلى غايات قدّرت لها من الكمال. فهو لاء فُطر مبدؤهم على طبيعة معادهم، فهم الملاء الأعلى، وهم المباديء الأولى، يحقّ لهم أن يقولوا كنا أظلة عن يمين العرش فسبّحنا فسبّحت الملائكة بتسبيحنا؛ وحقاً قال لهم ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وصدقاً قال عليه السلام «كنت نبياً وآدم منجدل بين الماء والطين». ومن رأى التضاد والترتب في الموجودات، والمفروغ والمستأنف في الأحكام، لم يبق عليه إشكال؛ أما أكثر النفوس فمستيقنة للورود بقدر التلطف بالأوزار منها، فإذا أكمل الله تعالى تطهيرها وتزكيته وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من العرض والحساب وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يُطلع الله عليه أحداً من خلقه فإنه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول، فعند ذلك يستعد بصفائه ونقائه من الكدورات، حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قتره لأن يتجلى فيه الحق جل جلاله فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما عليه كانكشاف تجلي المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله؛ وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية. فإذا الرؤية حق بشرط أن لا تفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب العالمين علواً كبيراً، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تصور وتخيل وتقدير شكل وصورة، فتراه في الآخرة كذلك؛ بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الانكشاف والوضوح وتنقلب مشاهدة، فلا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، فإذا لم يكن في المعرفة إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال المعرفة بعينها وترقيتها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضاً جهة وصورة لأنها هي بعينها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي



ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والبذور زرعاً؛ ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل! فكذلك من لا يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة!.

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة؛ فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذور، إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها، ولذلك قال عليه السلام: «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة، لأنه فضل الناس بسرٍّ وقرٍّ في صدره» فلا جرم تفرد بالتجلي. وكل من لم يعرف الله في الدنيا لا يراه في الآخرة، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يُحشر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه؛ فما صحبه من المعرفة هي التي يتنعم بها بعينها فقط، إلا أنها تنقلب مشاهدة بكشف الغطاء عنها فتضاعف اللذة كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته، فإن ذلك هو منتهى لذته. فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى، وحب الله تعالى بقدر المعرفة؛ فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان.

فإن قلت فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة، وإن كانت أضعافها لأن لذة المعرفة في الدنيا قليلة ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يُستحقر سائر لذات الجنة فيها؛ فاعلم أن هذا الاحتقار للذة المعرفة مصدره الخلو عن المعرفة؛ فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها، وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلب مشحون بعلائق الدنيا، فكيف لذتها؟ فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ولطائف مناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها الجنة.

ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذة اللقاء والمشاهدة كما لا نسبة

للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ؛ وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال :

فنقول : لذة النظر إلى رجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب : أحدها كمال جمال المعشوق ونقصانه ، والثاني كمال قوة الحب ، والثالث كمال الإدراك ، والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب . فقدّر عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة جمال معشوقه ، فلو طرأت على الفجأة حالة انتهك بها الستر وأشرق به الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سليماً فارغاً وهجم عليه الشهوة القوية المفرطة والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليه نسبة يعتد بها . فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة : فالستر الرقيق مثال للبدن والاشتغال به ، والعقارب والزنابير مثال للشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش ، والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة ، والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتة إلى أسفل السافلين ، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرئاسة والعكوف على اللعب بالعصفور . فالعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه الشهوات ، ولا يتصور أن يخلو عنها البتة ؛ نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا يدوم ، فلا جرم يلوح من كمال المعرفة ما يبهت العقل ويعظم لذته بحيث يكاد القلب ينفطر لعظمته ، ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف ؛ وقلما يدوم بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية ، ولا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت ؛ وإنما الحياة الطيبة بعد الموت ، وإنما العيش عيش الآخرة ، ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ [ العنكبوت : ٦٤ ] .

وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله ، فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة ، فإن بحر المعرفة لا ساحل له والإحاطة بكنهه جلال الله محال . وكلما كثرت المعرفة بالله وصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته وقويته ، كثرت الابتهاج باللقاء وعظم .

اللهم لا تخرجنا من هذه الدار إلا عارفين مستكملين في المعرفة ، مستغرقين في الوجدانية ، منقطعين عن علائق الدنيا وزخارفها برحمتك يا أرحم الراحمين .

### الخاتمة

تتعطف فائدتها على ما سبق من معرفة النفس وقواها ، وبذلك تندرج إلى معرفة الحق جل جلاله ومعرفة صفاته وأفعاله ؛ لأن المباديء إنما تراد للنهايات ، والنهايات إنما تظهر للمباديء ؛ فكل علم لا يؤدي إلى معرفة الباري جلّ جلاله فهو عديم الجدوى والفائدة وقليل النفع والعائدة .

فنقول : إنا أثبتنا النفس على الجملة بمعرفة آثارها وأفعالها ؛ فالنفس النباتية عرفناها بآثارها من التغذية والتنمية وتوليد المثل ، والنفس الحيوانية بآثارها من الحس والحركة الاختيارية ، والنفس الإنسانية بالتحريك وإدراك الكليات . وعلمنا أن هذه الأفعال تتعلق بمبدأ يسمى ذلك المبدأ نفساً ، فيكون قوامها ووجودها وخاصيتها بذلك المبدأ الذي هو النفس . فكذلك فاعلم أن الموجود على قسمين : إما أن يتعلق بغيره بحيث يلزم من عدم ذلك الغير عدمه ، أو لا يتعلق . فإن تعلق سميناه ممكناً ، وإن لم يتعلق سميناه واجباً بذاته ؛ فيلزم من هذا في واجب الوجود معرفة أمور :

**الأمر الأول :** أنه لا يكون عرضاً ؛ لأنه <sup>(١)</sup> يتعلق بالجسم ويلزم عدمه بعدم الجسم .

(١) الضمير يعود إلى اللفظ السابق : عرضاً ؛ لأن العرض هو الذي يتعلق بالجسم ويلزم عدمه بعدم =

**الثاني:** لا يكون جسماً لأن الجسم منقسم بالكمية إلى الأجزاء ، فتكون الجملة متعلقة بالأجزاء ، فتكون معلولة . وأيضاً فإن الجسم مركب من المادة والصورة وكل واحد منها متعلق بالآخر نوع تعلق .

**الثالث:** أنه لا يكون مثل الصورة لأنها متعلقة بالمادة ، ولا يكون مثل المادة لأنها محل الصورة ولا توجد إلا معها .

**الرابع:** أنه لا يكون وجوده غير ماهيته ؛ لأن الماهية غير الإتيية ، والوجود الذي الإتيية عبارة عنه عارض للماهية ، وكل عارض معلول ؛ لأنه لو كان موجوداً بذاته ما كان عارضاً لغيره ، إذ ما كان عارضاً لغيره فله تعلق بغيره ؛ وعلته إن كان غير الماهية فلا يكون واجب الوجود الذي يتعلق به كل الموجودات ، وإن كان علة الماهية فالماهية قبل الوجود لا تكون علة لأن السبب ما له وجود تام ، فقبل الوجود لا يكون له وجود ؛ فنبت أن واجب الوجود إثنيته ماهيته وأن وجوب الوجود له كالماهية لغيره . ومن هذا يظهر أن واجب الوجود لا يشبه غيره البتة ولا يصل أحد إلى كنه معرفته .

**الخامس:** أنه لا يتعلق بغيره على وجه يتعلق ذلك الغير [ به ] ، على معنى أن يكون كل واحد منها علة للآخر فيتقابلان فإن هذا محال .

**السادس:** أنه لا يتعلق بغيره على وجه يتعلق ذلك الغير به على سبيل التضافيف لأنه يكون ممكن الوجود .

**السابع:** أنه لا يجوز أن يكون شيئان كل واحد منهما واجب الوجود ، كما لا يكون للبدن الواحد إلا نفس واحدة فلا يكون للعالم إلا رب واحد هو مبدع الكل ويتعلق به الكل تعلق الوجود والبقاء . وأيضاً فلو كان واجب الوجود اثنين

---

= الجسم . وإلا فإن واجب الوجوب لا يتعلق وجوده بشيء ، بل كل الموجودات متعلق وجودها به .

فَمَ يتميز أحدهما عن الآخر؟ فإن كان يعارض فيكون كل واحد منهما معلولاً، وإن كان بذاتي فيكون مركباً ولا يكون واجب الوجود.

**الثامن:** أن كل ما سوى واجب الوجود ينبغي أن يكون صادراً من واجب الوجود، كما أن النفس كمال جسم طبيعي آليّ فكذلك الرب موجد الكل وبه كمال الكل وبقاء الكل وجمال الكل. وقد ذكرنا أن واجب الوجود لا يكون إلا واحداً فما عداه لا يكون واجباً بل ممكناً فيفتقر إلى واجب الوجود.

فإن قيل: فما الدليل على أن في الوجود موجداً واجب الوجود يتعلق الكل به ولا يتعلق وجوده بغيره فيكون منتهى الموجودات ومن عنده نيل الطلبات؟

قلنا: لأن الموجود إما أن يكون واجب الوجود أو ممكن الوجود؛ وممكن الوجود لا بدّ أن يتعلق بغيره وجوداً ودواماً، والعالم بأسره ممكن الوجود، فيتعلق بواجب الوجود. أما ما يبتنى على بيان أن النفس جوهر ليس له مقدار وكمية وقد أثبتنا ذلك ببراهين، فاعلم أولاً أن النفس جوهر والباري ليس بجوهر؛ لأن الجوهر هو الموجود لا في موضوع؛ أي إذا وجد يكون وجوده لا في موضوع وهذا يشعر بالحدوث؛ والجوهر عبارة عن حقيقة وجوده، وواجب الوجود حقيقته وجوده ووجوده حقيقته.

فإذا عرفت هذا فاعلم أنا أثبتنا وجود النفس وأنه جوهر ببرهان خاصي وبرهان تقريبيّ المقدمات. والبرهان الخاصي أن النفس لا يعزب ذاته عن ذاته، وإذا كان في الوجود من مبدعاته ما يكون بهذه الصفة فما تقول في موجود ينال به كل حق وجوده؟ فإن كل حق من حيث حقيقته الذاتية التي بها هو حق متفق واحد غير مشار إليه فكيف القيوم على الملوكوت؟ وإذا كانت النفس لا تعزب ذاته عن ذاته مع أنه ليس بواحد صرف، فالواحد الحق الذي لا يحوم حول وحدانيته التكثّر والتجزّي والتثني أولى بأن لا يعزب ذاته عن ذاته فيكون عالماً بنفسه وعالماً بجميع ما أبدعه واخترعه وأوجده وكوّنه ﴿لا تأخذه سنة ولا

نوم ﴿ [البقرة: ٢٥٥] ، وهذا هو معنى الحي، فإن الحيّ هو الواحد العالم بذاته. وقد بيّنا أن النفس واحد ليس لها كمية ومقدار، فكذلك فاعلم أنه ليس للمبدع الحق سبحانه كمية ومقدار.

ومن هذا يُعرف أن جميع ما يهذي به المشبهة من إثبات الجهات والفوقية والصورة والمكان والانتقال كله باطل. وليس الباري تعالى جوهرًا يقبل الأضداد فيتغيّر، ولا عرضاً فيسبق وجوده الجوهر<sup>(١)</sup>، ولا يوصف بكيف فيشابهه ويضاهي، ولا بكم فيقدر ويجزأ، ولا بمضاف فيوازي في وجوده ويحاذي، ولا بأين فيحاط به ويُحوّى، ولا بمتى فينتقل من مدة إلى أخرى، ولا بوضع فيختلف عليه الهيئات ويكتنفه الحدود والنهايات، ولا بجده<sup>(٢)</sup> فيشمّله شامل، ولا بانفعال فيغيّر وجود فاعل.

وإذا ثبت أن واجب الوجود ليس في ذاته كثرة بوجه من الوجوه، ولا بدّ من وصف واجب الوجود بأوصاف، فلا بدّ أن تثبت الأوصاف على وجه لا يؤدي إلى الكثرة؛ فنزّهه عن أن يكون له جنس أو فصل، فإن من لا اشتراك له مع غيره فلا فصل له يفصله عن سواه. ومن هذا يُعلم أن جميع أسمائه تعالى حتى الوجود على سبيل الاشتراك لا على سبيل التواطؤ، ولا تثبت الصفات على وجه يكون عرضياً كاللون القائم بالمحلّ، وكعلمنا العارض على الذات، لأن هذا يؤدي إلى تقدم وتأخر وتكثّر، بل تثبت الصفات على وجه الإضافة إلى الأفعال أو على سبيل العلل والأسباب والمواد عنه.

فيتبين من هذا أنه حي لأنه عالم بذاته، ونثبت أنه عالم لأنه مجرد عن المادة ووجوده لذاته. وما يكون واحداً بريئاً عن المادة، تكون ذاته حاصلاً له فيكون

(١) «الجوهر» فاعل «يسبق» أي أن الباري تعالى ليس عرضاً، لأن وجود العرض يسبقه وجود الجوهر.

(٢) الجده هي مقولة الملك، وهي إحدى المقولات العشر.

عالماً بذاته لا يعزب عنه ذاته. وعلمه بذاته ليس زائداً حتى يوجب فيه كثرة؛ وذلك لأن الإنسان إذا علم نفسه فمعلومه هو غيره أو عينه، فإن كان غيره فإنه لم يعلم نفسه بل علم غيره، وإن كان معلومه هو عينه فالعالم هو نفسه والمعلوم هو نفسه، فقد اتحد العالم والمعلوم؛ فكذلك فافهم في الباري جلّ جلاله. وكما أن العالم هو المعلوم فكذلك العلم هو المعلوم، كما أن الحس هو المحسوس؛ لأن المحسوس هو الذي انطبع في الحاس لا الخارج، فكذلك العلم هو المعلوم، وإنما تختلف العبارات بالعلم والعالم والمعلوم. وتبين منه أنه عالم بجميع أنواع الموجودات وأجناسها، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر؛ لأنه يعلم ذاته، فينبغي أن يعلمه على ما هو عليه؛ لأن ذاته مجرد لذاته، وذاته مبدأ ومبدع لجميع الموجودات، وهو فياض يفيض الوجود على الكل فيعلم ما يوجد ويتبع ذاته، وكثرة العلوم المتعددة لا تؤدي إلى كثرة في ذاته لأن علمه لا يبتنى على تقديم المقدمات وإجالة الفكر والنظر. وذاته فياضة للعلوم على الخلق، لا أنه يكتسب من الخلق علماً؛ فعلمه سبب الوجود لا الوجود سبب علمه ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو كما يعلم الأجناس والأنواع يعلم الممكنات الحادثة وإن كنا نحن لا نعلمها؛ لأن الممكن ما دام يُعرف ممكناً يستحيل أن يعلم وقوعه أو لا وقوعه، لأنه إنما يعلم منه وصف الإمكان: ومعناه أنه يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون. ولكن كل ممكن بنفسه فهو واجب بسببه، فإن علم وجود سببه كان وجوده واجباً، فلو اطلعنا على جميع أسباب شيء واحد وعلمنا وجودها قطعنا بوجود ذلك الشيء.

والأول الحق يعلم الحوادث وأسبابها؛ لأن الكل يرتقي إليه في سلسلة الترتي. فلما كان عالماً بترتيب الأسباب كان عالماً بالكل: أسبابها ونتائجها؛ فنزه علمه عن الحس والخيال والتكثر والتغير. ثم بعد ذلك فافهم علمه، فإذا فهمت علمه

فاعلم أنه مريد وله إرادة وعناية، ولكن إرادته وعنايته لا تزيد على ذاته: وبيانه أنه مريد لأن الفاعل إما أن يكون بالطبع وتعالى عنه أو بالإرادة. والطبع هو الفعل الخالي عن العلم بالمفعول، بل يدخل الأفعال الطبيعية في الوجود على سبيل التسخير. والفاعل بالإرادة هو الذي له العلم بمفعولاته، فإذاً هو عالم بمفعولاته ومخلوقاته، وهو راض به غير كاره، فيجوز أن يعبر عن هذا بالإرادة.

وعلى الجملة فتخصص الأفعال وتميزها بعضها عن بعض دليل على وجود الإرادة. وعنايته هو تصور نظام الكل وكيفية معلولاته على الوجه الأحسن الأبلغ في النظام، وليس له ميل وغرض يحمله على ما يريده، فليس شيء أولى به ولا يفعل ليخلص عن مذمة أو يطلب محمداً.

وكذلك كما أنه عالم مريد فهو قادر؛ لأن القادر عبارة عمن يفعل إن شاء ولا يفعل إن لم يشأ. والقادر قادر باعتبار أنه يفعل إن شاء لا باعتبار أنه لا بد أن يشاء. فكل ما هو مريد له فهو كائن، وما ليس مريداً له فغير كائن.

والأول تعالى حكيم؛ لأن الحكمة إما أن تكون عبارة عن العلم بحقائق الأشياء ولا أعلم منه، أو تكون عبارة عمن يفعل فعلاً مرتباً محكماً جامعاً لكل ما يحتاج إليه من كمال وزينة، وفعله هكذا في غاية الإحكام والكمال والجمال والزينة: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٥٠].

وهو جواد؛ لأن الجود إفادة الخير والإنعام به من غير غرض: فالأول تعالى أفاض الجود على الموجودات كلها كما ينبغي وعلى ما ينبغي، من غير ادخار ممكن من ضرورة أو حاجة أو زينة، وكل ذلك بلا غرض ولا فائدة؛ فهو الجواد الحق والوهاب المطلق، واسم الجواد على غيره مجاز.

والأول تعالى مبتهج بذاته على معنى كمال العلم وكمال المعلوم، أو كمال الجود والفضل على الموجود؛ لأنه أشد الأشياء إدراكاً لأشد الأشياء كمالاً، الذي هو



منزه عن طبيعة الإمكان والمادة، والكمال في البراءة عن المادة ولوازمها، والتقديس عن طبيعة الإمكان ولواحقها.

## خاتمة واعتذار

اعلم أنا وإن تدرجنا إلى معرفة ذاته وصفاته من معرفة النفس، فذلك على سبيل الاستدلال؛ وإلاّ فالله تعالى منزه عن جميع صفات المخلوقات فلا يوصف جلّ أن يوصف، وجلّ أن يقال جلّ، وعزّ أن يقال عزّ، وأكبر أن يقال أكبر. وإذا بلغ الكلام إلى الله تعالى فأمسكوا « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »<sup>(١)</sup> وفوق ما يصفه الواصفون. فلك العلوّ الأعلى فوق كل عال، والجلال الأبعد فوق كل جلال؛ ضلت فيك الصفات، وتقدست دونك النعوت، وحارت في كبرياتك لطائف الأوهام، وهذه كلمات الأبرار المصطفين الأخيار.

وهذا دليل على أنه لا يجوز أن يقال في حقه ما يجزئ نفعاً، أو يدفع ضرراً، أو يجلب سروراً، أو يوجب لذة وابتهاجاً، أو يحدث فرحاً وضحكاً، أو يورث عشقاً ومحبة، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. وما ورد من هذه الألفاظ في القرآن والأخبار فتفسّر بشمراتها ونهاياتها لا بعوارضها ومبادئها.

## القول في معرفة ترتيب أفعال الله وتوجيه الأسباب إلى المسببات

وهذا أيضاً إنما يعلم من ترتيب معرفة تأثير النفس في قواها وبدنها. اعلم أن مبدأ فعل الآدمي إرادة يظهر أثرها أولاً في القلب، فيسري منه أثر بواسطة الروح الحيواني الذي هو بخار لطيف في تجويف القلب إلى الدماغ، ثم

(١) جزء من حديث مرفوع رواه البيهقي.

يسري منه أثر إلى الأعصاب الخارجة من الدماغ، ومن الأعصاب إلى الأوتار والرباطات المتعلقة بالعضل، فينجذب به الأوتار فيتحرك به الإصبع، فيتحرك بالأصابع القلم، وبالقلم المداد مثلاً، ويحدث منه صورة ما يريد كتابته على وجه القرطاس على الوجه المتصور في خزانة التخيل؛ فإنه ما لم يتصور في خياله صورة المكتوب أولاً لا يمكن إحداثه على البياض ثانياً.

ومن استقرأ أفعال الله تعالى، وكيفية إحداثه النبات والحيوان على الأرض بواسطة تحريك السموات والكواكب، وذلك بطاعة الملائكة له بتحريك السموات، علم أن تصرف الآدمي في عالمه - أعني بدنه - يشبه تصرف الخالق في العالم الأكبر وهو مثله، وانكشف له أن نسبة شكل القلب إلى تصرفه نسبة العرش، ونسبة القلب إلى الدماغ نسبة العرش إلى الكرسي، وأن الحواس له كالملائكة الذين يطيعون طبعاً ولا يستطيعون لأمره خلافاً، والأعصاب كالسموات، والقدرة في الإصبع كالطبيعة المسخرة المركوزة في الأجسام، والمواد كالعناصر التي هي أمهات المركبات في قبول الجمع والتفريق والتركيب والتمزيج، وخزانة التخيل كاللوح المحفوظ.

فمهما اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة عرف كيفية ترتيب أفعال الله تعالى في الملك والملكوت، وذلك يحتاج إلى تطويل وهذه إشارة إلى جملتها:

### أقسام أفعال الله سبحانه وتعالى

قد ذكرنا أن القوى تنقسم إلى محرركة ومدركة، والمدركة تنقسم إلى ظاهرة كالحواس الخمس، وباطنة كالمشاعر الباطنة كالتخيل والوهم وغير ذلك؛ ثم ما يختص بالإنسان العقل، وهو ينقسم إلى العقل النظري والعملي. فكذلك فافهم أن جميع أفعال الله تعالى تنقسم إلى عقول مجردة عن المواد، مشاهدة لجلال الله تعالى، ولهم رموق الجلال الأعلى، ولهم الوصول بلا انفصال، وإلى نفوس محرركة

للسموات ، وإلى أجسام . وكما أن الجسم الذي هو البدن يتأثر من القوى المركبة فيه ولا يؤثر ، والعقل العملي يؤثر في القوى الحيوانية ويتأثر من العقل النظري ، والقوى الحيوانية تتأثر من العقل العملي وتؤثر في الجسم وأعضاء البدن ؛ فكذلك فافهم أن جميع أفعال الله تعالى تنقسم إلى هذه الأقسام : متأثر لا يؤثر ومؤثر لا يتأثر<sup>(١)</sup> ؛ فالتأثر الذي لا يؤثر هو أجسام العالم ، والمتأثر الذي يؤثر هي النفوس فيتأثر من العقول ويؤثر في أجسام السموات بالتحريك وبواسطة تحريك السموات في عالم العناصر ، والعقول تؤثر ولا تتأثر بل كمالها حاضرة معها ليس لها استكمال . وإن كانت تلك الكمالات من ربها وخالقها ومبدعها تـالى وتقـدس ، فالطبيعة في عالم الأجسام مسخرة للنفس تفعل فعلاً سواء علمت ما تفعل أو لم تعلم ؛ كما أن النفس مدبرة للعقل تـعلم ، سواء طلبت العلوم أو لم تطلب . فانتـهجت الطبيعة بالتسخير منهاج ما فوقها بالتدبير ، وعبر التنزيل عن ذلك بقوله ﴿ والسما بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [ الذاريات : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ] فالمخلوقات كلها مـفطورة على الازدواج : لطيفها وكثيفها ، ومعقولها ومحسوسها ؛ ففي المركبات ازدواج ، وفي البسائط ازدواج ، وبين البسائط والمركبات ازدواج ، والنفوس بواسطة الأفلاك معطية والعناصر قابلة ، وبين المعطي والقابل نتائج ومواليد من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، وبين العقل والنفوس ازدواج كما بين القلم واللوح ازدواج ، ومواليدهما للروحانيات من العقول والنفوس ، ومن له الخلق والأمر متعال على الازدواج أداءً وقبولاً ؛ سبحانه أن يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء فـقـدّره تقديراً .

(١) هنا نقص في التقسيم ، وتـمامه : متأثر لا يؤثر ، ومتأثر يؤثر ، ومؤثر لا يتأثر .

## تقسيم آخر

وهو أن القوى الحيوانية والإنسانية مع جسم البدن متفاوتة في الفضل والكمال، مرتبة في الشرف والتمام.

فكذلك فاعلم أن الموجودات باعتبار الكمال والنقصان تنقسم إلى ما هو بحيث لا يحتاج إلى أن يمدّه غيره ليكتسب منه وصفاً، بل كل ممكن فهو موجود له حاضر معه ويسمى تاماً، وإلى ما لا يحضر معه كل ممكن له، بل لا بد من أن يحصل له ما ليس حاصلًا له وهذا يسمى ناقصاً قبل حصول التمام له. ثم الناقص ينقسم إلى ما لا يحتاج إلى أمر خارج عن ذاته حتى يحصل له ما ينبغي أن يحصل، فهذا يسمى مكتملاً، وإلى ما يحتاج ويسمى ناقصاً مطلقاً: فالتام هو العقل، والناقص هو الأجسام. والناقص من وجه كامل من وجه هو النفس، كما أن البدن وكل ما تتركب من العناصر ناقص. والكامل هو العقل. والناقص الكامل هو القوى الروحانية من التخيل والوهم وغير ذلك.

## نوع آخر من المعرفة

وكما أن حركة الجسم تدل على المحرك، والمتحرك إذا لم يكن طبيعياً فيدل على مدرك يحركه بالإرادة، والمدرك قد يكون ظاهراً وقد يكون باطناً وقد يكون عقلياً نظرياً أو عملياً، فكذلك فاعلم أن وجود الأجسام مقعر فلك القمر قابلة للتركيب، فإن الطين مثلاً مركب من الماء والتراب.

فنقول: هذا التركيب المشاهد يدل على وجود الحركة المستقيمة، وتدل الحركة من حيث مسافتها على ثبوت جهتين محدودتين مختلفتين بالطبع، ويدل اختلاف الجهتين على وجود جسم محيط كالسما، وتدل الحركة من حيث حدوثها على أن لها سبباً ولسببها سبباً إلى غير نهاية، ولا يمكن ذلك إلا بحركة السماء حركة دورية، والحركة الدورية لا تكون إلا إرادية، والإرادة الجزئية لا تكون

إلا مستمدة من إرادة كلية؛ والإرادة الجزئية تكون للنفس، والإرادة الكلية تكون للعقل.

فقد ثبت بهذا وجود العناصر القابلة للتركيب، ووجود السموات المتحركة للعناصر. والسموات المتحركة تدل على محركات هي نفوس سماوية، والنفوس مستمدة من العقول، والكل مستند إلى الله تعالى إبداعاً وإنشاء واختراعاً وخلقاً وإحداثاً وتكويناً وإيجاداً وإبداءً وإعادةً وبعثاً، فله الملك كله والملك كله، هو الأول بلا أول كان قبله، الآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين، ابتدع الخلق بقدرته ابتداءً، واخترعهم على مشيئته اختراعاً.

فأشرف المبدعات هو العقل، أبدعه بالأمر من غير سبق مادة وزمان، وما هو إلا مسبوق بالأمر فقط. ولا يقال في الأمر إنه مسبوق بالباري تعالى ولا مسبوق<sup>(١)</sup>... بل التقدم والتأخر إنما يعتوران على الموجودات التي هي تحت التضاد، والباري تعالى هو المقدم المؤخر، لا المتقدم المتأخر. وما دون العقل هو النفس وهو مسبوق بالعقل، والعقل متقدم عليه بالذات لا بالزمان والمكان والمادة: فالسبق بالذات إنما ابتدأ من العقل فقط، والسبق بالزمان إنما ابتدأ من النفس، والسبق بالمكان إنما ابتدأ من الطبيعة، فالطبيعة إذاً سابقة على المكان والمكانيات، ولا يعتورها المكان بل يبتدئ المكان من تحريكها أو حركتها في الجسم. والنفس سابقة على الزمان والزمانيات ولا يعتورها الزمان، بل الزمان والدهر يبتدئ منها، أعني من شوقها إلى كمال العقل. والعقل سابق على الذوات والذاتيات ولا يعتوره الذات والجوهرية، بل الجوهرية إنما تبتدئ منه، أعني هو مبدأ الجواهر، والسابق على الذوات والجواهر والدهر والزمان والمكان والجسم والمادة والصورة، ولا يوصف بشيء مما تحته إلا بالمجاز. ومن له الخلق والأمر

(١) العبارة غير مستقيمة، ولعلها «ولا متأخر».

فله الملك والمَلِك، وهو الأول والآخر حتى يعلم أنه ليس بزمني، وهو الظاهر والباطن حتى يعلم أنه ليس بمكاني جل جلاله وتقدست أسماؤه؛ ونعني بالأمر القوة الإلهية، والذي يقال من أن العقل صدر عنه بالإبداع شيء ليس ادعاء بأنه المبدع، كلاً بل نعني به تنزيه الحق الأول أن يفعل بالباشرة؛ فأما المبدع بالحقيقة فهو من له الخلق والأمر تبارك اسمه.

وكما أن النفس واحدة ولها قوى، وإشرافها على البدن، والروح الحيواني يفعل في كل موضع فعلاً آخر لاختلاف القوى، ففي موضع الإبصار، وفي موضع السمع، وفي موضع الشم، وفي موضع الحس المشترك، وفي موضع التخيل والتوهم وغير ذلك؛ فكذلك أمر الأول الحق جلّ جلاله بالنسبة إلى وجود العقل إبداع، وبالنسبة إلى وجوده في دوامه تكميل بالفعل، وبالنسبة إلى النفس تتميم وتوجيه من القوة إلى الفعل، وبالنسبة إلى الطبيعة تحريك، وبالنسبة إلى الأجسام تصريف، وبالنسبة إلى الطبائع والعناصر تعديل، وبالنسبة إلى المركبات تصوير، وبالنسبة إلى المصورات إحياء، وبالنسبة إلى الحيوان إحساس وهداية، وبالنسبة إلى العقل الإنساني تكليف وتعريف، وبالنسبة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أمر وكلام وكلمات وقول وكتاب ورسالات ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾ [الشورى: ٥١] فالأمر الأعلى بالنسبة إلى المكونات عبارة عن التكوين والإبداع، وبالنسبة إلى جزئيات المكلفين عبارة عن القول الذي هو الأمر والنهي والوعد والوعيد والخبر والاستخبار. فظاهر الأمر التكويني أوضاع الملائكة وسوقها الموجودات إلى كمالاتها، وكمالات الموجودات قبولها الأمر، وكمالات المكلفين قبولها للثواب، فمن لم يقبل الأمر أخرج من عالم الحق، والإخراج من عالم الحق لعن كحال الشيطان الأول إذ لم يقبل الأمر فأخرج من جنة العقل وقيل: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ [الحجر: ٣٤] وذلك معنى اللعن؛ ومن قبل الأمر

ادخل في عالم الثواب وتحققت فيه الملكية كحال الملائكة المأمورين بالسجود إذ قبلوا فدخلوا في عالم الثواب.

## فصل

وكما لا يستغني القوى النباتية والحيوانية والإنسانية عن إمداد النفس لحظة واحدة بل لا بدّ من دوام الإشراق عليها وإمداد تأثيرها حتى ينتظم العالم الصغير، فكذلك في العالم الكبير نقول في المبدأ: إن كل صاحب مرتبة وإن تولى ما قيض له وأرصد لعلمه فلن يستغني عما فوقه بالإمداد له والإفاضة عليه والنظر إليه والتأييد له، وكذلك في العود: إن كل صاحب مرتبة وإن نقل عمله إلى ما فوقه فلن ينقطع عمله من معملته بالكلية. ولو انقطع عمل الطبيعة لبطلت القوى النباتية وببطلانها بطلت القوى الحيوانية، وكذلك لو انقطع عمل النفس لبطلت القوى الحيوانية وببطلانها بطلت القوى الإنسانية، وكذلك لو انقطع عمل العقل لبطلت القوى الإنسانية وببطلانها بطلت النبوة.

فالتبيعة حافظة للنفس النباتية، والنفس حافظة للنفوس الحيوانية، والعقل حافظ للنفس الناطقة الإنسانية، وأمر الباري تعالى حافظ للنفس القدسية النبوية: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ [الطارق: ٤]، هذا على العموم ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ [الرعد: ١١] أي بأمر الله، وهذا على الخصوص. فالأول الحق كما أبدع العقل الأول أكمله بالفعل، وكما اخترع بواسطة النفس أتمها بالقوة المتوجهة إلى كمال العقل، وكما ابتدع بواسطتها الطبيعة أمدّها بالتحريك، وكما أحدث الأجسام قدرها بالتصريف، وكما ركب العناصر سوّاها بالاعتدال، وكما عدل الأمشاج والأمزجة أظهرها بالتصور، وكما صورها أحيّاها بالنفوس، وكما سخرها بالنفوس دبرها بالعقول، وكما دبر العقول ساقها إلى معادها بالتكليف والشرائع فأمر ونهى وبشر وأنذر ووعد وأوعذ على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وبالجملة ليس خلقه العالم كمن بنى داراً وسرَّح فيها من عبده خلقاً كثيراً، فرتب لكل منهم ما خلقه لأجله، وقطع عنهم نظره وتدبيره وعلمه وقدرته وإرادته، فهم بخلقهم يعملون للأمر وبحكمه يتصرفون. فلا الدار محتاجة في بقائها إلى ممسك إذ قد استغنى البناء عن الباقي كما ظنه قوم، ولا أهلها محتاجون إلى مدبر ومقدر إذ استغنوا بفطرتهم على ما هم عليه عن تجديد أحد وبنيان بان كما يخيله قوم، بل كما كانوا محتاجين في وجودهم إلى أمره تعالى، وكما لم يكن وجودهم بذواتهم لم يكن دوام وجودهم بذراتهم، فهو القيوم على الملكوت جلّ جلاله.

## فصل

وكما استكمل الآدمي بدءاً بالطبيعة حتى عاش في هذا العالم، فيجب أن يستكمل نفساً بالشرعية حتى يعيش في ذلك العالم، فقيضت الملائكة مسخرين للطبيعة، فحصل كمال الأبدان وبعث الأنبياء عليهم السلام مدبرين للشرعية حتى حصل كمال النفوس. وكما أن الصنوة في المزاج إنما حصلت بابتلاء الأمشاج واستخلاص المواد حتى صار مولوداً سمياً بصيراً في هذا العالم، كذلك الصنوة في النفوس إنما حصلت بابتلاء التكالييف واستخلاص النفوس حتى صار سمياً بصيراً كاملاً في ذلك العالم؛ ولولا تلك التصفية لم يكن ليعث نبيّ إلى عام الأرحام، ولولا هذه التصفية لم يكن ليعث نبيّ إلى عالم الأحكام.

وأعجب بروحانيين متوسطين في الخلق وجسمانيين متوسطين في الأمر؛ والملائكة يحشرون الخلق من التراب إلى تمام الخلقة الإنسانية لهذا العالم، والأنبياء عليهم السلام يحشرون الخلق من الجهل إلى تمام الفطرة الملكية لذلك العالم. فالملائكة والأنبياء عليهم السلام في عالمي الخلق والأمر هما الأمر الأعلى، وكل بأمره يعملون، ومن خشيته مشفقون ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ [الأنبياء: ٢٠].



فإن قال قائل : ما ذكرتم في إثبات هذه المعارج والموازنات بين النفس وبين الله تعالى وصفاته وأفعاله ، كلها تشير إلى إثبات مشابهة ومضاهاة بين العبد وبين الله ؛ ومعلوم شرعاً وعقلاً أن الله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء .

فالجواب أن نقول : قد أشرنا في إثبات هذه المعارف إلى ما يوجب تقدس الباري عن جميع صفات مبدعاته ومكوناته ، ومع هذا مهما عرفت معنى المماثلة المنفية عن الله سبحانه وتعالى عرفت أنه لا مثال له . ولا ينبغي أن نظن أن المشاركة في كل وصف توجب المماثلة ، أفترى أن الضدين متماثلان وبينهما غاية البعد الذي لا يتصور أن يكون بعداً فوقه وهما يشتركان في أوصاف كثيرة ؟ إذ السواد يشارك البياض في كونه عرضاً وفي كونه لوناً وفي كونه مدركاً بالبصر وأمر آخر سواه . أفترى أن من قال : إن الله موجود لا في محل ، وإنه حي سميع بصير عالم يريد متكلم قادر فاعل ، والإنسان أيضاً كذلك قد شبه وأثبت المثل ؟ هيهات ! ليس الأمر كذلك ، فلو كان كذلك لكان الخلق كلهم مشبهة ؛ إذ لا أقل من إثبات المشاركة في الوجود وهو يوهم المشابهة ، بل المماثلة عبارة عن المشاركة في النوع والماهية ؛ والفرس وإن كان بالغاً في الكياسة لا يكون مثلاً للإنسان ؛ لأنه مخالف له في النوع ، وإنما يشابهه في الكياسة التي هي عارضة خارجة عن النوع والماهية المقومة لذات الإنسانية . والخاصية الإلهية هي الموجود بذاته الذي يوجد عنه كل ما في الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال ، وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركة البتة ، والمماثلة بها لا تحصل ؛ فكون العبد رحيماً صبوراً شكوراً لا يوجب المماثلة ككونه سميعاً بصيراً عالماً قادراً حياً فاعلاً .

بل أقول : الخاصية الإلهية ليست إلا لله تعالى ، ولا يعرفها إلا الله تعالى ، ولا يتصور أن يعرفها إلا هو ؛ ولذلك لم يعط أجل خلقه إلا أسماء حجبها فقال ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [ الأعلى : ١ ] فوالله ما عرف الله غير الله في الدنيا

والآخرة، يعني على سبيل الإحاطة والكمال. فهو الله المنزه عن الماهية، الأحد المقدس عن الكمية، الصمد المتعالي عن الكيفية، الذي لم يلد بل هو المبدع، ولم يولد بل هو قديم الوجود، لم يكن له كفواً أحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

## [ خاتمة ]

هذا ما أردنا أن نذكره في هذا الكتاب. وقد كشفت الغطاء عن وجوه الأسرار المخزونة، ورفعت الحجاب عن كنوز العلوم، ودلت على الأسرار المخزونة، وأبدت فيه العلوم المكنونة المضمون بها، تقرباً إلى الإخوان الذين لهم قوة القرينة وصفاء الذهن وزكاء النفس ونقاء الخدس، وتيقناً بأن الزمان قد خلا من الوارثين لهذا الأسرار تلقفاً، ومن المقتصرين على الإحاطة بها استنباطاً وتأسياً من أن يكون للراغب في تخليد العلم وإيراثه من بعده وجه حيلة إلا تدوينه وإيداعه الكتب مسطراً مرموقاً، دون الاعتماد على رغبة متعلم في تحقيقه على وجه وحفظه وإيراثه من بعده، ودون الاعتماد على همم أهل العصر ومن يكون بعدهم مثلهم في البحث والتفتيش وإزالة الإشكال وحل الإشكال والغوص في غوامض العلوم؛ فمن أين للغراب هويّ العقاب؟ ومن أين للضباب صوب السحاب؟ ثم إني حرمت على جميع من يقرؤه من الإخوان الذين لهم المناسبة العلوية والقرينة الصافية أن يبذله لنفس شريرة أو معاندة أو يطلعها عليه أو يضعه في غير موضعه:

فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فإن وجد من يثق بنقاء سريرته، واستقامة سيرته، وبتوقفه عما يتسرع إليه الوسواس، وبنظره إلى الحق بعين الرضا والصدق، فليؤته مجزئاً مدرجاً، يستغرس مما يسلفه لما يستقبله، وعاهده بالله وبأيمان لا مخارج لها أن يجري فيما

يؤتيه مجراك ، متأسياً بك ؛ فإن أذاع هذا العلم وأضاعه فالله بيني وبينه وكفى بالله  
حسيباً . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .  
[ انتهى كتاب معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ويليه القصيدة الهائية  
والقصيدة التائية ] .



بسم الله الرحمن الرحيم

### القصيدة الهائية

ما بال نفسي تُطيل شكواها  
يفسد إخلاصها شكائتها  
لو أنها من مليكها اقتربت  
لكنها آثرت بِرَيْتَه  
أفقرها للورى ولو لجأت  
تشكو إلى خلقه كأنهم  
لو فَوَّضت أمرها لخالقها  
عَوَّضها من همومها فرجاً  
تُسَخِّطُه في رضا بِرَيْتِه  
لو أنها للعباد مسخطة  
لديّ نفس أحب أنعتها  
فاسمع صفاتي ها لعلك أن  
تسعى إلى اللهو وهو غايتها  
أزجرها وهي لي مخالفة  
تنظر في عيب غيرها سَفْهاً  
قد ظلمني بسوء عشرتها

إلى الورى وهي تترتبي الله  
ذاك الذي راعها وأرداها  
وأخلصت ودّها لأدناها  
عليه جهلاً به فأقصاها  
إليه من دونهم لأغناها  
قد ملكوا نفعها وضّراها  
وصححت صدقها وتكلاها<sup>(١)</sup>  
ولم يدعها بطول غمها  
تبّاً لها ما أجلّ بلواها  
مرضية ربها لأرضاهها  
لتعرفوا نعتها وأسماءها<sup>(٢)</sup>  
تفهم ذا اللبّ سرّ معناها  
يا ويلها ما أضّرّ مسعاها  
كأنني لست من أودّائها<sup>(٣)</sup>  
وكم عيوب لها فتنساها  
ولم تدع لي تقوى ولا جاها

(١) من التكلان، وهو التوكل بمعنى الاعتماد.

(٢) أي أسماءها. (٣) أي أودائها.

قليلة الذكر في مصلّاها  
 ضعيفة الصبر عند بلواها  
 سريعة الجري في بلاياها  
 كذوبة في جميع دعواها  
 عميّة عن أمور أخراها  
 كاسلة عند وقت ذكرها  
 أتقن تصويرها فسوّاها  
 عظيمة الخوف عند ضراها  
 أفسدها كبرها وأطغاها  
 يرفع مقدارها ومثواها  
 عرفها قذرها وطغيها  
 وجهها للمنام أغراها  
 ناسية ما جناه كفرها  
 طهرها بالتقى ونقاها  
 ثم بقوت الحلال غذاها  
 فانهملت بالدموع عينها  
 بخوف معبودها فسلاها  
 بالرغم عن غيها ومغراها  
 مخلصه سرها ونجواها  
 أوت إلى ربها فلاواها  
 ومن مياه اليقين أرواها  
 ثم صافى ودادها فصفها  
 أجابها مسرعاً ولباها  
 أو سألت ما يريد أعطاها

كثيرة اللغو في مجالسها  
 قليلة الشكر عند نعمتها  
 بطيئة السعي في مصالحها  
 كثيرة الأطّل في مواعدها  
 بصيرة بالهوى وفتنته  
 نشيطة عند وقت لذتها  
 نؤومة العين عن عبادة من  
 كثيرة الأمن عند صحتها  
 حليفة الكبر والرياء فقد  
 عظيمة المدح والثناء لمن  
 مطيلة الذم بالقبيح لمن  
 تفرح في أكلها ومشربها  
 ذاكرة للورى مساويهم  
 كم بين نفسي وبين نفس فتى  
 علمها رشدها وبصّرها  
 أقامها في الدجى على قدم  
 إذا اشتهدت شهوة يعوّدها  
 وراضها بالصيام فانقمعت  
 ذاكرة للإله شاكرة  
 لله نفس أمريء موفقة  
 شرفها ربّها وكرمها  
 سمت إليه بحسن فكرتها  
 تلك التي إن دعيت لحاجتها  
 إن بليت بالخطوب صبرها

ليست كنفس لذي عاصية  
وهي لأمر الإله عاصية  
كيف إلى ربها تنوب وقد  
فكلما قلت يا نفسي ازدجري  
صمت عن الحق وهي سامعة  
لو علمت بعض ما له خلقت  
لو تعرف الله حق معرفة  
لكنها جهلها بخالقها  
يا ويح نفسي والويح حق لها  
تغرها لذة الحياة وما  
قد ضقت ذرعاً بها وأحسبها  
إن أنا حاولت طاعة فترت  
صرت مع النفس في محاربة  
نحن كقربين في معاركة  
وهي بجند الهوى مبارزتي  
إن جنت بالقتال شجعها  
أصرعها تارة وتصرعني  
أحبها وهي لي معادية  
عدوة لا أطيق أبغضها  
ساجدة في بحار فتنتها  
أحسبها إن أبت موافقتي  
يا رب عجل لها بتوبتها  
إن تك يا سيدي معذبها  
فالطف بها واغفر خطيئتها

آمرها جاهداً وأنهاها  
ونلي لما قد جنت وويلهاها  
ذلت لشيطانها فأغراها  
وراقبي في أمـــــورك الله  
كأنني ما أريد إياها  
أحزنها علمها وأبكاها  
لصححت برّها وتقواها  
أغفلها رشدّها وألهاها  
إن صدها ربها وأرداها  
تدري إلى ما يكون عقباها  
لم أك أعصي الإله لولهاها  
وأظهرت وحشة وإكراهاها  
تأمرني بالهوى وأنهاها  
أدرع الصبر عند لقيهاها  
وأي صبر يطيق هيجهاها  
أو ضعفت في اللقاء قواها  
لكن لها سبق حين ألقاها  
كأنني لست من أحبهاها  
يا ليتني أستطيع أنساها  
جانبه في سدول ظلماها  
خاسرة دينها وديهاها  
واغسل بماء التقى خطاياها  
من ذا الذي يُرتجى لرحاها  
إنك خلّاتها ومولهاها

## القصيدة النائية

بنور تجلّى وجه قدسك دهشتي  
 فيا أقرب الأشياء من كل نظرة  
 ظهرت فلما أن بهرت تجلياً  
 فأوقعت بين العقل والحس عندما  
 إذا ما ادعى عقل وجودك منكراً  
 وذلك أن الحس ينفيك صورة  
 فمن ها هنا منشا الخلاف ويصعب الـ  
 فإن قلت لم أبصرك في كل صورة  
 وإن قلت إني مبصر لك أنكرت  
 تجليت مني فيّ حتى ظهرت لي  
 على أنه لم يبق لي جبل رأى  
 وناجيتني في السرمني فأصبحت  
 فما في فضل عنك يخطر فيه لي  
 وديعة روح القدس نفسك ردها  
 وما ردها إلا بتكميلها بما  
 فمهما تجلت من كدورات عالم الطـ  
 نصحتك جهدي إن قبلت فلا تكن  
 وغاية مقدوري فقلت وإنما  
 وهل ممكن إسعاد من كان قد جرى  
 يظن الفتى لذات دنياه نعمة

وفيك على أن لا خفاً بك حيرتي  
 لأبعد شيء أنت عن كل رؤية  
 بطنت بطوناً كاد يقضي بردتي  
 خفيت خلافاً لا يزول بصلحة  
 على الحس ما ينفيه قال له اثبت  
 يراها ويرضى العقل فيك بحجة  
 وفاق بخلف في اقتضاء الجبلة  
 أراها أحالت ذاك عين بصيرتي  
 مقالي ولم تشهد بذا لي مقالتي  
 خفيت خفاء دق عن كل فكرة  
 تجليك لي إلا ودك بصعقة  
 وقد طويت عما سواك طويتي  
 سواك فوقتي فيك غير موقت  
 فمن واجبات العقل رد الوديعة  
 يليق بها من كسب كل فضيلة  
 بيعة شفت جوهراً وتجلت  
 على حكم غش حاملاً لنصيحة  
 قبولك مما ليس في وسع قدرتي  
 له قلم في اللوح يوماً بشقوة  
 وما هي إلا نقمة في الحقيقة



ويبلغ منه الجهل ما ليس يبلغ الـ  
ونفسك فاحفظها وصنّها فإنّا  
وخالف هواها ما استطعت فإنّه  
لعمري لقد أنذرت إنذار مشفق  
عدوّ بجذ السيف عند الحظيطة  
سعادتها في فعل كل مشقة  
عدوّ يبغي لها كل نكبة  
وجاوزت في الإيضاح حد الوصية

فقم واسع وانهض واجتهد وابغ مطلقاً  
بذاك على ما فيك شر صنعة  
فإنك من نور مضي وظلمة  
تسوس الحياة الجسم وهي مسوسة  
بما فيك من أسرار علم مصنونة

فشیطان رجيم أنت أو ملك بما  
ألا إن لي بالنفس مني شاغلاً  
جلت شبهة الإعراض عني بديهة  
رأيت بها النور الإلهي لائحاً  
فحققت ما قد كنت فيه مشككاً  
وأدركت ما المقصود من بدأتي وما الـ  
تعانيه من فعل قبيح وعفة  
به تم لي ما دمت من ملكية  
توقد كالمصباح في جوهرتي  
وراء ستور للأمور دقيقة  
وعاينت ما قد كان في سرّ خفية

مراد بإحيائي وموتي ورجعتي  
بمراة نفس لاح لي في صقالها الـ  
ولم يبق عندي ريبة في الذي استرا  
فألقت عصاها النفس  
مقابل للكونين كل حقيقة  
بمنه أناس في أمور كثيرة  
تحي وأيقنت

بأن سفرت  
يدل على ما قلته حالة الكرّى  
وقابل لوح الغيب للنفس مثلاً  
عن وجه نجعي سفرتي  
إذا ركذ الإحساس متك برقدة  
تقابل مرأة بأخرى صقيلة

فيطبع ما في اللوح في النفس فهي من  
 هناك بعلم الغيب نسخة نسختي  
 ولو أمكن التجريد في كل يقظة  
 وما هو عند الله مثل لآدم  
 ويطمع جهلاً أن سيدخل جنة  
 خلافاً لما يعطى القياس ولم يقم  
 أيخرج منها آدمياً إثم زلة  
 كيف ترى يقضي الكريم بهفوة  
 ولولا حديث في الشفاعة قد أتى  
 لما طمعت نفس تفوز بجنة  
 ومع ذا اختلاف الناس في ذاك ظاهر  
 تقام عليه واضحات الأدلة

وإذا كان قد صح الخلاف فواجب  
 وترك الأماني الخوادم بعد أن  
 ولو كان لا يجزى مسيء بفعله  
 وما كان في الإحياء والموت حكمة  
 ومستبعد إحيائنا ومماتنا  
 أيحسن أن تبني قصور مشيدة  
 وتهدم عدماً لا معنى وإنه  
 وذلك شيء فعله عبث وما  
 فلم يبق إلا أن يدبر أمره  
 فما شقيت نفس أطاعته رهبة  
 ولكن بنور العلم تسلم هذه  
 على كل ذي عقل لزوم التقيّة  
 رأى بأبيه آدم كسل عبرة  
 ولا محسن ضاعت أمور البريّة  
 وكان محالاً حكم كل شريعة  
 سُدّي لا معنى فيه سر مشيئة  
 بأحسن أوضاع وأجل بنية  
 ليقبح هذا في العقول السليمة  
 يدبرُ هذا الكون بالعبيّة  
 حلّم محيط العلم عدل الحكومة  
 وما سعدت نفس عصته لرغبة  
 وتعطب جهلاً تيك أقبح عطبة

فيا عجباً ممن يروم لنفسه  
ومن تائب من ذلة لا تُرى له  
ومن مخبر لا يعجز الله قدره  
ومن أشرقت أنوار مرآة عقله  
وثبت غرس العقل في القلب مثمراً  
خلاصاً ولم يرغب بها عن جريرة  
دموع كأفواه الغمام المكبة  
عليه ولا يخشى بواد نعمة  
على ظلمات الطبع منه تجلت

لباغي الحيا استقباح كل رذيلة  
وما وصلت نفس إلى عالم الصفا  
وتميزها عن نوعها بمعارف  
وقد يملأ القطر الإناء فيمتلي  
فأخرجتني عني بإدخال محنة  
وأسقيتني من خر حبك شربة  
محاني بها سكري وأثبتني معاً  
وأقربتني من رمز طرسي أسطراً  
وأقررتني مني عليّ بأنني  
وأفشيت بي سري إليّ فأصبحت

وقد أعربت إذ أفصحت عنه عجمتي  
وأفهمتني مني بأن ليس موطني  
فأهمت ما أفهمت إذ ليس مدرك  
ومن ذا الذي خصصت منك بحكمة  
مكاناً به في عالم الحس نشأتي  
لذلك إلا من خصصت بحكمة

ولم تك قد عممت منك برحة  
فكم أظهرت تلك الإشارات خافياً  
وما لاح ذاك البرق إلا ليهتدي  
لقد سمع الواعي وقل الذي وعى  
وإن عزبت عن فهم قوم ودّقت  
به الركب لكن ظلمة الجهل أعمت  
لسكر به أهوى أصمت فأصمت

لعقلك لكن لست تصغي لدعوة  
 ويعجز أن يُشفى مريض البديهة  
 إذا كان لا في جنب منبث شعبة  
 وأنهم بالحس في دار غريبة  
 ومن حقه أن يبدلوها بترحة  
 ومن حقه إظهار كل مسرة  
 أبيحت له عن خير دار وأسرت  
 وأوطانه الأصلية المستلذة  
 ترى عابدي الأوثان أجهلُ أمة  
 كتعظيم أجسام لهم مضمحلة  
 ولكنهم لم يستووا عند نية  
 إذا اعتبرت أربت على كل ضلة  
 وداعيك فيهم مسمع كل فطنة  
 إليّ به أعظمت فيه خطيئي  
 وعزي به ذلّ ونفعي مضرتي  
 لدى فعله وجهي إلى وجه وجهي  
 وأحييتُ حكماً قد أماتته سني  
 نهاية تأديبي وفرط عقوبي  
 كما اجتمعت بلوأي بعد تشتت  
 لديّ ولا منه خلاص بسلوّة  
 بتجديد صبري فيه أبلى بليتي  
 فقد شفّ جسمي سرّ عود وبدأة  
 قليل لسكر حلّ لي منك شطحتي

وكم لك داع منك فيك مبصر  
 وكل مريض الجسم يمكن برؤه  
 ويستبعد الجهال كوناً بموطن  
 ولو علموا ما عالم العقل منهم  
 إذا ولد المولود سرّوا بفرحة  
 ويبكونه عند الممات جهالة  
 ولم يعلموا أن الولادة غريبة  
 وموته عود له نحو أهله  
 وأعجب من هذا مقالُ جميعهم  
 وما عظم الأوثان من كان قبلهم  
 فكلّ غدا معبوده فاستووا  
 فقد وقعوا مع علمهم في ضلالة  
 فيا ليت شعري تيف صمّت عقولهم  
 وكل فعال لم أكن متقرباً  
 فقربي به بُعدٌ وربحي خسارة  
 لأنّي فيه قمت غير موجه  
 فدنت بأمر حرّمته شريعتي  
 فكانت بتركي في مناهيه غفلتي  
 تشتت عقلي فيك بعد تجمع  
 هوّى فيك لي لا منتهى لامتداده  
 أزيد بلى إذ يستجد ولم يكن  
 يعيد ويبدي أولاً منه آخر  
 ألا لا تلمني إن شطحت فإنّه

ولا تنهني إن تهت سكرأ معربداً

فأنت الذي استحسنت فيك هتيكي  
ولا تلح إن غنيت فيك تطرباً  
فلو وجدت وجدي الجبال لغنت  
ومن عجب حل الجبال هوى به  
طلعت وعن حلي قديماً تأبت  
فمن قيس ليلي العامرية في الهوى  
ومن قيس لبنى أو كثير عزة  
إذا تليت آيات ذكرى فقابل الـ  
مجنون ذكرى بالسجود لحرمتي  
وأوجب كل منهم الوقف عندها  
وسلم أن لا قصة مثل قصتي

فمن فضل كاسي شرب غيري ولم يكن

يقاس بسكري سكر شارب فضلي

يلبل بالي لا لنوح حامة  
ولو كنت محتاجاً للتنميم باعث  
وينهل دمعي لا لإيماض برقعة  
ولكنني مني وفي نواعش  
يحرك أشجاني لبانت نقيصتي  
فلا رقدة تغدو علي بفترة  
تحركني في كل سر وجهرة  
فمن يشك يوماً في هواه فإنني  
ولا يقظة تغدو علي بغفلة  
تسترت جهدي في هواك وطاقتي  
لي الشكر أولى في الهوى من شكي  
فأعلنت ما أسررت فيك فلم يكن  
فلما منعت الصبر أبديت صفحتي  
فما لا شتيافي في إفتضاحي مدخل  
بقول ولا فعل سواك فضيحتي  
وقد كان لي في الصبر ستر على الهوى  
ولا لدموع فيك لي مستهلة  
بهتك ستر الصبر أظهرت عورتني  
ولا ملّة فيه تقاس بملتي  
يعبر عني أنني ذات وحدة  
وكل ملذ مؤلم عند لذتي  
إلي فقد أفضى إلى كل خيبة  
حنوي لم أعهد إليك بلفظة

وكننت إذا زلت بك النعل هاوياً  
ولكن ما ينجيك ينجي هويتي  
وهل أنا إلا أنت ذاتاً ووحدة  
ولولا اعتبار الجسم بالنسبة التي  
ولست بذي شكل فيوجب كثرة  
ويوقع ما بيني وبينك سبة  
وإني لم أهبط إلى الأرض يبتغي  
وتقرير هذا إن دعيت خليفة  
وصير ملكي عالم الجسم محنة  
فإن أنا أحسنت الولاية أحسنت  
وعاينت ما لا عاينت مقلّة ولا  
وآثرت لذاتي ونيل مآربي  
سدّدت على نفسي سبيل تخلّصي  
وأوقعتها في أسر من لا يرى لها  
فلا ندم يجزي ولا حسرة يرى  
فياويح نفس آثرت طيب زائل  
يموت الفتى بالجهل من قبل موته  
فما مات حيّ العلم يوماً ولم يكن  
وأنظر أحوال الرجال وقوفهم  
فإمّا إلى آلام نفس خبيثة  
فآلام تلك الترك في دار غربّة  
وهل حسرة في النفس أعظم غصّة

من البعد عن أهل ودار وجيرة  
كما أنه لا شيء أعظم لذة لدى غربّة من ملتقى بعد فرقة

كأنني لم أحجب بها وكأنما  
 هي احتجبت لي فازدهى الناس عشقتي  
 وغُودرت لا يثنى علي حسن فعلي الـ  
 جميل ولا يلوي على حسن طلعتي  
 ولو قايسوا بالحسن بيني وبينها      لكانت لديهم لا تسام بحبة  
 وشق القلوب الجاهلات التي بها      محبتها قالت بهم عن محبتي  
 وما ذاك شيء يسقط العذر لامرئ  
 أطاع الهوى وانقاد عبداً لشهوة  
 وهل نافع شق الفؤاد ندامة      لدى قدم زلت ولم تثبت  
 فكيف يليق الوصل مني لمؤثر  
 على طيب وصل من هي عبدتي  
 إذا رضيت عنه يهون عليه في      رضاها وأدنى ذاك تسهيل غصة  
 على أنها أعدى عداه ترتبت      له حيلة منها لإمكان فرصة  
 فهام بها عشقاً وآثر وصلها      فزل فنادته إلى ألف لعنة  
 ولولا الشقا والجهل ما آثر العدا  
 رضاها وجانب طيب وصل الأوبة  
 وهل أمتي بالفضل مثلي وإنما  
 وتأبى الطباع الفاضلات ارتكابها الـ  
 فكم حشرات في نفوس يثيرها  
 وكم عبرة تجري عليّ تأسفاً  
 وكم قارع سنأ عليّ ندامة  
 وكم أنة تغدو عليّ ورثة  
 وهل هاجري جداً بغيري بالغ  
 لشتان ما بين المقامين إنما الـ

ألم ترَ أني منتهى قصد مبدعي      ولم تبدع الأشياء إلا لخدمتي  
وأن لإكرامي وتعظيم حرمتي      أشار إلى الأملاك نحوي بسجدة  
وَصِرَ ما في عالم الكون كله      بحكم إراداتي وطوع مشيتي  
فإن كنت في وصل دعيست فلا تمل

إلى وصل غيري واغتمم صحبتي  
وخذ جانباً من رفقة بك وكلوا      ببعدك عن وصلي وإثبات جفوتي  
فعند ارتفاع الحجب ما بيننا ترى      محاسن وجه الغانيات وبهجتي  
ولا عُجِنْتُ إلا ببك طينتي      ولا لَهَجْتُ إلا بذكرك لهجتي  
وردت ورود الهم فيك من الهوى

شريعة حسب هيجبت لي غلتي  
ولا عجب إن هيجت لي غلة      فما تلك عندي منك أول محنة  
إذا كان بي أمر أرى فيه لي أذى      رضاك فما أحلاه في قلب ذلتي  
لذلك ما أرضاك مني فعلته      ولو غضبت منه كرام عشيرتي  
وما بعث فيك النفس إلا لعل أن      أفوز بوصل منك تريح صفقتي  
فإن أنت أمضيت التبايع بيننا

فبعثت وإن لم تمض أكسدت سلعتي  
وما قدر نفسي لي لديك حقيرة      فأجعلها مهرأ لأشرف وصلة  
ولكن مقل باذل فيك جهده      أحق بوصل من أخي كل ثروة  
توحشت من أبناء نوعي ولم يكن

لشيء سوى أنسي بقربك وحشتي  
تغربت عن أهلي إليك وإنني      ليعذب لي في طيب أنسك غربتي  
فكم خلوة فزت فيها بجلوة      خرجت بها عني إليك بفرحة  
وطلقت فيها عالم الحس بته      لتعلم أني لا أقول برجعة  
وفارقت أوطاني وأهلي وجيرتي      لتعلم أني باذل فيك مهجتي



ولولا دخولي في رضاك بكل ما اسـ  
وكان بودي لو قبلت تقري  
وهل أنا إلا نطفة من سلالـة  
لعمري لقد حاولت أمراً مرامه  
وليس اعترافي باتضاعني بمانعي  
وليس على قدري سؤالي فإنني  
ولكن على مقدار إحسانك الذي  
وما أنا ممن يوهن الرد عزمه  
ولا أنا ممن يخجل الطرد وجهه

على كل حال ليس لي عنك مذهب

فما شئت فاصنع وارض عني فإنني  
كفاني اعترافي باقترافي توبة  
وهل أنا إلا دوحة قد غرستها  
إذا حصلت لي كيف ما كان نسبة  
فيا حيرتي كم حيرة فيك لي غدت  
وكم نعمة أسبغت من سر حكمة  
وأحييت مني ما أماتت جهالتي

ومن حيت من مودة الجهل نفسه

بعل نجت من قطع كل منية  
لدي بريح منك أجرت سفيني  
ملححة حتى أفادت معني  
أريد بوضع الصورة الألفية  
له فيصير العين أعمى البصرة  
وكم موجة من بحر علم أثرتها  
فمرت تشق الكون حين مهبها  
وأدركت معنى آخر دق فهمه  
ومن لم يحط علماً بمعنى وصورة

فزرع ولكن لم يفد حصده      ومخض ولكن لم يفد مخض زبدة  
إذا جهل الإنسان تحقيق أمره      فكيف بتحقيق الأمور الغريبة  
فيا عجباً للمرء يجهل نفسه      ويطمع في فهم المعاني البعيدة  
وما ناهض بالنفس يزداد رتبة      من العلم تسميها كوان مفوت  
وما موقظ من رقدة الجهل عقله

لتحصيله تكميلها مثل ميت  
إذا كملت نفس الفتى بصفاته الـ      جميلة من قول وفعل ترقّت  
وأصبح يدعى عالم العقل عالماً      لها وتخطت نفسه كل خطوة  
وبالعالم بالنفس النفيسة يدرك الـ      محصل فهم العلة الأولية  
ومن لم يحط علماً بذاك فإنه      وإن كان حياً حكمه حكم ميت  
وما الحيّ عند العقل من كان غالباً

على نفسه حكم القوى البدنية  
ولكنه من شرفت قدره على      بني نوعه أوصاف نفس زكية  
ففي العالم العلوي ذا ملك وذا      لدى العالم السفلي شيطان جنة  
وما اختلفا بالنوع حتى يظن ما      به اختلفا فعلاً لخلق الغريزة  
وكل أبوه آدم ويخص ذا      لذا خصّ ذا من سر معنى النبوة  
ومن أعجب الأشياء فرعاً أرومة

ومما اتحدا بالطبع في الثمريّة  
بأيّ لسان أوتر الشكر مثنيّاً      عليك بما أوليتني من فضيلة  
وأكملت من عقلي ووصفي وصورتي

وفهمي وأحشائي وحولي وقوتي  
وصفحك عني إن عصيت تكرماً      ووعدك عن طاعتي بالمشوبة  
وهل ممكن إحصاء ذرّات كل ما  
على الأرض من كثران رمل مهيلة

وإحصاء ما في البحر من كل قطرة  
وذلك أمر مستحيل وكلما اس  
وما كل هذا لو أتيت بضعفه  
فكيف بشكري كل عضو وقوة  
وشكر التي قد حجت بي وإنها  
بعيدة أطلال الديار قريبة  
بها مثل ما بي من هواها وعندها  
وقد أدركتها رقة لي أطمعت  
وقللت لها مني علي بنظرة  
ألم تعلمي ما حل بي منك من جوى  
فإن الجبال الشم وهي رواسخ  
فأحزان قلبي لا تجود بسلو  
ولسولا حنيني لم تحن مطيبة  
ولولا خطابي لم يقع عين عابد  
فلا ماء إلا بعض فيض مدامعي  
تقالت بعيني ما لقيت وإنه  
وإي على ما في من صلف إليها  
ولكن وشاة السوء فيك كثيرة  
وأنت فمغرى بالحسان وإنني  
ومن لم يصني صنت وجهي ببرقع  
ليمتحن الخطاب لي إذ يرونها  
وما هي إلا عبدة لي جميلة  
فما كان إلا أن رأى الناس وجهها  
ويعلم ما قد كان بالأمس والذي

بحيث يحيط المحصي منها بعدة  
تحال فمفني لحكم الضرورة  
من الشكر أدنى شكر أصغر حبة  
جعلت لنفي عند تأليف بنيتي  
لأظهر لي من نور شمس تبت  
وأعجب شيء بعد دار قريبة  
من الود لي ما ليس دون مودتي  
بنيل المنى لولا مخافة وقفتي  
أنال بها من حسن وجهك منيتي  
وكابدت من أشجان قلب ولوعة  
لو احتملت بعض الذي بي لدكت  
وأجفان عيني لا تسح بدمعة  
ولولا نواحي لم تنح ورق أيك  
علي لما مني الصبايسة أبلست  
ولا نار إلا دون أنفاس زفرتي  
ليؤلم قلبي أن تشاك بشوكة  
لراغبة في الوصل أعظم رغبة  
وليست مع الواشين تمكن رؤيتي  
لأكره ما بي أن أرى وجه ضرتي  
وصور فيه صورة دون صورتي  
أيلهون عني أم يتمون خطبتي  
تظن وما أفعالها بجميلة  
فهاموا بها في فج وجه ووجه  
يكون غداً أو كائن بعد برهة

ويخبر بالأمر المغيب مثل ما  
 ويعلم ما مفهوم معنى معبر  
 وما الوحي إلا خلع نفس قوية  
 وأنى لها نحو المحيط بذاتها  
 وإدراك ما يلقي إليها هناك من  
 وإفهام أفهام النفوس لطائف الـ  
 وما أطرب الأرواح منا لدى الفنا  
 وذلك أن النفس قبل اتصالها  
 وعى سمعها من طيب ألحان نغمة  
 إذا أقبلت أجرامها باصطكاكها  
 وشذت لبعد العهد عنها فلم تكن  
 فلما أحست بالسماح بمثلها  
 وحاولت التجريد عن عالم الفنا  
 فجاذبها الجسم الزمام وأقبلت  
 ولا شك في أن العقول محيلة الـ  
 فإن لم يكن في عالم العقل ما يرى  
 وذلك تعطيل وليس بحكمة  
 وقد يطرب الدولاب عند حنينه  
 وناهيك أن الطفل عند بكائه  
 وبذهل عما كان فيه من الأذى  
 ولولا ادكار النفس منه لدى الغنى  
 وقد تطرب العجماء عند استماعها الـ

غنىاء وتنسى عنده كبل غممة  
 وإلا فما بال المطي إذا ونست  
 عن السير هيجت في الفلاة بجودة

فتصغي إلى الحادي بأسماعها كما  
وتوسع مد الخطو حتى كأنها  
ويرتاح بعض الطير عند سماعه  
وما ذاك إلا أن أفلاكها على  
فصارت بحكم الطبع تشاق ما به  
فلا تحسب الأشياء مهملة كما  
وللحوت بل للدود في العود بل لما  
وفيها لها آفاق جو فسيحة  
فما خص نوع لا يتم سواء من  
وكل له عقل يسدده إلى  
وما النحل في أوضاعها لبيوتها  
وقد يعجز المرء المهندس وضعها  
وجعل لعاب العنكبوت لصيده الـ  
ويفهم بعض الذرّ مقصود بعضه  
وحسبك إلف النوع بالنوع شاهد  
فإن ازدواج الشكل بالشكل مشعر

بقوة تميز وصحة فطرة  
ولو لم يكن إلا تفاهمها إذا  
لكان لنا فيه دليل يدلنا  
فمن ظن شيئاً غير هذا فإنه  
وقد شهد الذكر الحكيم بأنها  
وهل يصدق التسييح من غير عاقل

ولكن عيون الجهل غير بصيرة  
تأمل صلاة الشمس عند وقوفها لدى الظهر في وسط السماء بخشية

وإثباتها وقت الزوال ببركة وإتمامها عند الغروب بسجدة  
كذا جملة الأفلاك راحة بما جرت سجدة لله في كل طرفة  
وماذا الذي أعمى عيون قلوبهم ونورك فيهم مستطير الأشعة  
لقد عظمت تلك الرزية موقعاً لدى كل ذي عقل سليم وجلت  
أرى كل ذي سكر سيصحو من الهوى  
سواي فصحوي فيك علة سكرتي  
فما اتفقت لي مذ عرفتك خلوة بنفسي إلا همت فيك بجلوة  
ولا عرضت لي في دجى الفكر هجعة  
فأغفيت إلا فزت فيك بيقظة  
ولا استغرقتني في المحاسن بهتة فثارت بحسن غير حسنك بهتي  
ولا سنحت في باطن القلب خشية  
فكانت لشيء غير هجسرك خشيتي  
ولا خضعت نفسي لأمر ترومه فكانت لشيء غير وصلك خضعتي  
ولا استقبلتني من جنابك نفحة أسرت حديثاً عنك إلا وسرت  
وأصغى إلى تحصيله في مسامع الـ مشاعر مني كل منبت شعرة  
وأحسست في نفسي بلطف ديب ما  
سقت من حيا الحب لما تمشت  
وهل شارب كأساً من الحب جاهل  
بما أحدثت في عقله حين دبت  
فقد حقق الدعوى القياس وأين من  
كثافة جسم الخمر لطف المحبة  
إذا غبت عني كنت عندك حاضراً  
ومن عجب أن غيبتني فيك حضرتي  
فيا باطناً ألقاه في كل ظاهر ويا أولاً ما زال آخر فكرتي

تشابهه إعلاني وسري ومشهدي      وغبي وسري في هواك وشهري  
تجمعت الأضداد فيّ ولم يكن      بمستغرب لي في الهوى كل بدعة  
فنوعي في شخصي لأني نتيجة      لكل قياس عن ضروب عقيمة  
ملأت جهاتي الست منك فأنت لي

خيطة وأيضاً أنت مركز نقطتي  
فصرت إذا وجهت وجهي مصلياً      فرائض أوقاتي فننسي كعبي  
فصار صيامي لي ونسكي وطاعتي      ونحري وتعريفي وحجي وعمري  
وحول طوافي واجب وخلاله اسـ      ستلامي لركني من مناسك حجتي  
وذكرى وتسيحي وحدي وقربتي

لنفسني وتقديسي وصفـو سريـرتي  
ولو همّ مني خاطر بالتفاتة      لما كان لي إلا إليّ تلفتي  
ولو لم أؤد الفرض مني إليّ لم      يصح بوجه لي ولم تبّر ذمتي  
وكنت على أني أوجد ظاهراً      ففي باطني قد دنت بانثوية  
كذا من يكن قد صح عقد وداده      ولم يتهم يوماً بسقم عقيدة  
وينفي اتصال النفس بالعقل واقفاً      على حس ما في عالم الحس أبلت  
فإن قهرت فيه قوى الجسم ألحقت      بعالمها مملوءة بالمسرة  
وإن قهرت فيه قوى النفس لم تصل

إليه طوال الدهر يوماً بجيلة  
وتبقى كما قد جاء تهوى وليتها

هوت ما هوت ثم ارعوت واستقرت  
ولكنها تبقى بنيران حسرة الـ      بعاد تقاسي ضيق أغلال كربة  
مذبذبة لا عالم العقل أدركت      ولا عالم الأجسام فيه تبقت  
فترجع إلى إحدى الحنين حنينها      إلى عالم العقل الذي عنه صدت  
وهيات أن يطوى لسير حنينها      إليه الذي قد حال من بعد شقة

وأنى لها والحس قد حال بينها  
إذا ذكرته هز هامس طائف  
وما ذاك بالمدني إليه ولا الذي  
أسى كلما قيل انقضت منه لوعة  
تزول الجبال الشم وهي مقيمة  
وذلك أمر نسأل الله عصمة  
ألم يك فيما نال آدم عبرة  
على قربيه من ربه واصطفائه  
وإبعاده من بعد ذاك وصدّه  
ولم يأت ذنباً عامداً غير أنه  
فأخطأ في التأويل جهلاً فحطه  
ولم يخف ما لاقى إذا انخط هابطاً

إلى الأرض من هول الأمور العظيمة  
وما زال يدعو الله سرّاً وجهرة  
وكيف بمن يأتي ذنباً كثيرة  
وكم جاهل لم يزدجر بالذي جرى  
لقد شمل الخير الوجود بأسره  
ولم يكن المقصود بالذات إنما  
ألم تر أن الغيث خير وإنه  
وأن هيب النار للشوب محرق  
فقد يتبع الخير الكثير الذي نرى  
ولو روعي الضر الذي فيها لنا  
وكان هلاك الحرث والنسل عاجلاً  
وذاك بلا شك خراب البسيطة



ولم يك إلا عالم الأمر وحده  
 ولم يخف ما في ذاك من نقص خلقه  
 وفي الحشرات الساقطات منافع يحيط بها أهل العقول السليمة  
 ولو لم تكن ما عاش من نوعنا امرؤ  
 لفضل بخارات الهيو إلى الرديئة  
 فمن ذلك الفضل الرديء تكونت  
 وفي مدخل الأوساخ في الأرض حلت  
 وغودر ما نلقيه منا غذاؤها  
 لتنتعش الأرواح منا بطيبه  
 ويصفو لنا ورد الحياة الهنيئة  
 وقد ركب الأجسام منا وكل ما  
 تركب منحل ولو بعد برهة  
 وألبس منا كل جزء بجيز  
 لأركاننا الذاتية العنصرية  
 وما جمعنا بعد افتراق بمعجز  
 وهل آخر يخلو عن الأولية  
 وإن معاد الشيء بعد انعدامه  
 لأسهل من إنشاء إنشاء بدأة  
 ومطلع شمس النفس من مشرق الخلا  
 سيطلعها من مغرب العدمية  
 فسبحان من يحيي بقدرته الذي يميت كما أحياء أول مرة



## الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم الكتاب	٣
خطبة الكتاب	٣١
فهرس الكتاب للمؤلف	٣٤
مقدمة المؤلف	٣٩
في معاني الألفاظ المترادفة على النفس وهي أربعة	٣٩
النفس تطلق بمعنيين	٣٩
القلب يطلق أيضاً بمعنيين	٤٠
الروح (يطلق ويراد به ثلاثة معان)	٤١
العقل (يطلق ويراد به ثلاثة معان)	٤١
بيان إثبات النفس على الجملة	٤٢
تقسيم يظهر فيه مبادئ الأفعال	٤٣
رسوم النفوس الثلاثة	٤٤
رسم النفس النباتية	٤٤
رسم النفس الحيوانية	٤٤
رسم النفس الإنسانية	٤٥
بيان أن النفس جوهر	٤٥
إثبات جوهرية النفس من جهة الشرع	٤٥
إثبات جوهرية النفس من جهة العقل	٤٦
الوجه الأول: وجه عام يمكن إثباته مع كل أحد	٤٦

الموضوع	الصفحة
الوجه الثاني : وهو البيان الخاص ، ويصلح لأهل الفطنة	٤٦
زيادة إيضاح من جهة الإدراك	٤٧
البرهان الأول	٤٩
البرهان الثاني	٥١
البرهان الثالث	٥٢
البرهان الرابع	٥٣
البرهان الخامس	٥٤
بيان القوى الحيوانية	٥٧
انقسام القوى الحيوانية إلى محرقة ومدركة	٥٧
القوى المحركة وأقسامها	٥٧
زيادة تحقيق في أن الحركة الاختيارية التي هي خاصية الحيوان لها مبدأ	
ووسط وكمال	٥٨
الحركة الإنسانية تحتاج إلى حسن عناية وتكليف	٥٩
بيان القوى المدركة	٦٠
تنقسم القوى المدركة إلى قسمين : مدركة من ظاهر ، ومدركة من باطن	٦٠
المدركة من ظاهر تنقسم خمسة أقسام ، وهي الحواس الخمس	٦٠
حاسة اللمس	٦٠
حاسة الشم	٦١
حاسة الذوق	٦١
حاسة البصر	٦٢
حاسة السمع	٦٢
المدركة من باطن تنقسم ثلاثة أقسام : منها ما يدرك ولا يحفظ ، ومنها ما يحفظ ولا يعقل ، ومنها ما يدرك ويتصرف	٦٣

الموضوع	الصفحة
إثبات الحس المشترك	٦٤
بيان القوة الخيالية	٦٥
بيان القوة الوهمية	٦٥
بيان القوة الحافظة	٦٥
بيان قوة التخيل	٦٥
مجال هذه القوى	٦٦
بيان القوة الإنسانية خاصة	٦٧
القوة العملية	٦٧
القوة النظرية	٦٨
العقل الهولاني	٦٩
العقل بالملكة	٧٠
العقل بالفعل	٧٠
العقل المستفاد (وهو العقل القدسي)	٧٠
بيان اختلاف الناس في العقل الهولاني الذي هو الاستعداد المطلق	٧١
بيان أمثلة مراتب العقل من الكتاب الإلهي	٧٢
بيان تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما إلى الآخر	٧٣
بيان حقيقة الإدراك ومراتبه في التجريد	٧٤
سؤالات وانفصالات تحتها نفائس من العلوم	٧٦
السؤال الأول	٧٦
السؤال الثاني	٧٧
السؤال الثالث	٧٨
السؤال الرابع	٧٩
السؤال الخامس	٧٩

الموضوع	الصفحة
السؤال السادس .....	٨٠
السؤال السابع .....	٨٠
السؤال الثامن .....	٨١
السؤال التاسع .....	٨٢
السؤال العاشر .....	٨٣
السؤال الحادي عشر .....	٨٤
السؤال الثاني عشر .....	٨٥
السؤال الثالث عشر .....	٨٥
السؤال الرابع عشر .....	٨٦
السؤال الخامس عشر .....	٨٦
السؤال السادس عشر .....	٨٧
ذكر منشأ الفضائل والردائل .....	٨٨
بيان أمهات الفضائل .....	٩٤
الحكمة .....	٩٤
الشجاعة .....	٩٥
العفة .....	٩٧
العدالة .....	٩٩
بيان مثال القلب بالإضافة إلى العلوم .....	١٠٠
بيان أمثلة القلب مع جنوده، وله ثلاثة أمثلة .....	١٠٥
المثال الأول: مثل نفس الإنسان في بدنه كمثال وال في مدينته ومملكته ...	١٠٥
المثال الثاني: أن البدن كالمدينة، والعقل كملك مدبر لها ... الخ .....	١٠٦
المثال الثالث: مثل العقل مثل فارس متصيد، وشهوته كفرسه، وغضبه	
ككلبه .....	١٠٦

الموضوع	الصفحة
بيان أن النفس قد تحتاج إلى البدن وقد لا تحتاج إليه .....	١٠٦
الحس يورد على النفس الناطقة الجزئيات، فيحدث لها من الجزئيات أربعة أمور .....	١٠٦
الأول: انتزاع النفس الكليات المفردة عن الجزئيات على سبيل تجريد	
لمعانيها عن المادة وعن علائق المادة ولواحقها .....	١٠٧
الثاني: إيقاع النفس مناسبات بين هذه الكليات المفردة على مثال سلب وإيجاب .....	١٠٧
الثالث: تحصيل المقدمات التجريبية .....	١٠٧
الرابع: الأخبار التي يقع بها التصديق لشدة التواتر .....	١٠٧
بيان أن هذه القوى كيف يرأس بعضها بعضاً وكيف يخدم بعضها بعضاً .....	١٠٨
بيان أن الأرواح البشرية حادثة .....	١٠٩
تلخيص البرهان على حدوث الأرواح البشرية .....	١٠٩
بيان بقاء النفس .....	١١٩
البرهان على بقاء النفس من المنقول .....	١١٩
البرهان العقلي على بقاء النفس .....	١٢٠
برهان أن النفس لا تنفى مطلقاً .....	١٢٣
بيان إثبات العقل المفارق الفعال والعقل المنفعل في النفوس الإنسانية	
ومراتب العقول .....	١٢٥
إثبات العقل الفعال من حيث الشرع .....	١٢٥
إثبات العقل الفعال من حيث العقل. وإثباته من وجوه .....	١٢٥
الوجه الأول .....	١٢٥
الوجه الثاني .....	١٢٥

الموضوع	الصفحة
الوجه الثالث .....	١٢٧
قاعدة في النبوة والرسالة .....	١٢٩
بيان أن الرسالة لا تقتنص بالحد والحقيقة بذكر جنسها وفصلها ...	١٣٠
بيان أن الرسالة هل هي حظوة مكتسبة أم أثره ربانية .....	١٣١
بيان إثبات الرسالة بالبرهان .....	١٣٢
إثباتها بالطريق الجملي .....	١٣٢
إثباتها بالطريق التفصيلي ويتم من طرق .....	١٣٣
الطريق الأول: برهان أنشيء من الحركات الاختيارية .....	١٣٣
الطريق الثاني: نوع الإنسان محتاج إلى اجتماع على صلاح في حركاته	
الاختيارية ومعاملاته المصلحية .....	١٣٤
الطريق الثالث: إثبات الأمر لله عز وجل .....	١٣٤
بيان خواص النبوة .....	١٣٦
الخاصية الأولى: وهي تابعة لقوة التخيل والعقل العملي .....	١٣٦
الخاصية الثانية: وهي تابعة للقوة النظرية .....	١٤٢
الخاصية الثالثة: وهي تابعة لقوة النفس .....	١٤٥
خاتمة لهذا الباب .....	١٤٦
بيان السعادة والشقاوة بعد المفارقة .....	١٤٧
السعادة البدنية (وقد شرحها الشرع أتم شرح) .....	١٤٧
السعادة أو الشقاوة بحسب الروح والقلب .....	١٤٧
لكل قوة نفسانية لذة وخيراً يخصصها ، وأذى وشرّاً يخصصها .....	١٤٨
النفس الناطقة كنهها الخاص بها أن يصير عالماً عقلياً مرتسماً فيه صورة الكل .....	١٤٩
مصير النفوس العاقلة التي بلغت حدّاً من الكمال .....	١٥١
مصير النفوس والقوى الساذجة .....	١٥١



## الصفحة

## الموضوع

- ١٥٤ ..... خلاصة هذا الفصل
- ١٥٥ ..... فصل في النفس الإنسانية إذا تجردت عن البدن ولم يبق لها علاقة إلا بعالمها
- ١٥٦ ..... بيان حقيقة اللقاء والرؤية
- ..... المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور المتخيلة والأجسام ...
- ١٥٦ ..... إلخ، وإلى ما لا يدخل كذات الله سبحانه وكل ما ليس بجسم ..
- ..... المعلومات التي تشكل في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان: إحداهما أولى
- ١٥٦ ..... والثانية استكمال لها
- ١٥٨ ..... المعرفة على درجات
- ١٥٩ ..... التجلي على درجات
- ..... خاتمة تنعطف فائدتها على ما سبق من معرفة النفس وقواها، والتدرج إلى
- ١٦١ ..... معرفة الحق جل جلاله
- ١٦١ ..... الأمور اللازم معرفتها في واجب الوجود
- ١٦١ ..... الأمر الأول: أنه لا يكون عرضاً
- ١٦٢ ..... الأمر الثاني: لا يكون جسماً
- ١٦٢ ..... الأمر الثالث: أنه لا يكون مثل الصورة، ولا يكون مثل المادة
- ١٦٢ ..... الأمر الرابع: أنه لا يكون وجوده غير ماهيته
- ..... الأمر الخامس: أنه لا يتعلق بغيره على وجه يكون كل واحد منها علة
- ١٦٢ ..... للآخر
- ..... الأمر السادس: أنه لا يتعلق بغيره على وجه يتعلق ذلك الغير به على سبيل
- ١٦٢ ..... النضايق
- ١٦٢ ..... الأمر السابع: لا يجوز أن يكون شيئان كل واحد منهما واجب الوجود .
- ..... الأمر الثامن: كل ما سوى واجب الوجود ينبغي أن يكون صادراً من
- ١٦٣ ..... واجب الوجود

الموضوع	الصفحة
الدليل على أن في الوجود موجدًا واجب الوجود يتعلق الكل به ولا يتعلق	
وجوده بغيره .....	١٦٣
صفات واجب الوجود .....	١٦٧ - ١٦٤
خاتمة واعتذار .....	١٦٧
القول في معرفة ترتيب أفعال الله وتوجيه الأسباب إلى المسببات ...	١٦٧
أقسام أفعال الله سبحانه وتعالى .....	١٦٨
جميع أفعال الله تعالى تنقسم إلى عقول مجردة عن المواد ، وإلى نفوس محرّكة	
للمسومات ، وإلى أجسام .....	١٦٨
أفعال الله تعالى تنقسم إلى متأثر لا يؤثر ، ومؤثر لا يتأثر ، ومتأثر يؤثر .	١٦٩
تقسيم الموجودات باعتبار الكمال والنقصان .....	١٧٠
نوع آخر من المعرفة .....	١٧٠
أشرف المبدعات هو العقل .....	١٧١
أمر الأول الحق جل جلاله بالنسبة إلى وجود العقل إبداع ، وبالنسبة إلى	
وجوده في دوامه تكميل بالفعل ... الخ .....	١٧٢
فصل في أن كل صاحب مرتبة لا يستغني عما فوقه بالإمداد له والإفاضة	
عليه والنظر إليه والتأييد له .....	١٧٣
فصل في أن الآدمي يجب أن يستكمل نفساً بالشريعة كما استكمل بدنًا	
بالطبيعة .....	١٧٤
خاتمة كتاب معارج القصد .....	١٧٦
القصيدة الهائية .....	١٧٩
القصيدة التائية .....	١٨٢
الفهرس .....	٢٠١



١٦٠٧٣ - ١٧١٤٤ - ١٧١٧٧ - ١٧٢٠٠  
 ١٧٢٠٠ - ١٧٢٣٣ - ١٧٢٦٦ - ١٧٢٩٩